جامعة اليرموك
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
دائرة اللغة العربية وآدابها

الأسرة في شعر العصر العباسي

حتى نهاية القرن الثالث الهجري

105836

رسالة ماجستير

إعداد :
أمل طاهر محمد نصير
إشراف الدكتور
عبد القادر الرباعي

الأسـرة
في شعـر العصـر العباسـي
حتى نهاية القـرن الثالث الهجـري

إعـداد

أمل طاهـر محمـد نصيـر

١٤٠٧ - ١٩٨٧م

الأسرة في شعر العصر العباسي
حتى نهاية القرن الثالث الهجري

اعداد

أمل طاهر محمد نصير

بكالوريوس لغة عربية ، جامعة اليرموك
كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية
١٩٨٣م

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة
الماجستير من جامعة اليرموك ،تخصص لغة عربية
أدب ونقد .

لجنة المناقشة :

- الدكتور عبدالقادر الرباعي (المشرف) رئيسا
- الاستاذ الدكتور هاشم ياغي عضوا
- الدكتور قاسم المومني عضوا

الاهـــــــــــــــداء

=====================

الـى الذيـن شاركونـي الصبر والمعانـاة والاحتمــال ....

الـــى :

بسام .... زوجـــي .

لمـا وممن ومحمد ....أولادي .

أمـــل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

دراسة الأسرة من المواضيع التي لم تنل اهتمام دارسي الأدب العربي القديم ، فلست على علم بأي دراسة مستقلة خصصت للأسرة في هذا الأدب . كان اهتمامهم منصبا على قضايا عدوها أكثر اهمية كالسياسة والعلاقات الاجتماعية من مدح وهجاء ورثاء وغزل وما الى ذلك . لقد ظلت مثل هذه القضايا تشغل أفكارهم واقلامهم ، أما القضايا الأخرى التي كانت - بنظرهم - أقل أهمية فقد ظلت بعيدة عن ميدان اهتمامهم ودراستهم ، وشعر الأسرة كان احد المواضيع المهملة في هذا المجال ، وقد يكون كتاب الدكتور مخيمر صالح " رثاء الابناء في الأدب العربي " فريدا في هذا الباب بالرغم من أنه يتناول جانبا من جوانب الأسرة فقط . وما عداه فاننا لا نجد سوى اشارات لبعض جوانب الأسرة في بعض الدراسات التي اهتمت ببحث جوانب الحياة العامة من خلال شعر العصور الماضيه ، كسلسلة كتب تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ، لكن هذه الاشارات ظلت في موضعها من هذه الكتب عابرة ولا تعطي فكرة دقيقة عن العلاقات الأسرية في أي عصر . من هنا جاءت هذه الدراسة لتسد نقصا واضحا في الدراسات التي تجعل موضع اهتمامها نصوص الشعر العربي القديم.هذا فضلا عن ان البحث في الأسرة من الأمور التي تلبي لدي رغبة خاصة . ان تتبع العلاقات الأسرية من خلال الشعر ، خصوصا الشعر القديم ، من مجالات اهتمامي الرئيسة ، وعندما فكرت في اختيار بحث لرسالتي وجدتني متوقفة عند شعر العصر العباسي لما لهذا العصر من ظروف خاصة ادت الى تغيير ما في بناء الأسرة وطبيعتها .

كان اختياري العصر العباسي ناتجا عن أنني اعي التحول الكبير الذي أصاب المجتمع العربي المسلم آنذاك ، فقد اتسعت الرقعة التي اصبح العرب المسلمون يسيطرون عليها اتساعا كبيرا وكانت هذه الرقعة الواسعة تضم عددا كبيرا من السكان المختلفين في اجناسهم وفي طباعهم وعاداتهم ، ومن أهم هذه الأجناس الفرس والروم والهند والترك والبربر والأرمن بالاضافة الى العرب اصحاب السلطة والحكم ، وقد اختلط العرب الوافدون الى هذه البلاد الشاسعة بالسكان الأصليين عن طريق السكنى والمصاهرة،وقد أثر العرب في السكان الأصليين وتأثروا بهم . ولا يهمني هنا شرح مظاهر التأثر والتأثير،فهي كثيرة ومتنوعة ، ولكن الذي يهمني هو الأثر الكبير الذي تركه الاختلاط العربي بالعناصر الأخرى على الأسرة العربية ، اذ أدى هذا

الاختلاط الى اختلاف في بنية المجتمع العربي المسلم ، وهذا الاختلاف أدى بدوره الى اختلاف طبيعة العلاقات الأسرية في الأسرة الواحدة ، هذا بالاضافة الى وجود الجواري وحياة الترف التي عاشها بعض أفراد المجتمع مما أدى الى تأثير في بنية الأسرة وعلاقاتها .

والموضوع كأي موضوع جديد كثرت فيه المشكلات سواء في جمع المادة أم في دراستها . فشعر الأسرة متناثر في بطون المصادر العامة امثال كتاب الأغاني والعقد الفريد وطبقات الشعراء والكامل في الأدب والبخلاء والبيان والتبيين، وتاريخ الطبري ، ومروج الذهب وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير ، ودواوين الشعراء الذين هم ضمن فترة الدراسة. وكان ديوان ابن الرومي اغنى هذه الدواوين في هذا المجال لذا كان عليّ أن أقوم بعملين متساندين : أولهما جمع اكثر شعر الأسرة من مظانها في تلك المصادر والدواوين . وثانيهما تصنيف ذلك الشعر ودراسته دراسة موزعة توزيعا علميا .

وقد جاءت الرسالة مقسمة الى تمهيد وخمسة فصول ، وفي التمهيد حاولت تتبع الأطر العامة للأسرة في العصر الجاهلي واختلاف مفهومها هناك عن مفهوم الاسلام لها .

والفصل الأول : تناولت فيه العلاقات الزوجية فعرضت لمظاهر الوئام بين الزوجين ، ولدوافع الاثارة بينهما، ثم الخصومات الزوجية فالطلاق، موضحة أسباب ذلك كله ونتائجه .

و الفصل الثاني : درست فيه شعر الأمومة وبنيته على أسس ثلاثة : الأول شعر الأمهات في الأبناء ، والثاني : شعر الأبناء في الأمهات ، والثالث : الأمومة في شعر المناسبات .

و الفصل الثالث : وهو مشابه من حيث البنية للفصل السابق، وأقسامه : - الأول : شعر الآباء في الأبناء ، والثاني : شعر الأبناء في الآباء ، والثالث الأبوة في شعر المناسبات .

والفصل الرابع : عرضت فيه للاخوة ونماذجها التي وردت في الشعر وكان الاهتمام منصبا فيها من الأخوة الحقة (الاشقاء) اذ درست شعر الوئام ومظاهر الخصام بين الاخوان ثم عرضت للأخوة العامة وعقدت مقارنة بين النوعين .

وأما الفصل الأخير: فكان دراسة الاسلوب الفني بشعر الأسرة وقد ركزت فيه على دراسة بنية النماذج الشعرية الغالبة على شعر الأسرة ، وحاولت توضيح الفروق بين هذه النماذج في البناء والموضوع .

وأخيرا أقدم شكري وتقديري لكل من ساعد في اخراج هذه الرسالة الى الوجود ، وأخص بشكري أستاذي المعطاء الدكتور عبدالقادر الرباعي الذي أفادني بعلمه وعقله فكان مثال الأستاذ الذي لا يتوانى عن تقديم كل عون لطلابه ، جزاه الله عني وعنهم كل خير ومنحه مزيدا من النجاح والتوفيق .

تمهيـــــد

قبل البدء بدراسة اوضاع الاسرة في المجتمع العباسي ، لابد من توضيـــح بعض المفاهيم المتعلقة بها ،

الأسرة في اللغـــــة : ذكرت المعاجم العربية تحت مادة (أسر) ان من معانـــي الاسرة الدرع الحصينة ، والإسار ما شد به والجمع اسر ، وأُسرة الرجل عشيرتـــه ورهطه الادنون لانه يتقوى بهم ،،،، والأسرة - ايضا - عشيرة الرجل وأهل بيته "(١)

فالاسرة بمعناها اللغوى الواسع هي عشيرة الرجل ، وهو ما يمكن ان يطـــلق عليه اسم الأسرة الممتدة ، وقد وجد هذا النوع في القديم ، وأُسرة الرجل بهـــذا المفهوم تكفل له الرعاية والحماية مقابل أدائه لواجبات تكفل لها وله البقـاء وتظل الرابطة التي تربط بين الإنسان وأُسرته هنـــا رابطة الدم والقربى .

والأسرة كذلك تعنى بمعنى اضيق بيت الرجل ، اي أُسرته الصغيرة ، وهو يقـــوى بها بما توفره له من رعاية وحماية ايضا وعليه ان يقدم لها واجبات أساسيـــة تكفل لها التضامن والتراحم . فالأسرة نظام اجتماعي يكفل لافراده الحمايـــة والرعاية والتواد .

هذا في اللغة اما في الاصطلاح فيجد الدارسون صعوبة في تحديد معنى الاسرة اذ ان هذه اللفظة شائعة لدى الناس جميعا وهم يتعاملون بها في ايامهم العاديـــة وأحاديثهم اليومية ، لكننا اذا طلبنا من احدهم تعريفها صعب عليه تحديـــد المقصود بها بدقة كما اننا نجد اختلافا في تعريف الدارسين لها والسبب فـــي ذلك كما يعزوه الدكتور محمد عقله - الذى يدرس الاسرة من زاوية دينية - عـــدم ورودها في القرآن الكريم او الحديث الشريف وورود كلمة اهل بدلا منها ، هـــذا بالاضافة لغموض مدلول الكلمة ولكونه مطاطا (٢) فهذه اللفظة تطلق على انـــواع متعددة ومختلفة من الاشكال والعلاقات الاسرية . ومما صعب تحديد معنى الاســـرة بدقة تعدد انواع الأسر وتطورها وتغيرها واختلافها من جيل الى جيل ومن مكـــان الى آخر ، وأن هذا الاختلاف في تحديد معنى الأسرة لا يكمن في الدراسات الدينيـــة او التفسيرات اللغوية والأدبية وإنما هو كذلك في دراسات علم النفس والاجتمـــاع

---

(١) لسان العرب ابن منظور المطبعة الاميرية ، مصر ، ١٣٠٠هـ ج٥ ص ٧٦ - ٧٧ مادة (أســـرَ) .

(٢) نظام الاسرة في الاسلام ، د.محمد عقلة ، نشر مكتبة الرسالة الحديثة عمان ، ط١ ، ج١ ، ص ٨

اذ يجد الدارسون هناك صعوبة في تحديد معنى الأُسرة ، وتختلف التعريفات من دارس الى اخر ، وقد حدا هذا بالدكتورة سناء الخولي ان تعد تعريف الأُسرة مشكلة [١] . ومع هذا فسأتكلف تعريفا بسيطا للأُسرة التي اود دراستها في هذا البحث ، انها الأُسرة النواة كما يسميها علماء الاجتماع ، او الأُسرة الضيقة كما يحلو للبعض ان يسميها [٢] . فالأُسرة النواة : هي وحدة اجتماعية تتكون من زوجين يربط بينهما رباط شرعي ولهما ولد واحد او أكثر ولكل فرد من افراد هذه الوحدة حقوق وعليه واجبات يتعاون الجميع في أدائها من اجل حياة مستقرة وهانئة .

وعليه فان الأسرة لا بد ان يتوافر لها عناصر ثلاثة هي الزوج والزوجة والأبناء ، ولا بد أن يجمع هذه العناصر رابط شرعي حتى يعترف بها اجتماعيا وتخضع لضوابط المجتمع وأحكامه الدينيه والخُلقية .

أهمية الأُسرة : -

تعود أهمية الأسرة للوظائف المهمة التي تقوم بها ، فعلى عاتقها يقع توفير الأمن والاستقرار النفسي والاجتماعي والاقتصادي لأفرادها . كذلك يقع على عاتقها حماية أفرادها من كل عدوان خارجي مهما كان نوعه .

ولعل أخطر وظيفة تقوم بها الأُسرة هي امداد المجتمع بأفراد أصحاء عقليا وجسميا ونفسيا ، فهي المهد الاول والمهم لانشاء الاطفال الذين هم فيما بعد رجال المجتمع وبناته ، لذا لا بد للأُسرة ان تكون على درجة من القوة المادية والنفسية لتستطيع أن تقوم بمهمتها على افضل وجه وهي انشاء مجتمع قوي وسوي . ولقد أولى القران الكريم الأُسرة اهتماما كبيرا ووضع الأحكام والتشريعات الشاملة والواضحة التي تضمن لمنفذيها انشاء أُسرة سوية ، كان للعلاقة الزوجية النصيب الأكبر من هذه الأحكام والتشريعات ، ذلك لما للعلاقة الزوجية المبنية على أساس سليم من أهمية في تحقيق الاستقرار العائلي . ومن هنا فقد نظم القرآن جميع علاقات الزواج بدءا من التفكير به وحتى انتهائه بالطلاق او بالموت ، هذا بالاضافة الى تنظيم العلاقات الأُسرية الاخرى بين الوالدين وأبنائهما او بين الاخوة انفسهم ، وقد تابعت السيرة النبوية العطرة هذا الاهتمام بتدعيم ما جاء في القران الكريم وباضافة كثير من التوجيهات التي تفيد في تنظيم العلاقات الاسرية وتدعيمها .

---

(١) الزواج والعلاقات الاسرية د. سناء الخولي - دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٢م ص : ٣٣

(٢) نظام الاسرة في الاسلام ج١ ، ص : ١٠ .

قبل البدء بدراسة الأسرة في المجتمع العباسي لا بد من مرور سريع بالأسرة قبله للتعرف الى اوضاعها في كل من المجتمعين الجاهلي والاسلامي اذ لم يدرس أحد الأسرة في حدود معرفتي في العصر الجاهلي ، ولكن من الممكن تلمس بعض مظاهرها ، من خلال ما جاء بالقرآن الكريم ، ومن خلال بعض نصوص الأدب الجاهلي فبالرغم من بعض معالم الاستقرار التي كانت تسودها الا ان كثيرا من مظاهر التفكك كانت منتشرة هنا وهناك في أرجاء ذلك المجتمع فلم يكن هناك ضابط يضبط كثيرا من علاقاتها وتنظيماتها خاصة فيما يتعلق باحكام الزواج ، اذ كان للزوج سلطة غير محددة في بيته وفي علاقته مع زوجته وأولاده ، يبيح لنفسه الزواج والطلاق متى شاء لا يحكمه في ذلك غير خلقه الخاص وبعض العادات القبلية ، واذا نبا خلقه عن الصراط المستقيم لا يجد من يردعه ، ولكن هذا لم يكن عاما اذ كان لبعض النساء سلطة كبيرة فكن هن اللواتي يطلقن أزواجهن[١] ، أما عند الزواج فكان الزواج يتم برضا الفتاة وأهلها في الغالب " وكان الرجل يتزوج المرأة برضا آلها ولم يكن لها ان تنفرد بالامر دونهم ، وهذا هو النظام الذي شاع عندهم ، وكانت الفتيات يستشرن " .[٢]

وتعدد الزوجات كان مباحا بصورة عامة ودونما نظام قال الدكتور احمد الحوفي :" اما تعدد الزوجات فقد كان شائعا ولم يكن لهم عدد ينتهون اليه وقد أسلم غيلان الثقفي وتحته عشر نساء "[٣] كذلك كانت أحكام الرجل جائرة بالنسبة لملك اليمين من الإماء اذ كانت تورث كما يورث المتاع حتى لو كانت أما وقد يرث الابن زوجة أبيه فتصبح من ملك يمينه يحق له الزواج منها " أيضا وقد حرم الاسلام ان يتزوج الابن امراة أبيه بعد موته "[٤] كذلك كانوا يفرقون بين اولادهم من الإماء والحرائر تفريقا يؤدي الى الظلم ، من ذلك عدم الاعتراف بابن الامة ابنا شرعيا فلا يلحقة والده بنسبه ولا يورثه الا اذا شاء هو اوظهرت عليه مظاهر النبوغ او الفروسية ، ولعل قصة عنتره مع أبيه من اوضح الأمثلة على ذلك ، وقد أكثر عنترة من قول الشعر في ذلك فقال : -

إن كنت في عدد العبيد فهمتي

فوق الثريا والسماك الأعزل

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، احمد الحوفي ، دار النهضة مصر للطباعة والنشر ،ط ٥ ١٩٧٢ / ص : ٢٢٢

(٢) المصدر السابق ٢١٩ .

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٢٣ ،والأمومة في القران الكريم والسنه النبوية ، محمد السيد الزعبلاوى مؤسسة الرسالة ط١ ، ١٩٨٤م ،ص ٢١٧ .

(٤) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ط دار المعارف - مصر - ط٣ ، ص : ٧٥ .

او أنكرت فرسان عبس نسبتـــي

فسنان رمحي والحسام يقـــر لـــي
وبذابلي ومهندي نلت العـــلا
لا بالقرابة والعديد الأجـــــزل[١]

كما أنهم كانوا يفرقون بين أولادهم من ذكور وإناث حتى أدى بهم الأمر الى كره البنات كرها شديدا بل الى وأدهن أحيانا وقد جاء ذلك في القـــرآن الكريم :" واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم.يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون[٢]"

ومع هذا كله فقد كان هناك بعض مظاهر الترابط الأسرى في العصر الجاهلي ولعل أبرز مثال على ذلك هو سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام قبل النبوة مـــن كفالة جده له ثم عمه وحسن معاملتهما له . وكذلك ما يمكن الوقوف عليه مـــن خلال اشعارهم في رثاء الآباء والأبناء والأخوة ، من ذلك رثاء لبيد بن ربيعـــة لاخيه أربد [٣] ، ورثاء الخنساء لاخويها صخر ومعاوية [٤]وجزع أبي ذؤيب الهذلـي على أبنائه وبكائه الشديد عليهم [٥]وغير ذلك كثير . وكذلك ما جاء في وصايـا الجاهلين لابنائهم وبناتهم عند الموت او السفر او الزواج مما تزخر به كتـــب الأدب ، فكل هذه الأمثله تعد مظاهر لما كان يسود الأسرة آنذاك من علاقات .

وبمجيء الإسلام انقلبت حياة العرب رأسا على عقب في كثير من نواحـــي الحياة ، وقد نال الأسرة نصيب وافر من اهتمام القرآن الكريم والحديث الشريف فقد أقرّ الاسلام بعض ما كان موجودا من علاقات انسانية نافعة في حماية الأســـرة وشد ازرها . وغير كثيرا من العلاقات الفاسدة او غير المبنية على أساس سليم .

فقد ساوى بين الناس جميعا من الأصل والمنشأ: " يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة "[٦]وبذلك حل مشكلة الاماء وأبنائهن ، اذ تصبح حرة بمجرد موت مالكها اذا انجبت منه ، ولا يجوز التفريق بينها وبين اولادهـــا وكذلك لا يجوز للرجل الجمع بين الأمتين الأختين ولا بين الأمة وقريبتها كالعمـــة والخالة ، كما هو الحال بالنسبة للزوجات الحرائر .

---

(١) ديوان عنترة شرح الاستاذ عبد المنعم شلبي ، ص١٠٨ .
(٢) سورة النحل الاية ،٥٨
(٣) الكامل " ابو العباس المبرد ، تعليق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته مكتبة النهضة /مصر القاهرة ١٩٥٦ ج٤ ،ص٣٢ .
(٤) المصدر السابق ج٤ ،٤٧، ٤٨، ٥٢٠٠٠
(٥) شرح أشعار الهذليين ابو سعد السكري ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، مراجعة محمود شاكر مطبعة المدني ، الناصرة ، دار مكتبة المعرفة ، ١٩٦٥ ج١ ،٣٢وما بعـــدها .
(٦) سورة النساء ،الاية (١)

All Rights Reserved - University of London - Centre of Islamic Documentation

كما أنه ساوى بين ابناء الرجل الواحد من الإماء والحرائر في الاعتراف بالنسب والميراث بكافة الحقوق والواجبات ولم يعد يحرم ابن الامة من ميراث أبيه كما كان في الجاهلية فقد قال ابن عبد ربه : " وكانت العرب في الجاهلية لا تورث الهجين "[1] ولا يفوتني ان أذكر هنا أن بعض القضايا استمرت بعد مجيء الاسلام كاستمرار تسمية ابن الأمة هجينا عند بعضهم ، وكذلك رفض مساواته بابن الحرة ومحاولة بعضهم حرمان ابناء الإماء من الميراث " فقد ذهب اعرابي الى سوّار القاضي فقال : إن أبي مات وتركني وأخا لي - وخط خطين ناحية - ثم قال : وهجينا لنا - ثم خط خطا آخر ناحية - ثم قال كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم اثلاثا ان لم يكن وارث غيركم ، فقال لا احسبك فهمت إنه تركني وأخي وهجينا لنا ، فقال سوّا ر:المال بينكم سواء ، فقال الاعرابي : أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخي ؟ قال : أجل ففضب الاعرابي وقال والله انك قليل الخالات بالدهناء "[2]. ولكن تبقى هذه فردية لا يقاس عليها ، وهي بطبيعة الحال مخالفة لنصوص القران الكريم ولروح الشرع الاسلامي السمحة . وكذلك فقد اهتم القرآن الكريم بالعلاقة الزوجية اهتماما خاصا باعتبارها الأساس في التكوين الأسري فاوضح الأسس التي يجب ان تقوم عليها وهي المودة والرحمة :" ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة "[3] ولعل هذه المودة والرحمة هي اكثر ما يحتاجه الزوجان لاقامة علاقة زوجية مستقرة يستطيعان من خلالها صيانة حياتهما في الدنيا والاخرة . وكذلك تنشئة أولادهما التنشئة التي يرضاها الله والمجتمع لهم .

ولم يكتف القرآن الكريم بوضع أسس المساواة والمودة والرحمة في العلاقة الزوجية لعلمه بطبيعة الانسان الخطاءة التي تضطره الى الانحياز عن طريق الصواب أحيانا ، ولما قد يجد في حياة الانسان من ظروف تدفعه للزواج من اخرى او الطلاق . فقام بوضع الأسس المناسبة والرادعة في الوقت ذاته ، لكل من تحدثه نفسه الاستهانه برباط الزوجية ، لقد جعل الله هذا الرباط مقدسا وجعل حسن المحافظة عليه طريقا من طرق التقرب الى الله ولا يتسع المجال هنا لذكر هذه الأحكام وتفاصيلها اذ انه علم قائم بذاته يحتاج الى أكثر من بحث طويل[4].

---

(١) العقد الفريد ، ابن عبد ربه الاندلسي ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ١٩٦٣ ط٣ ك ٦ : ١٢٩ .

(٢) عيون الاخبار ابو محمد مسلم بن قتيبه الدينوري ، عن دار النشر ١٩٦٣ ج٢ ، ص٦١.

(٣) سورة الروم ، الاية (٢١) .

(٤) انظر نظام الاسرة في الاسلام ج١ ، ص ٦٧ وما بعدها .

وأخيرا فقد نظم علاقة الوالدين بأبنائهما والتي يجب ان تقوم على الحب والمساواة بين الابناء ذكورا وإناثا ، وكذلك المساواة بين الذكور انفسهم والاناث انفسهن . كما أنه حرم التشاؤم بولادة البنت بالاضافة الى تحريم وأدها تحريما قاطعا ومما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا المجال قوله "لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات "[١] وكذلك أمر الأبناء بحسن معاملة الاباء واحترامهم " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا "[٢]. كما انه خص الأم بالرعاية والعناية فألزم الابناء البر بها " ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه كرها ووضعته كرها "[٣] هذا بالاضافة الى ما ورد عن الرسول الكريم من احاديث تحض على رعاية الام والبر بها . كل ذلك ادى الى ايجاد نظام أسرى متكامل فيه كل مقومات النجاح لمن يريد ان يأخذ به، كما انه دعم الروابط الأسرية ذاتها داخل الأسرة الواحدة ومنها انطلق الى المجتمع بأسره .

وقد استمر الحال كذلك بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وزمن الخلفاء الراشدين اذ حث هؤلاء على مزيد من الحفاظ على الأسرة . وحاربوا كل ما يمكن ان يؤثر على صفاء العلاقات الزوجية من آفات اجتماعية وغيرها . واستمر الحال كذلك زمن الامويين بالرغم من تزايد النفوذ الأجنبي من فارسي وغيره وعلى الرغم من وجود عدد لا بأس به من الجواري اللواتي بدأن يزاحمن المراة الحرة الا أنها ظلت هي المفضلة وأولادها هم المفضلين على أبناء الجواري، بل ذهبوا أكثر من ذلك فكرهوا ان يولوا العهد لمن كانت أمه أمة وذلك لاحساسهم بتخلفه عن اولاد الحرائر ، وعللوا ذلك بان العرب لا تصلح لهم [٤] وفيما يختص بالعلاقات الزوجية فقد كثر تعدد الزوجات في العصر الاسلامي والأموى ، ويبدو ان هذا لم يكن لحاجة ماسة او لضرورة قصوى انما اصبحت المتعة دافعا رئيسيا لدى بعضهم. ولعل قصة الخليفة الأموي الوليد بن يزيد أوضح مثل على ذلك اذ انه طلق زوجته لا لشيء الا لأنه أعجب باختها سلمى فاراد الزواج منها ، وعندما رده والدها أراد استرجاع زوجته فكانت قد تزوجت[٥]. وغير الخليفة الوليد وجد كثيرون

---

(١) مسند احمد ،دار الفكر ،بيروت - لبنان ج٢ ١٥١ رواه احمد بن حنبل عن عقبة بن عامر .

(٢) سورة الاسراء الاية (١٤) .

(٣) سورة الاحقاف ،الاية (١٥) .

(٤) العقد الفريد ج٦ ،ص ١٣٠ .

(٥) الاغاني ،ابو الفرج الصفهاني ،تحقيق مجموعه من الادباء ،مصور عن طبعة دار الكتب ،مؤسسة جمال للطباعة والنشر ١٩٧٦ ، ج٧ ص/٢٥ - ٢٦ .

ممن يكثرون من الزواج والطلاق بالاضافة الى اتخاذ السراري.لكن هذا كله كان يتم ضمن حدود فهمهم للشرع .

وقد كانت المرأة الحرة تنتقل من زوج الى آخر بعد طلاقها او وفاة زوجها عنها ، دون استهجان من المجتمع ، او استنكار ، كالذي أصبح شائعا في العصر العباسي فقد ورد أنهم كانوا لا يرون بأسا ان تنتقل المرأة الى عدة ازواج ، لاينتقلها عن ذلك الا الموت ما دام الرجال يريدونها وهم اليوم يكرهونه في بعض ، ويعافون المراة الحرة إذا كانت قد نكحت زوجا واحدا ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم ويعيرونها بذلك "[1] وتكرار الزواج بالنسبة للمراة في العصر الاسلامي[2] يعد ناتجا طبيعيا لتعدد الزوجات وكثرة حالات الطلاق او الموت ، وخصوصا الموت المتسبب عن كثرة الحروب الداخلية والخارجية أنذاك وتكرار الزواج مباح لعامة النساء لكنه كان ظاهرة بارزة للشهيرات وذوات المكانة الرفيعة منهن كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة فقد اشتهرتا بجمالهما وذكائهما مما رغب الرجال فيهما فتنقلتا بين عدة أزواج[3] ، دون ان يكون في ذلك أدنى عيب او استغراب ودون ان يؤثر ذلك على عفة النساء او حيائهن .

وقد استمر حال الأسرة كذلك في العصر العباسي اذ تغيرت أحوال العرب في هذا العصر بتغير ظروفهم المادية والاجتماعية والسياسية فقد انتقلت الخلافة الى بغداد ، فأصبحت قريبة من بلاد الفرس الذين فرضوا لأنفسهم حقوقا على الخلافة العباسية بسبب اليد الطولى التي كانت لهم في انتقالها الى العباسيين من الامويين فزاد نفوذهم السياسي كثيرا وتراجع النفوذ العربي ، حتى ان معظم الوزراء والقادة كانوا من الفرس .

وبازدياد نفوذهم السياسي زاد أثرهم الاجتماعي في المجتمع العربي اذ نقلوا اليه كثيرا من العادات الغريبة عن العرب ، وقد ساهمت هذه العادات في بعض مظاهر الانحراف في المجتمع العباسي حتى أن اغلب الذين عرفوا بانحرافهم فيه كانوا يرتدون الى أصل فارسي كأبي نواس وبشار بن برد وغيرهما ، هذا من

---

(١) رسائل الجاحظ ، ابو عثمان بن عمرو الجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون ، نشر مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٤ ج٢ ،١٥٨ .

(٢) اقصد بالعصر الاسلامي : صدر الدولة الاسلامية والاموية .

(٣) الاغاني أنظر أزواج سكينه ج ١٦ ، ١٤٩ ، وأخبار عائشة بنت طلحة الأغاني ج ١١ ، ١٧٦ وما بعدها .

جهة اما من جهة اخرى فقد ساهم الفرس في موجة الترف التي جرفت المجتمع العربي آنذاك ، لقد توافر لدى العرب من الأموال والجواهر والذهب الكثير . لذا فقد غرقوا في الترف المادي وتفننوا في انفاق المال على اللذائذ والمتع الدنيوية من مأكل وملبس ، وقصور وجوار . ومن مظاهر الغنى الفاحش المتعلق بالأسرة كثرة نفقات الزواج خاصه فيما يتعلق بزواج الخلفاء ومن هم حولهم كزواج الخليفة المأمون من بوران بنت الوزير الحسن بن سهل فقد بالغ كل من الخليفة والحسن بن سهل في الانفاق مبالغة كبرى وقد وصف الطبري بعض هذا الانفاق بقوله " فلما جلس المأمون اليها نثرت جدتها عليها الف درة كانت في صينية ذهب " وذكر أن المأمون أقام عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوما يعد له في كل يوم ولجميع من معه جميع ما يحتاج اليه وأن الحسن خلع على القواد مراتبهم وحملهم وأوصلهم وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف درهم من مال فارس وأقطعه الصلح فحملت اليه على المكان وكانت معدة عند غسان بن عباد ففرقها في قواده وأصحابه وحشمه وخدمه ..." (٢) ولكن هذه الحياة لم تكن تتوافر دائما الا للطبقة العليا في المجتمع ومن هم في صفها ، ولأفراد الطبقة الوسطى كالتجار ،اما طبقة عامة الشعب وهي الغالبية الساحقة ، فقد كانت تعيش على فتات الطبقة الأولى لهذا عانت الفقر والضنك والحاجة . ولنتأمل صورة من صور هذا الفقر . قال عبد الصمد بن المعذل يصف جارا له فقيرا رث الحال : -

يتمشى في ثوب عصب من العر ... ى على عظم ساقه مسدول
دب في رأسه خمار من الجو ... ع سرى خمرة الرحيق الشمول
فبكى شجوه وحن الى الخ ... بز ونادى بزفرة وعويل
من لقلب متيم برغيف ... ن ونفس تاقت الى طفشيل (٣)
ليس تسمو الى الولائم نفسي ... جل قدر الاعراس عن تأميلي (٤)

وقد اكثر غير عبد الصمد بن المعذل في وصف الفقر وحياة الضنك التي كان يعيشها افراد الطبقة العامة كأبي العتاهية وأبي دلامه وغيرهم من الشعراء الشعبيين ، وقد أثر هذا كله في العلاقات الاسرية في هذا العصر كما ستوضحه النماذج الشعرية التي تضمها فصول الرسالة التالية .

---

(١) تاريخ الامم والملوك ، ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٣٩م . ج٧ ، ١٧٨ .
(٢) تاريخ الامم والملوك ج٧ ، ١٧٩ .
(٣) طفشيل نوع من المرق او ضرب من الطعام .
(٤) الاغاني ج ١٣ ، ٢٣١ .

العلاقة الزوجية هي العلاقة الأساس التي يعتمد عليها في ايجاد العلاقات الاخرى ، ومن هنا تعد محورا للترابط داخل الأسرة الواحدة.

ان تثبيت هذه العلاقة او تقوية أواصرها يمكن ان يكون مؤشرا على حسن العلاقات الأسرية الأخرى.وتختلف طبيعة هذه العلاقة من أسرة لأخرى بحكم ظروف كل من الزوجين ، وكذلك بحكم الظروف الخارجية التي قد تضغط على هذه العلاقة فتجعلها مهمة صعبه او قد تسهل مهمتها في إقامة جو أسرى متكافل متراحم وأسرة العصر العباسي تعرضت لضغوط البيئة الخارجية اكثر من غيرها بحكم طبيعة العصر السياسيه والاجتماعيه والاقتصادية ، ومن هنا فإننا نجد تباينا في طبيعة العلاقة الزوجية من أسرة الى أخرى ففي حين يشيع الود والحب في بعض الأسر ، يشيع الكره والتهاجي في بعضها الاخر ، هذا أمر ، والأمر الآخر تعدد القضايا وتنوع طبيعة الدوافع والمشاعر والحاجات الداخلية التي تحكم هذه العلاقة تعددا وتنوعا وهو أمر قد لا نجده في غيرها من العلاقات الأسرية الاخرى . ومن أهم مظاهر العلاقة الزوجية ،ما يلي :

اولا : الوئام بين الزوجين :
==========

رغم ما تعرضت له العلاقه الزوجية في أسرة العصر العباسي من ضغوطات وأخطار لطبيعة العصر ككثرة الجواري وتعدد الزوجات وغير ذلك مما سيأتي ذكره في هذا الفصل ، لا نعدم وجود صور وألوان للوئام بين الزوجين ولعل هذا دليل على قوة العلاقة بينهما ، مع العلم بأن كتب الأخبار لم تورد كثيرا من القصص حول حب الرجل لزوجته او المرأة لزوجها ، وإن فعلت فإنها تهتم بأخبار الطبقة الخاصة أكثر من غيرها وغالبا ما كانت مثل هذه الروايات تأتي عرضا او تذييلا لخبر . من ذلك ما عرف عن حب الخليفة أبي العباس السفاح لزوجته أم سلمة فقد ذكر مصعب الزبيرى عن أبيه في معرض حديثه عن قصة زواجه بها ، أنها حظيت عنده وحلف الا يتزوج عليها ولا يتسرى فولدت منه محمدا وريطة وغلبت عليه غلبة شديدة فما كان يقطع أمرا الا بمشورتها وبتأميرها ، حتى أفضت الخلافة اليه فلم يكن يدنو الى النساء غيرها لا الى حره ولا الى أمة ووفاها بما حلف ان لا يغيرها " .(١)

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودى ، طبعة بربيه دى مينار وباقيه دي كرتاي عني بتحقيقها وتصحيحها شارل بلا ، بيروت ١٩٧٣ . ج٤ / ١٠٥ .

ومن الحرائر اللواتي حظين بمنزلة شبيهة السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد فقد روي كثير عن شغفه بها فقيل " وكانت زبيدة أم جعفر زوج الرشيد بالمنزلة التي لا تتقدمها واحدة من نظيراتها ..." (١)

ومن صور حب المراة لزوجها الوفاء له بعد موته ، فقد نوهت الروايات بحب أم سلمة واخلاصها لزوجها السفاح ، وروت بعضها أن أبا دلامة دخل عليها بعد وفاة أبي العباس السفاح فعزاها به وبكى وبكت معه ثم انشدها ابياتا فقالت أم سلمة:لم أر أحدا أصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامة ، فقال ولا سواء يرحمك الله ،لك منه ولد وما ولدت انا منه فضحكت ، ولم تكن منذ مات ابو العباس ضحكت الا ذلك الوقت ، وقالت لو حدثت الشيطان لاضحكته . (٢)

وكثيرا ما تكون المحبة بين الزوجين الا أنه لا تتوافر مناسبة لاظهارها او الحديث عنها سواء عند الناس عامة امعند الشعراء خاصه ولكن فقد أحدهم للآخر يجعله يبرز الحب الذى كان بينهما وذلك من خلال رثائه وحزنه عليه وهذا ما سيأتي ذكره في الصفحات التاليه بالاضافة الى الصور الاخرى من صور الحب والوئام بين الزوجين .

زخر الشعر العباسي برثاء الزوجات ، اذ فقد عدد من شعراء هذا العصر زوجاتهم فرثوهن رثاء حارا ومؤثرا صوروافيه احاسيسهم ومشاعرهم تجاه الحدث ونتائجه على أنفسهم وعلى أسرهم ، خصوصا على اطفالهم الصغار وقد أظهر عدد من هؤلاء الشعراء ضعفهم وعدم قدرتهم على الصبر واحتمال الموقف وقد ابدى بعضهم عجزه عن الصبر والتعزي عن مصابه هذا حتى لقد تخيل موته قريبا ومن هؤلاء ديك الجن الذى بدا ضعفه وعدم قدرته على الاحتمال من خلال محاورته لزوجته المتوفاة:

أساكن حفرة وقرار لحد ... مفارق خلة من بعد عهد
أجبني إن قدرت على جوابي ... بحق الود كيف ظللت بعدى
وأين حللت بعد حلول قلبي ... وأحشائي وأضلاعي وكبدى
أما والله لو عاينت وجدي ... اذا استعبرت في الظلمات وحدى
وجدّ تنفسي وعلا زفيري ... وفاضت عبرتي في صحن خدى (٣)
اذن لعلمت أني عن قريب ... ستحفر حفرتي ويشق لحدى

---

(١) مروج الذهب ج ٤ ، ١٠٥ .
(٢) الاغاني ج ١٠ ، ٢٥٥ .
(٣) ديوان ديك الجن تحقيق د. احمد مطلوب وعبد الله الجبورى ، دار الثقافة بيروت لبنان ص / ٩٤ ، الاغاني ج ١٤ ، ٥٨ .

فحزن الشاعر لفقد زوجته باد من خلال هذه المحاورة اذ هو دائم الزيارة لقبرها يحاورها ويصف حاله الضعيفة بعدها . فهو وحيد يبكيها بحرقة في ظلمات الليل وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ فتركه ضعيفا يحس أن الموت قريب منه ، وكأنه من خلال محاورته لها يريد أن يخبرها بما آل اليه حاله بعدها ، من ضعف ويأس ،وهو كذلك ينوه من خلال بث وجده وحزنه لزوجته الراحلة بالاحساس بفقدها فقد كانا يعيشان حياة ود وحب.لقد كان يسكنها قلبه وأحشاءه ويضن بها على كل شيء . ،الا أنها الآن اصبحت ساكنة قبر لا تستطيع محادثته ، وشتان بين المسكنين.ان مآلها هذا كان دافعا لازدياد المه وحرقته ، وأكد الشاعرمشاعره هذه في مقطوعة أخرى حيث قال :

ما لامرئ بيد الدهر الخوّون يد ولا على جلد الدنيا له جلد
طوبى لاحباب اقوام اصابهم من قبل ان يعشقوا موت فقد سعدوا
وحقهم انه حق أضنّ به لأ نفدن لهم دمعي كما نفدوا (١)

فالشاعر يرى نفسه غير قادر على الجلد والصبر على ما أصابه به الدهر الخوّون الذى لا يبقي سعيدا على سعادته ولا مرتاحا على راحته ، والانسان بلا شك ضعيف أمامه اذ لا يقدر على دفعه او محاربته ، ولو قدر لفعل وأخذ بثأره منه ولكنه ان لم يستطع أن يحارب الدهر فانه يستطيع فعل أشياء اخرى تعبر عن رفضه وكرهه لاصابة الدهر أحبته وهذا ما أراده الشاعر اذ رأى ان يوفي زوجته حقوقها عليه في الحب والوفاء ، وما البكاء الدائم الا واحد منها لذ فهو سيبكيها بدمع غزير حتى ينتهي دمعه ويذهب كما ذهبت هي من الدنيا .

وقد أفاض الشاعر في وصف حزنه على زوجته الراحلة فقال في قصيدة اخرى:-

عهدي به ميتا كأحسن ناعم والحزن يسفح عبرتي في نحره
لو كان يدرى الميت ماذا بعده بالحي حل بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه وتكاد تخرج قلبه من صدره (٢)

فآخر ذكرى له معها عندما ماتت اذ كانت لا تشكل له خوفا او رعبا كالذى قد يكون للميت ، بل كانت في موتها في أحلى هيئة وأحسن حال ولقد كان هو بالمقابل في أسوأ حال من الحزن والالم ، يبكيها بحرارة ويعاني غصصا تكاد تقتله ألما وحسرة وهو عندما يقارن حاله بما هو فيه منألم ودموع وحزن شديد بحالها وهي المتوفاة ، يجد أن حالها أفضل من حاله ويؤكد لو ان الميت

---

(١) الديوان ص/ ٩٦ - ٩٧ ،الاغاني ج١٤ /٥٨ - ٥٩ .
(٢) الديوان ص/٩٢ - ٩٣ ، الاغاني ج١٤ ،٥٩ . والزهرة - تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور نوري حمودي القيسي ، نشر وزارة الاعلام العراقيه ، ١٩٧٥ ج٣ ص: ٨٤ .

يعلم بما يحل بأهله وأحبته من بعده وبمقدار المعاناة التي يعانونها من فقده لبكى لهم في قبره .

ومن الأمور التي كانت تلهب حزن الشاعر الزوجعلى زوجته حال أطفاله بعدها ، وهنا تختلط مشاعره زوجا فاقدا لزوجته وأبا يرى اطفاله يعانون الهم والضياع بفقد أمهم ، والمحصلة لهذا كله الحزن والألم للزوج الذى يجد أن من واجبه نسيان ألمه وحزنه ومعالجة هم اولاده وأحزانهم .

قال محمد بن عبد الملك الزيات ، يصف جانبا من هذا :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تبكيان
رأى كل أم وابنها غير امه ... يبيتان تحت الليل يتنجيان
وبات وحيدا في الفراش تحثه ... بلابل قلب دائم الخفقان (١)

فلقد زاد من لوعة الشاعر ، فقد ابنه لأمه وحاله بعدها فقد كانت عيناه تبحثان عنها فلا تجدانها في حين أن الأولاد الآخرين ينعمون بوجود امهاتهم الى جانبهم يغمرنهم بالحب ويناجينهم في أثناء الليل ، أما هو فكان وحيدا في فراشه لا يراها ويبحث عنها فلا يجدها .

وبما أن الدموع وسيلة الممدور ، وغاية الملتاع الذى قد لا يفيد في تخفيف مصابه غيرها ، فقد لجأ الشعراء اليها لتخفيف احزانهم على زوجاتهم ،قال ابن الزيات :

ألا ان سجلا واحدا ان درقته ... من الدمع او سجلين قد شفياني
فلا تلحياني إن بكيت فإنما ... أداوي بهذا الدمع ما تريان (٢)

فالشاعر يذرف الدموع الغزار لعله يشفىمما به من وجد وحزن على زوجته وهو يستخدم هذه الدموع دواء ، وعلى قدر المصاب يعطى الدواء ،وبما ان مصابه عظيم فيجب ان تتناسب دموعه معه فتكون غزيرة هي الأخرى .

وقد أكثر الشعراء من ذكر الدموع وحثوا عيونهم على الاستزاده منها في رثاء زوجاتهم ،كما فعلوا في رثاء اولادهم وغيرهم من أفراد أسرهم حتى تحقق لهم أكبر قدر ممكن من الراحة والشفاء ، ومن هؤلاء الشعراء ابن الزيات:

---

(١) كتاب التعازى والمراثي ، ابو العباس المبرد ، تحقيق محمد الديباجي مطبعة زيد بن ثابت ، دمشق ١٩٧٦م ١٦٧ : والعمدة في محاسن الشعر ، ابن رشيق القيرواني تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت لبنان ج٣ ، ١٥٦

(٢) التعازى والمراثي ص ١٦٧ والعمدة ج٣ ،١٥٦ ،والسجل : الدلو الضخمة المملوءة ماء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعيني إلا تسعدا اليوم عبرتي فبئس اذن مافي غد تعدانـي
أعيني إن أنع السرور وأهلة وعهد الرضى عندي فقد نسياني
أعيني إن ابك البشاشة والصبا فقد آذنا مني وقد بكيانـي (١)

فالشاعر يلح الحاحا على عينيه أن تنجداه بالدموع التي تتناسب مع كبر مصابه في زوجته ، اذ هو لا يرى مناسبة ولا موقفا آخر سيحتاج منه الى الدموع مثلما يحتاج اليه الآن ، فهو لم ينعها هي فقط وإنما نعى برحيلها عنه كل سعادة وسرور وكل هناء وعيش رضي اذ ذهب كل هذا بذهابها. وفي هذا كله تعبير عن حب الشاعر لزوجته ووفائه لها بعد موتها بالاضافة الى بيان عظم الخسارة التي لحقته بوفاتها .

اما ابن الرومي فقد خالف غيره من الشعراء وخالف نفسه في كثير من قصائد الرثاء التي قالها في أفراد أسرته من قبل ،اذ لم يرد من عينيه البكاء لا لان زوجته لا تستحق منه ذلك بل على العكس حتى يبقى محتفظا بحرارة حزنه وحرقة مصابه على حاله ، فهو لا يريد شفاء ولا راحة مما أصابه ، بل يريد أن يحتفظ بقوة مصابه وحرارة قلبه ،كل ذلك لأنه اعتقد أن في هذا دليلا أكبر على وفائه لها فقال :

عيني شحا ولا تسحا جل مصابي عن البكاء
تركتما الداء مستكنا أصدق عن صحة الوفاء
إن الأسى والبكا قدما أمران كالداء والدواء
وما ابتغاء الدواء الا بغيا سبيل الى البقاء
ومبتغي العيش بعد خل كاذبة خلة الصفاء (٢)

فهو يطلب من عينيه أن تبخلا عليه بالدموع ، لأنه يريد حرارة قلبه ان تبقى مستكنة ، فهذا برأيه ،أدل على صحة الوفاء من كثرة الدموع ، لأنها تعد دواء لداء الحزن ، وطالب الدواء يبغي الشفاء وبالتالي البقاء وهذا مالا يريده هو لانه يتنافى مع خلة الوفاء لزوجته .

ولكن الشاعر لم يلبث أن رجع عن رأيه السابق ، ربما لأنه عجز عن تحقيقه او ربما لانه وجد تعليلا مناسبا لمطلبه الجديد من عينيه ، الا وهو البكاء

---

(١) التعازي والمراثي ص ١٦٧ والعمدة ج٣ ١٥٦ .
(٢) ديوان ابن الرومي تحقيق وشرح حسين نصار مطبعة دار الكتب ط١ ١٩٧٧م .
ج١ ص / ٧٩ — ٨٠ .

قـــــــــال :

عينيجودا بالدموع لفقدهـــا فما بعدها ذخر من الدمع مذخور
نصيبكما منها الذى مات فابكيا فأما نصيب القلب منها فموفـور (١)

فهو يحث عينيه على بكائها حتى لا تبقيا ذخرا من دموع ، ويرى أن هـذه الدموع وسيلة عينيه للتعبير عن الحزن والألم لفقدها لأن نصيبهما هو فقط الـذى مات ، اما نصيب قلبه فباق موفور لأنها خالدة فيه ، فموتها لن يؤثر الا علـى عينيه اللتين ستخسران روّيتها وهذا تعبير آخر عن وفاء ابن الرومي لزوجتـه وقد أكده في مقطوعة أخرى حيث قال مخاطبا عينيه :

هذا فؤادى والرزء رزؤكما تبكي له عين مستثيبكما
فاستنكفا أن يكون غيركما أبكى لما فات من نصيبكما (٢)

اما دموع ديك الجن فهي من نوع خاص اوجدته طبيعة وفاة زوجته التـي ماتت قتلا على يديه لاعتقاده بأنها خانته ، ثم ندمه على ذلك عند اكتشاف براءتها لهذا كانت دموعه ، دموع الندم او كدموع صياد الطيور كما يقول : -

ويعذلني السفيه على بكـائـي كأني مبتلىً بالحزن وحـدى
يقول قتلتها سفها وجهـلا وتبكيها بكاء ليس يجـدى
كصياد الطيور له انتحـاب عليها وهو يذبحها بحـد (٣)

فهو يرى أن عذله على كثرة بكاء زوجته سفه لأنه ليس وحيدا في هـذا بالاضافة الى طبيعة موت زوجته وقتله اياها ظلما جعله أغزر دموعا وأطول بكـاء ومع هذا يبدو غير قانع بكثرة بكائه لأنه لن يجدى ولن يغير شيئا مما حـدث وما بكاؤه عليها الا مثل بكاء صياد الطيور ، الذى يذبحها بيديه ، وهو يبـدى حزنه عليها .

وليس الدمع وحده دليل الوفاء بل هناك من الشعراء من تنسك وتـرك الشراب كمسلم بن الوليد الذى قال في رثاء زوجته : -

---

(١) ديوان ابن الرومي ج٣ ،ص/١١٣٨ .
(٢) المصدر السابق ج٥ ، ص/٢١٣٠ .
(٣) الديوان ص ٩٥ والأغاني ج١٤ ،ص/٥٩ .

بكاء وكأس كيف يتفقـــــان سبيلاهما في القلب مختلفـــان
دعاني وإفراط البكاء فانني أرى اليوم فيه غير ما ترياني
غدت والشرى أولى بها من وليها الى منزل ناء لعينـــك دان
فلا وجد حتى تنزف العين ماءهـا وتعترف الاحشاء بالخفقـــان
وكيف بدفع اليأس والوجد بعدها وسهماهما في القلب يعتلجان (١)

فالشاعر حزن لوفاة زوجته حزنا جعله يعتزل حياة اللهو والشراب وهما كما يقول - نوعان من الحياة لا يتفقان مع بعضهما بعضا ، وهو يرى أن هذا اقل ما يمكن فعله نجاة مصابه في فقد زوجته التي تركته ورحلت عنه الى منزلهـــا الجديد (القبر) مع أنه هو أحق بها ومنزلها اولى بها من القبر الموحش وقد كان حلولها في هذا القبر يزيد من لوعته التي لا يخفف من حدتها سوى الدموع والشاعر يصر على استمرار نزف هذه الدموع حتى تفنى ، وهو مع هذا لاييأس من ايقـــاف الوجد واليأس من الحياة لانه يحس دوام اعتلاجها في قلبه .

ومن الشعراء من رفض فكرة حلول زوجته في القبر لأنه رأي أن قلبـــــه هو مكانها الوحيد اذ هي ساكنة فيه سكونا أبديا ، قال ابن الزيات : -

يقول لي الخلان لو زرت قبـــرها فقلت : وهل غير الفؤاد لها قبر
على حين لم أحدث فأجهل قدرهـــا ولم أبلغ السن التي معها الصبر (٢)

فهـو لا يريد زيارة قبرها لأنه غير مقتنع بحلولها في مكان غير قلبـــــه اذ هي باقية فيه ، وبالتالي فان زيارة قبرها لن تخفف من جزعه عليها كمـــــا لم يخفف أي شيء آخر حزنه لأنه - كما يقول - لم يبلغ من العمر سنا يجعل الصبـر معه سهلا ، ولا هو في سن الطيش والجهل فيسلاها لجهله قدرها وعظم خسارته بهـــا، وهو في هذا كله يعبر عن مدى حبه واخلاصه لها .

ومن الشعراء من حاول الصبر بالبحث من وسائل العزاء ، وقد وجده فـــي حال الدهر والأيـــــام ، قال ديك الجن :

يا دهر انك مسقي بكأسهـــــم ووارد ذلك الحوض الـــذي وردوا
الخلق ماضون والأيام تتبعهـــم نفنى جميعا ويبقى الواحد الصمد (٣)

---

(١) ديوان مسلم بن الوليد ، تحقيق وتعليق د. سامي الدهان ، دار المعارف مصر ٣٤١ .
(٢) الاغاني ، ج ٢٣ ، ٥٣ .
(٣) الديوان ، ٩٧ ، والاغاني ج١٤ ، ٦٠ .

فقد وجد الشاعر عزاءه في أن الناس جميعا سائرون الى الموت الذى ذهب بزوجته بل هو يرى أن الدهر الذى اختطفها منه سيلاقي نفس المصير ، اذ ان الناس جميعا وكذلك الأيام يفنون يوما ويبقى وجه الله عز وجل وحده ، ولا يخفى الفكر الديني في مثل هذا التعزي .

بالاضافة الى تنويه الشعراء بحبهم واخلاصهم لزوجاتهم من خلال رثائهم لهن فقد التفت بعضهم الى بعض صفات الزوجة الجمالية ،قال ديك الجن في زوجته : -

قل لمن كان وجهه كضياء الشمس ... في حسنه وبدر منير
كنت زين الأحياء اذ كنت فيهم ... ثم قد صرت زين اهل القبور
بأبي أنت في الحياة وفي المو ... ت وتحت الثرى ويوم النشور(١)

فزوجته التي كان وجهها كنور الشمس في جماله وكالبدر المنير في اشراقه كانت أجمل الاحياء في حياتها ، وأصبحت أجمل أهل القبور بعد مماتها ، اذ هي زينة لهم كما كانت زينة للناس من قبل ، فهي مثال للجمال في كل حال وفي كل مكان .

ويصف ثناياها في بيت آخر فيقول : -

وآنسة عذب الثنايا وجدتها ... على غطة فيها لذى اللب متلف(٢)

فثناياها بالغة العذوبة ، وهذه الصفة مع غيرها من صفاتها الجمالية اذهبت بعقله فتركته يعاني الوجد ، وقد ندر مثل هذا الشعر الذى يتحدث عن صفات الزوجة الجمالية ،اذ شغل الشعراء بغيره من الحديث عن الحزن والدموع وقلة الصبر والعزاء ازاء مصابهم الكبير .

ومثلما رثى الشعراء زوجاتهم كان لهم هم أيضا نصيب من رثائهن فقد رثى عدد من الشاعرات ازواجهن ، ومثل هذا الرثاء - وإن كان أقل شيوعا الا أنه يعبر عن طبيعة العلاقة الزوجية من جانب الزوجة ومواطن اهتمامها بزوجها وما كان يمثل بالنسبة لها . ومن اللواتي رثين أزواجهن لبانه بنت على فقالت في زوجها الخليفة محمد بن هارون عندما قتل عنها : -

أبكيك لا للنعيم والانس ... بل للمعالي والرمح والفرس
يا فارسا بالعراء مطرحا ... خانته قواده مع الحرس
أبكي على سيد فجعت به ... أرملني قبل ليلة العرس

---

(١) الديوان ،٩٩ ، والاغاني ج ١٤ ،٦٠ .
(٢) الديوان ،١٧٩ .

All Rights Reserved. University of London, Centre of Islamic Studies

أم من لبـــر أم من لعائـــدة أم من لذكر الاله في القلـــس[١]
من للحروب التي تكون لهـــا إن اضرمت نارها بلا قبـــس[٢]

فهي تثّن زوجها الخليفة فتذكر مناقبه وتشير الى اهتماماته التي تدور حول طلب المعالي وحب الفروسية والقتال . ومن مناقبه الحميدة التقوى وإقامة الليل والبر بوالدته . هذا بالاضافة الى تأثر الشاعرة بما أصيب به زوجهـــا من خيانة قواده وحرسه له الذى ادى به الى القتل كما تذكر . والشاعرة تبـــدو واقعية في شعرها فهي لم تعرف منه سوى الزوج الذى يؤدى واجب الخلافة لقد كـــان - كما تقول - يتمتع بقسط وافر من السيادة والاخلاق المثالية ،انها تنسى ما تطلبه الأخريات من نعيم وأنس وتنصرف الى تعداد مناقب زوجها: ومن هنا وعلى الرغم عـــن انها لم تعرف معه نعيما ولا أنسا الا أنها تدرك خسارتها به فيصيبها أسف لذهابه عنها وهذا يخالف ما شعرت به بوران بنت سهل زوجة الخليفة المأمون عندما توفي عنها فقالت ترثيه : -

أسعداني على البكا معلنينـــا
صرت بعد الإمام للهم قينـــا
كنت أسطو على الزمان فلمـــا
مات صار الزمان يسطو علينـــا[٣]

فهي تبكي خسارتها بزوجها الذى كان يوفر لها الأمن والحماية والمكانـــة الاجتماعية باعتباره خليفة للمسلمين ، وبعد وفاته انقلبت الأمور وتغير الحـــال فأصبحت أسيرة للهم والحزن ، وكثرت عوادي الزمن عليها . وقد قالت في هـــذا المعنى ايضا الشاعرة زهرة الكلابيه في رثائها زوجها : -

تأوهت من ذكرى ابن عمي ودونه نفا هائل جعد الثرى وصفيـــح
وكنت أنام الليل من ثفنتى به وأعلم أن لا ضيم وهو صحيـــح
فأصبحت سالمت العدو ولم أجد من السلم بدا والفؤاد جريـــح[٤]

---

(١) هكذا ورد ترتيب الابيات في العقد الفريد والترتيب المنطقي يفترض ان يكون البيت الخامس مكان الرابع ، والبيت الرابع بدل الخامس .
(٢) العقد الفريد ج ٣ ، ٢٧٧ . وقد ورد البيت الاول والثاني في الحيوان ج٣، ٤٢٩ - ٤٣٠
(٣) نزهة الجلساء في اشعار النساء ، الحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد بيروت لبنان ط٢ ، ١٩٧٨ / ٢٥ .
(٤) شاعرات العرب ، جمع وتحقيق عبد البديع صقر، منشورات المكتب الاسلامـــي ط١ ١٩٦٧ ص: ١٤١ .

فلقد كانت الشاعرة تعيش حياتها آمنة لا تخشى من احد ظلما ، ولا يلحقها اذى وزوجها موجود ، ولكن الحال اختلف بعده واضطرت الى مسالمة الاعداء ضعفا واستكانة ، وكيف لا وقد اصبح زوجها ثاويا في قبر موحش لا يستطيع تقديم حماية لها ولا دفع اذى عنها .

ومن ملاحظة شعر رثاء الزوجات وشعر رثاء الأزواج نجد أن هناك اختلافا واضحا بينهما ، ففي حين ان الزوج يبكي في رثائه زوجته حبه لها ووده وقد يبكي حبها وجمالها وما كانت توفره من مودة واستقرار ، نجد ان المرأة في رثائها لزوجها تبكي نفسها من خلال بكاء خسارتها به ، وما لحقها بموته من حاجة وفقدان الحماية والمكانة الاجتماعية ، ولعل هذا امتداد طبيعي لحال المرأة في هذا العصر ان لم يكن في كل العصور حيث تكون مهمة الرجل الأولى توفير الحماية المعنوية والمادية لزوجته أكثر من اي امر اخر .

وكان للتعزية بالزوجة نصيب في شعر هذا العصر ايضا ، وإن لم يكن شخص الزوجة هو مجال الاهتمام بل كان زوجها المعزى فقد كانت قصيدة التعزية تنقسم الى ثلاثة اقسام ، أولها تعزية الزوج ، وثانيها ذكر الزوجة الراحلة اما ثالثها فهو مدح الزوج المعزى .

وفي تعزية الزوج قد يستخدم الشاعر بعض الوسائل المتعارف عليها في هذا المجال كبيان حال الدهر وتغيره وانقلابه ، قال ديك الجن يعزي جعفر بن علي الهاشمي عن زوجته : -

نغفل والأيام لا تغفل ... ولا لنا من زمن موئل
والدهر لا يسلم من صرفه ... أعصم في القنة مستوعل
يمضي جديداه الى حكمه ... ويفعل الدهر بما يفعل
في حسب أوفى له جحفل ... يقدمه من رأيه جحفل
بينا على ذلك اذ عرشت ... في عرشه واهية ضئبل
ان يك في العز له مشقص ... ماض فقد تاح له مغتل (١)

فالشاعر يذكر معزيه بتيقظ الأيام الدائم وسلطة الزمان ، اذ ان الانسان يعيش في غفلة وينسى نفسه في غمرة الحياة بينما اقداره تتابعه إلى حيث يذهب ولا يوجد له ملجأ منها ولا يعصمه عاصم منها أبدا مهما بلغ من القوة والمنعة. وتأكيدا لما قاله لمعزيه يضرب مثلا للوحش الذى استوعل في أعلى جبل يمضي له كل من حوله ويمثل لحكمه من فرط عزته وجبروته كل قوى وعظيم ، ومع ذلك ان اراده الدهر فلن يمنعه منه مانع فلا غرابة والحال هكذا أن يصيب الانسان في أهله فيذهب

---

(١) ديوان ديك الجن ، ٦٧ - ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهم . وهو يشير في ذلك الى مكانة المعزى وقوته ، فهو ، وإن أصابه الدهر بزوجه ، يصيب الناس جميعا مهما بلغوا من القوة والمنعة .

ويذكر الشاعر بعد ذلك الزوجة الراحلة فيدعو لها بالرحمة ولقبرها بالسقيا قال : -

جاد على قبرك من ميت ... بالروح رب لك لا يبخل
وحنت المزن على قبرها ... يعارض نجوته محفل
فيث ترى الارض على وبله ... تضحك ، الا انه يهمل(١)

فالشاعر يدعو للزوجة المتوفاه بالرحمه من الله تعالى ، كما أنه يدعو لقبرها بالسقيا حيث يأمل أن تغمره الأمطار الغزيرة - وهذا تاكيد آخر على طلب الرحمة لها .

وبعدها ينتقل الشاعر الى مدح الزوج المعزى فيقول : -

أنت ابا العباس عباسها ... اذا استطار الحدث المعضل
وأنت ينبوع أفانينها ... اذا هم في سنة أمحلوا
وأنت علام غيوب النشا ... يوما اذا تسأل او تسأل(٢)

فديك الجن في مدحه للزوج المعزى يخلع عليه أنبل الصفات واعظمها فهو قوى يحتاج اليه في الأحداث المعبة وهو كريم في سنين الجدب والقحط حيث يندر الكرماء . وهو ذو عقل راجح يتكهن الأحداث قبل وقوعها ، وبالتالي فإن من يملك مثل هذه الصفات لا يعقل منه الجزع إن أصابه مصاب في نفسه او أهله وإنما الصبر والتجلد وتقبل الحدث بهمة الأقوياء العقلاء .

ويؤكد الشاعر فكرته السابقة بالبيتين التاليين اللذين يحملهما هدف مديحه السابق ، قال : -

نحن نعزيك ومنك الهدى ... مستخرج والنور مستقبل
نقول بالعقل وأنت الذي ... نأوي اليه وبه نعقل(٣)

فالشاعر يؤكد لمعزيه أنه ، وإن كان هو الذى يعزيه ، فانه يستمد معاني هذه التعزية من شخصه فالممدوح وإن طلب اليه التعقل والصبر ، كان ملجأ الشاعر والآخرين الذين كانوا يستمدون منه التعقل والرأي والمشورة وإن رجلا كانت هذه صفته

---

(١) ديوان ديك الجن ص ، ٦٩ .
(٢) المصدر السابق ، ٧٠ .
(٣) نفسه ، ص ، ٧٠ - ٧١ .

All Rights Reserved - University of Umm Al-Qura - Center of Thesis Deposit

لا بد أن يكون قادرا على أن يعمل بهدي من عقله الراجح فيلملم أحزانه بقدرة الرجل العاقل القوي .

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعاء لمعزيه فيقول : -

نحن فداء لك من أمة ... والأرض والآخر والأول
اذا عفا عنك وأودى بها ... ذا الدهر المحسن المجمل(١)

انه يجعل من نفسه وغيره فداء لمعزيه ، وبالتالي فان الدهر الذي أودى بزوجته وعفا عنه قد أحسن بفعله هذا . ها هنا اشارة اخرى لحث المعزي على تقبل الحدث وشكر القدر على ابقائه وفدائها له . بالاضافه الى تأكيد ما ذهبت اليه من قبل بأن شخص الزوجة الراحلة لم يكن ذا بال بالنسبة للشاعر المعزي ، وإنما زوجها المعزى .

من علامات الود مشاركة الزوجين بعضهما بعضا في الحزن والفرح وتعاطفهما في المواقف المختلفة التي تجد في الحياة الزوجية ، وفي هذا كله دليل على أصالة العلاقة وقوتها ، وكما نوه الشاعر العباسي في بعض أشعاره بمشاركة زوجته له في مصاعب حياته ، وآلامها ذكر مشاركته اياها في احزانها

ورد في الاغاني ابيات لعلبه بن ربيعة الحارثي(٢) قالها لزوجته قبل ان يقتل ابنه جعفر من خلال محاورة بينهما : -

ولعمرك ان الليل يا ام جعفر ... علي وإن عللتني لطويل
أحاذر اخبارا من القوم قد دنت ... ورجعة أنقاض لهن دليل(٣)

فلقد كان الشاعر يعاني الهم والقلق على مصير ابنه الذى طالت غيبته ، ولم يعد ، ومن احساس الأب بما حدث لابنه او يمكن ان يحدث شعر بالخوف من اخبار سيئة ربما تحمل خبر مقتله ينقلها اليه مخبر ما ، وفي ظل هذا الموقف الصعب لم يجد من يشكوه همه ويخبره بقلقه سوى زوجته التي كانت تعلله وتخفف عنه ببعث الامل عنده ، وبعدم الركون الى أحاسيسه الواهمة .

ومن مشاركة الزوجين في أحزانهما والتعاطف بينهما حول مصابهما المشترك ما كان من القاسم بن يوسف الذى أوضح من خلال رثائه لابنه أن زوجته لبابه كانت سلوته الوحيدة وقد كان يحاول - بالمقابل - ان يخفف عنها المصاب

---

(١) ديوان ديك الجن ، ٧١ .
(٢) هو وابنه شاعران من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية لهما قصص في حادثه موت جعفر (الابن) انظر الاغاني ج ١٣ ، ٤٥ - ٥٧
(٣) الاغاني ج ١٣ ، ص : ٥٤ .

All Rights Reserved. Library of University of London - Centre of Thesis Deposit

وان يستحث الصبر والعزاء في نفسها ، قال : -

هل لي على الحزن الطويـــــــــل سوى لبابة مســـــــعد
ثكلى بواحدها فلـــــــــيس لها عليه تجلـــــــد
وكأن بين ضلوعهـــــــــا جمر الغضا يتوقـــــــد
ألباب ان الصبـــــــــر أن فع في الامور وأحمـــــــد
ألباب كيف بفنـــــــاء نفـــس كل يوم تكمـــــــد
ألباب ان الصبـــــــــر أبـ قى للالـــه وأرشـــــد (١)

فقد حزن الشاعر حزنا شديدا على ابنه وبكاه اغزر البكاء وعندمـــــا أفاق من غمرة احزانه لم يجد حوله من يشاركه مثل هذا الحزن سوى زوجته التي كانت تعاني سكرات الحزن على وحيدها كأنها جمرات تكوي ضلوعها وقلبها فتحيله الى حرارة لا تخمد أبدا وهو يحاول أن يخفف عن نفسه وعنها ما يعانيان فينصحها بالصبـــــر ويبين لها عواقبه وفوائده .

ثانيا : دوافع الاثـــــــارة : -

وجد في هذا العصر دوافع أدت الى اثارة احد الزوجين او الزوجين معـــا مما كان يؤدي - في أحيان كثيرة - الى الخصام فالقطيعة ، ومن أهم هذه الدوافع ثلاثة هي : غيرة المرأة ، والمفاخرة بين الزوجين ، وتعدد الزوجات.وقد تابـــع الشعر هذه الدوافع وصورها على ما نحو ما سنرى .

إن من يطلع على احوال المرأة في العصر العباسي يلاحظ أن المرأة فـــي كثير من الاحيان قد استسلمت للوضع السائد آنذاك من انصراف زوجها عنها الـــى سواها من الإماء والجواري ، والسراري . لقد أصبح هذا الأمر مألوفا لها حتى روي انها قد تساعده في امتلاك الجواري - وهذا نادر - بإهدائها اياه عددا منهـــن من ذلك ما ذكر عن السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد انها اهدته عشـــر جوار منهن مراجل أم المأمون ومارية أم المعتصم وماردة ام صالح لتصرفـــه عن دنانير المغنية مولاة يحي بن الربيع (٢) إن هذا الأمر غريب على طبع النســـاء وهو بحاجة الى تفسير اذ كيف تقبلت هذا الامر ؟! لقد قدمت بعض الدراســـات الحديثه تفسيرا.قالت الدكتورة واجدة الاطرقجي : " إن الذي خفف من و قـــع ذلك على نفسها - المرأة في العصر العباسي - أنها كانت في الغالب سيـــدة البيت حتى لو لم تكن سيدة لقلب زوجها "(٣) كان من الممكن أن يكون هذا التفسير مناسبا لو أن الأمر المهم هو المنافسة على سيادة البيت او ادارته ، ولكـــن

---

(١) الاوراق جمع وتحقيق ج هيوارث ٢٠٥ .
(٢) الاغاني ج ١٨ ،٦٧ .
(٣) المرأة في ادب العصر العباسي ، د. واجدة الاطرقجي ، دار الرشيد للنشر ١٩٨١ ص ٤٤ .

All Rights Reserved. Library of University of London - Centre of Thesis Deposit

الامـــر لم يكن كذلك فقط ، فالمنافسة في الواقع كانت على قلب الزوج ومشاعره ولعل السبب في رفوخ المرأة العباسية للأمر حسبما أراه ، أنها فتحت عينيهـا على الحياة فوجدت أباها وأخاها وجميع من حولها يقتنون الاماء والجـــواري فمثل هذا الامر - على ما يبدو - كان شائعا شيوعا كبيرا ولذا فقد الفت مثـــل هذا الامر منذ صغرها ، واعتادت عليه ، فإنها لم تكن تستغربه ولا تستنكـــره وبالتالي أصبحت مهيأة لان تقبله في بيتها . أما مسألة اهداء السيدة زبيدة الجواري لزوجها فقد يكون وراءها - إن صح - أسباب سياسية . وربما كـــان الهدف مـــن ذلـــك هـــو رغبتـــها فـــي ابعـــاده عـــن يحيـــى بـــن الـــربيع الفـــارسي الاصـــل مـــولـــى دنانيـــر التـــي كـــان الرشيد يتـــردد علـــى بحـــي لأجلهـــا ، وتلمح بعض الروايات الى رغبة السيدة زبيدة في الحد من النفوذ الفارسي وإلى أنها كانت من المشجعين للرشيد في نكبة البرامكـــة .

وعلي أن لا أذهب بعيدا - رغم ما ذكرت - وأقول أن أكثر النساء وقفـــن مكتوفات الأيدى إزاء كل ما كان يقوم به أزواجهن لكن الغيره قد انحبست عنـــد بعضهـــن ، وتنفست في أعمال انتقاميه أحيانا ، والدليل تلك القصـــص الكثيره المتناثرة في بطون الكتب حول غيرة النساء وما كانت تؤدى اليه مـــن مؤامرات ودسائس للتخلص من محظيات الزوج حتى لو أدى ذلك الى قتله ومنها مـــا رواه الطبري من أن بكار بن عبد الله تزوج امرأة من ولد عبد الرحمن بن عـــوف وكان له من قلبها موقع فاتخذ عليها جارية ، وأغارها ، فقالت لغلامين لـــه زنجيين بأن هذا الفاسق -أي زوجها- اراد قتلكما ولا طفتهما حتى اطمأنا اليهمـــا فطلبت منهما أن يعاوناها على قتله فاستجابا لها فدخلت عليه وهو نائم وهمـــا جميعا معها فقعدا على وجهه حتى مات .... .(١)

ومن صور الغيرة الأخرى عند النساء ما ذكره " المرزوقي عن مصعـــب الزبيرى عن أبيه أن خالد بن صفوان دخل على الخليفة أبي العباس السفاح ، فوصف له من أمر الجواري الكثير حتى رغبه فيهن ، فلما علمت زوجه أم سلمة أرسلـــت لخالد جماعة من البخارية ومعهم الكافر كوبان وأمرتهم الا يتركوا منه عضـــوا صحيحا وقد اضطره ذلك الى التراجع عما قاله عندما سأله أبو العباس مرة اخـــرى عن أمر الجوارى ، بل حدثه بما يكره بهن حتى استنكر منه الامر واستغربه ،وعندما سمعت ام سلمة حديثه الثاني . وصلته بعشرة الاف درهم وتخت وبرذون .(٢)

ومن صورها الاخرى ايضا ما رواه الطبرى عن أم منصور الحميرية زوجـــة

---

(١) تاريخ الامم والملوك ج٦ ، ص : ٤٥٣ - ٤٥٤ .
(٢) مروج الذهب ج٤ ، ص : ١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخليفة المنصور اذ قال : - كان المنصور قد اشترط لأم منصور الحميرية الا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتب بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين في سلطانه فكان يكتب الى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل اليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة ، فكانت أم موسى اذا علمت مكانه بادرته فأرسلت اليه بمال جزيل ،فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته برخصة حتى ماتت .(١)

يظهر من هذه القصص الثلاث أن المرأة لم تستسلم أبدا لمنافسة الجواري لها اللواتي كان لهن أثر كبير في عدم استقرار حياة الأسرة والعلاقات الزوجية فالزوج يطلب عندهن التسري والمتعة والزوجة - نتيجة لذلك - تعيش حاله من القلق والغيرة تنهش قلبها فتفكر في طرق تحفظ لها زوجها او تودي بحياته فلا يكون لها ولا لغيرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هلا سالت منازلا بغـــــرار ... عمن عهدت به من الأحـــرار
أين أنتأو ونحاهم صرف النوى ... عنا وصرف متحم مغيـــار
كره المقام وظن بي وبأهلهـا ... ظنا فكان بنا على اضـرار
عدي رجالك وإسمعي يا هـــذه ... عني مقالة عالم مفخـــار
ساعد سادات لنا ومكارمـــا ... وأبوة ليست على بعـــار
قيس وخندف والدي كلاهمـــا ... والعم بعد ربيعة بن نـزار
من مثل فارسنا دريد فارســا ... في كل يوم تعانق وكـــرار
وبنو زياد من لقومك مثلهـــم ... أو مثل عنترة الهزبر الضاري
والخي من سعد ذوّابـــة قومهم ... والفخر منهم والسنام الوارى[1]

فالشاعر من خلال الابيات السابقة يذكر زوجته بمكانته ومكانة قومـــه وأمجاد أخواله وأعمامه ، وهو في هذا يحاول ان ينبه زوجته الى أمور تجهلهـا او قد تكون تجاهلتها عندما فخرت عليه بقومها ، ولعله في بيته الرابع " عـدي رجالك يا هذه ..." قد وصل الى أوج ثورته وحماسته على زوجته ، بالاضافه الـــى ان فيه تحديا لها واستفزازا ، وبعدها يبدأ بتعداد فضائله وفضائل قومه من كرم وحسب ونسب وشجاعة وسيادة ويستمر في ذلك إلى نهاية القصيدة .

ومما يؤكد أن مثل هذه الأمور تكون سببا لسوء العلاقات الزوجيـــه ، الحياة التعسة التي كان يعيشها الشاعر ابو الزوائد نفسه ، اذ ذكر صاحـــب الاغاني بعضا من قصصه واخباره مع زوجته فيها معالم الكره لها والضيق منها .

عالج الاسلام ضمن ما عالج موضوع تعدد الزوجات وقد قام بتنظيمه وتحديده ومن أهم ما يتعلق بهذا الموضوع أن الشرع جعله علاجا لبعض الاحوال الشخصيـــة والاجتماعية في المجتمع الاسلامي ، ولم يرد به أداة للهو والعبث ، كما انه شرط شروطا يجب على الرجل تحقيقها والا فلا يجوز له الزواج من اكثر من واحدة ، ومن أهمها العدل بين الزوجات[2] فإن خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكـــم ذلك أدنى الا تعولوا " لكننا نجد في هذا العصر ان كثيرين انحرفوا عن اصـــول الدين وجعلوا موضوع التعدد وسيلة من وسائل العبث مما أدى الى نتائج سلبيـــة على العلاقات الزوجية خاصة والأسرية عامة ، ومن دلائل استهتار الرجل بقضيـــة التعدد ما روى عن احمد بن ابي دوّاد الشخصية السياسية المعروفة في العصـــر

---

(١) الأغاني ج ١٤ ص : ١٢٤ — ١٢٥ .
(٢) سورة النساء آية ٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العباسي[1] فقد قيل إنه تزوج امرأتين من بني عجل في سنة واحدة ولذا فانه لم يسلم من لسان الشاعر دعبل الخزاعي فهجاه هجاء مرا فيه فحش وبذاءة ومن هذا الهجاء قوله : -

إن كان قوم أراد الله خزيهم ... فزوجوك ارتغابا منك في ذهبك
فذاك يوجب ان النبع تجمعه ... الى خلافك في العيدان او غربك
ولوسكت ولم تخطب الى عرب ... لما نبشت الذى تطويه من سببك [2]

ولم تقف المرأة مكتوفة الايدى دائما ازاء تعدد زواج زوجها ، لذا كثيرا ما كان يخطر الزوج للزواج سرا عنها ، وإذا ما علمت فليس أقل من الطرد من البيت عقابا له ، وهذا ما حدث للشاعر أبي العيناء اذ ذكر ابن الجوزي أنه تزوج سرا عن ابنة عمه وعندما علمت منعته من دخول الدار وحالت بينه وبين ما فيها ، فلم ير الأمر يصلح الا بطلاق الزوجة الجديدة فصلح أمره مع ابنة عمه[3]

وقد عانى كل من الرجل والمرأة من مثل هذا التعدد الذى لم يكن يعود على كثير منهم الا بالتعب والضرر ، فقد ورد انه قيل لاعرابي ممن يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش ، فتزوج امراتين ثم ندم فأنشأ يقول : -

تزوجت اثنتين لفرط جهلي ... بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت اصير بينهما خروفا ... انعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحي وتمسي ... تداول بين أخبث ذئبتين
رضا هذى يهيج سخط هذي ... فما أعرى من أحد السحطتين
وألقى في المعيشة كل ضر ... كذاك الضر بين الضرتين
لهذي ليلة ولتلك اخرى ... عتاب دائم في الليلتين [4]

---

(١) من كبار رجال الدولة في دولة الامين ، وكان عالما فاضلا مسموع الكلمة في البلاط ، وقد طال عمره وتعمقت صلته بكثير من الخلفاء ،فكان قاضي القضاة للمأمون والمعتصم والواثق واول عهد المتوكل . عن موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ،للدكتور احمد الشلبي ، مكتبة النهضة المصرية ط٦ ، ١٩٧٨ ، ج ٣ ، ١٨١ .

(٢) الاغاني ، ج٢٠ /١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) اخبار الظراف والمتماجنين، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، مطبعة التوفيق دمشق ١٣٤٧هـ ، ص ٥٠ .

(٤) الأمالي في لغة العرب ، أبو علي بن اسماعيل القالي ، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٩٧٨ ،ج٢ ، ٣٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد تزوج اثنتين ليحقق لنفسه رغد العيش ونعيم الحياة حيث ظن أنه سيعيش بينهما كخروف منعم بين نعجتين ، كل واحدة تحرص على ارضائه وتهيئة العيش الهنيء له ولكن آل الحال الى عكس ما توقع اذا أصبح مثل نعجة تتنقل بين ذئبتين خبيثتين كل واحدة تذيقه أنواعا من السخط والتعذيب ، فهو إن أرضى واحدة اغضب الاخرى وهكذا يقضي حياته عتابا دائما من الاثنتين ، لذا فقد عاش حياته حياة صراع دائم يلقى الضر من زوجتيه وهذا الذى لفته من التعدد دفعه الى نصح الاخرين ليس بعدم التعدد فقط ، وإنما بالعزوبية وعدم الزواج مطلقا قال:-

فإن أحببت أن تبقى كريما ... من الخيرات مملوّ اليدين
وتدرك ملك ذى يزن وعمرو ... وذي جدن وملك الحارثين
وملك المنذرين وذى نواس ... وتبع القديم وذى رعين
فعش مزبا فان لم تستطعه ... فضربا في عراض الجحفلين(١)

فبعد تجربته المريرة تلك خلص الى رأى مفادة أن من أراد الحياة الحرة الكريمة ، ومن أراد الوصول الى بغيته من المعالي والغنى والمجد فعليه أن يعيش اعزب .

ثالثا: الخصومات الزوجية

لا يسود الوئام والصفاء الحياة الزوجية دائما وإنما قد يتخلل هذه العلاقة شيء من الفتور الذي قد يصل الى الخلاف فالخصام .

وتختلف هذه الخصومات باختلاف الأسباب والدوافع التي ولدتها . ولعل من أهم أسباب الخصومه بين الازواج في هذا العصر المال والجواري ، والطلاق وكره الزوجات على نحو ما سنرى.كثيرا ما كانت المسائل المالية سببا في الخلاف بين الزوجين سواء كان ذلك في الفقر أم في الانفاق في وجوه لا يرضاها أحد الزوجين خاصة الزوجة التي كانت تحرص على المال لنفقتها ونفقة عيالها ، بينما يسعى الزوج لتقديمه في الوجوه التي تعود عليه بالمدح ،وتختلف حدة الخلاف حول المسائل المادية من أسرة إلى اخرى ، ففي حين كان يؤدى الى مجرد عتاب او خلاف بسيط في أسرة ما كان يؤدي الى خلاف كبير ويقود الى القطعية في أسرة اخرى.

ومن الشعراء الذين بلغ خلافهم مع زوجاتهم حدا بالغا دعبل الخزاعي

---

(١) الامالي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقـــــــد قال في ذلك شعـــرا :

بانت سليمى وأمسى حبلها انقضبا ... وزودوك ، ولم يرثوا لك الوصبا
قالت سلامة أين المال قلت لهـا ... المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
الحمد فرق مالي في الحقوق فمـا ... أبقين ذما ولا أبقين لي نشبا (١)

فالشاعر يشير الى القطيعة بينه وبين زوجته وفراقها له بسبب المـــال الذى فرقه لأجل كسب الحمد فذهب جميعه الى مستحقيه ، وذهب معه كل مذمة وكـــل عيب من الممكن أن يلحقه ، وحل محله المدح .

ويشير الى حادثه توجزتفكير كل من الرجل والمرأة في هذا المجال قال: -

قالت سلامة دع هذى اللبون لنـــا ... لصبية مثل افراخ القطا زغبـــا
قلت احبسيها ففيها منعة لهـــم ... إن لم ينخ طارقيبغي القرى سغبـــا
لما احتبى الضيف واعتلت حلوبتها ... بكى العيال وغنى قدرنا طربـــا (٢)

فالمرأة تريد ان تحبس اللبون لصبيتها الصغار ، اما الرجل فإنه يرغـب في أن يستفيد أبناؤه من اللبون إن لم يأته ضيف ولم يطرق بابه طارق أما إن قدم عليه ضيف فإن اللبون ستحلب حتى لو أدى ذلك الى حرمان العيال من لبنهـــــا ولا يهمه إن جاع اطفاله او بكـــوا .

ويبلغ اصرار الشاعر على موقفه هذا حدا لا ينفع معه كلام ولا نقاش قال :

هذى سبيلي وهذا فاعلمي خلقـــي ... فارضي به او فكوني بعض من غضبا
مالا يفوت وما قد فات مطلبـــه ... فلن يفوتني الرزق الذى كتبـــا
أسعى لأطلبه والرزق يطلبنـــي ... والرزق أكثر لي مني له طلبـــا
هل أنت واجد شيء لو عنيت بـــه ... كالأجر والحمد مرتاداومكتسبـــا (٣)

فالشاعر يصر على موقفه من انفاق ماله على موجبات المدح سواء رضيـــت زوجته أم لم ترض ، وعلل موقفه هذا برأي فيه لمسة من الفكر الاسلامي الا وهو ان الرزق يأتي الانسان لأنه مقدر له ،فهو الذي يطلب صاحبه دائما ومن هنا فإنـــه يريد أن ينفق ماله فيما يعود عليه بالحمد لأنه الكسب الحقيقي للانسان ، بـــل

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي ، جمع وتحقيق محمد يوسف نجم ، دار الثقافة - بيـــروت لبنان ص : ١٣ . ١٩٦٢
(٢) المصدر السابق ، ١٤ .
(٣) نفســـــه ، ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو افضل ما يمكن كسبه من الحياة الدنيا .

وهناك سؤال يفرض نفسه لماذا كانت المرأة ترفض اسراف زوجها للمال؟او لماذا خص الشعراء الزوجات بكثرة لوم ازواجهن على اسرافهم للمال؟ إن هذه الظاهرة قديمة ،وجدت في الشعر الجاهلي من قبل ،وقد حاول النقاد إيجاد تفسير لها على أساس أنها مرتبطة ببخل المرأة الجاهلية وذكر الدكتور احمد الحوفي أن هذا البخل المزعوم ربما كان من خيال الشعراء أرادوا به أن يعظموا مروءاتهم . وقد اداروا هذا الخيال على زوجاتهم ولم يديروه على امهاتهم او اخواتهم او بناتهم وذلك لان الزوجة احيانا ليست من قرابتهم (١) . وهو يرفض هذا قائلا : " ولكننا نرد على هذه الدعوى بأن من دواعي شرف الرجل ان تكون زوجته كريمة مثله لأنها من اصهار كرماء او لأن كرم زوجها اعداها فليس مما يشرف الزوج أن يتخيل اللوم من الزوجة لا من أمه او أخته "(٢) .

وسواء أكانت القضية من خيال الشعراء ،أم جاءت على الحقيقة فانها ظاهرة موجودة وهي بحاجة الى تعليل . لقد كثرت شكاوى الرجال من بخل زوجاتهم ورفضهن لكرمهم وصوروهن محبات لخزن المال ، وكارهات لأي نوع من العطاء لانه لا يعود عليهن او على اولادهن بالفائدة يبدو لي من خلال اشعار شعراء هذا العصر أنّ المرأة فعلا كانت أكثر محافظة على مال زوجها، وأكثر رغبة في ادخاره ،ولكن ذلك لم يكن لبخلها او لشيء من هذا القبيل، وانما كان لخوفها من تقلب الأحوال وصعوبة تدبير نفقة أولادها ان حدث مكروه لزوجها او ان اصابته ضائقة ما . وهو أمر طبيعي عند المرأة ، فهي في الغالب كثيرة القلق والخوف من المجهول كموت الزوج او غير ذلك من الظروف التي تجعلها تتحمل عبء نفقتها ونفقة عيالها لذا تبدو اكثر حفاظا على المال من الرجل الذي قد لا يعبأ بهذه الأمور كثيرا ويهتم بدلا منها بجلب الحمد لنفسه . وهناك سبب آخر نفسي هو الذي منع المرأة من موافقة زوجها على انفاق ماله في الوجوه التي يعود نفعها عليه وحده ، ذلك لأن الرجل يشركها في تحمل نفقات كرمه وعطائه ولا يشركها معه في نوال الحمد والثناء، لهذه الأسباب مجتمعة يمكن أن تكون الزوجة قد آثرت عدم انفاق المال الا في الوجوه التي تراها هي صحيحة .

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٣٣٠

(٢) المصدر السابق ، ٣٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثلما كان انفاق المال في غير ما ترى الزوجه سببا للخلاف بينهما كان حثهـا لزوجها على جلبـه سببـا اخر له . اذ قد تشير الزوجة على زوجها بالاستعانـه بأصدقائه ان وقع في ضائقه وهو يرفض كما حصل مع أبي شراعة الذي رفض أن يريق ماء وجهه لهم وقال : -

تلوم ابنة البكرى حين أووبهـا ... هزيلا وبعض الآئبين سميـن
وقالت لحاك الله تستحسن العـرا ... عن الدار أن النائبات فنون
وحولك اخوان كرام ، لهم غنـى ... فقلت لاخواني الكرام عيـون
ذريني أمت قبل احتلال محلـة ... لها في وجوه السائلين غضون
سأفدي بمالي ماء وجهي انني ... بما فيه من ماء الحياة ضنين (١)

فاللوم يقع من قبل الزوجة حين لا يأتي لها زوجها بما تتوقعه من مال كما يفعل الآخرون من الرجال ، وهكذا فعلت زوجة ابي شراعه فقـد أشارت عليـه بتحسين وضعهم المالي وإعادة البيت الساقط بالاستعانه باخوانه ، ولكنه رفـض طلبها ورأى أن من يريد تقديم المساعدة لا ينتظر السؤال وهو لن يسأل أحـدا لان السؤال يؤذيه ويريق ماء وجهه وهو يفضل الفقر على ذلك .

وقد تدفع الزوجة زوجها للعمل على كسب المال لتحسين الوضع المالي مهما كانت الخطورة في الوسيلة التي عليه ان يتبعها لتحقيق ذلك اما الزوج فقـد يكون رجلا لا يهوى المغامرات لذا لا يهمه الغنى او جمع المال فحياته - كما يراها- اثمن من ذلك بكثير . ذكـر الاصبهاني في كتابه الاغاني انه كان للعتابي امرأة من باهلة لامتـه وقالت هذا منصور النمرى قد اخذ الاموال فحلى نساءه ، وبنـى داره واشترى ضياعا وانت ها هنا كما ترى . فانشا يقول : -

تلوم على ترك الغنى باهليـة ... نفى الدهر عنها كل طرف وتالـد
ترى حولها النسوان يرفلن كالدمـى ... مفلدة أعناقها بالقلائـد
أسرك اني نلت ما نال جعفـر ... من العيش او ما نال يحيى بن خالد
وان امير المؤمنين أغصنـي ... مضمهما بالمشرفات البـوارد
رأيت رفعيات الأمور مشوبـة ... بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجئني ميتتي بطمأنـة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد (٢)

---

(١) الاغانـي ج ٢٢ / ٤٣٥ .

(٢) العتابي حياته وما تبقى من شعره .د. ناصر حلاوي دار الطباعة الحديثة ، البصرة ٢٥ - ٢٦ ، والاغاني ج١٣ ، ١٢٣ - ١٢٤ - وقد وردت الابيات في البيان والتبيـن ج ٣٥٣ - ٣٥٤ مع اختلاف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون الخلاف حول المسائل الماديه بين الزوجين وسيلة من وسائل الرزق كما هو الحال عند أبي دلامة الذي كان يفد على الخليفة المنصور فيصف له فقرة وخلافه مع زوجته من أجل المال أملا في عطائه الذي يخفف من حدة مشكلته ، وقد قال في أحد اشعاره التي يصف فيها خلافه مع زوجته : -

أذا بلغ الجوع مذ صارت عيالتنا ... على الخليفة منه الري والشبع
لا والذي يا أمير المؤمنين قضى ... لك الخلافة في أسبابها الرفع
ما زلت اخلصها كسبي فتأكله ... دوني ودون عيالي ثم تضطجع
شوهاء مشأة في بطنها ثجل ... وفي المفاصل من اوصالها فدع
ذكرتها بكتاب الله حرمتنا ... ولم تكن بكتاب الله تنتفع
فاخرنظمت ثم قالت وهي مغضبة ... أأنت تتلو كتاب الله يالكع
اخرج لتبغ لنا مالا ومزرعة ... كما لجيراننا مال ومزدرع
واخدع خليفتنا عنها بمسالة ... ان الخليفة للسؤال ينخدع (١)

فالأبيات تشير الى بعض المشكلات المالية التي كانت تعيشها بعض الاسر في العصر ، فالزوج قد يقدم كل كسبه للمرأه ، لتنفقه هي على اسرتها ، وهكذا كان يفعل أبو دلامة ، ولكن زوجته لم تكن تقوم بالمهمه المتوقعة منها كما يجب فكانت تستفيد هي من المال في طعامها دونه ودون عياله كما يقول هو . وهذا ما دعاه الى هجائها ، ومن هنا يمكن ملاحظة أمر هو أن ليس كل الرجال هم المتحكمين في دخل الاسرة وإنما قد تضطلع الزوجة بتدبير الأحوال المادية في البيت في حين يقوم الرجل بالعمل خارجه . وكما كان انفاق الرجل لماله في غير ما ترى المراة موجبا للخلاف بينهما، فانه كان كذلك إن انفقت المرأة المال دونما حرص او حسن تدبير . وهذا هو الذي كان سبب النزاع بين أبي دلامة وزوجته . إنه كما يقول كان دائم التذكير لها بكتاب الله حتى ترتدع ، ولكن ذلك لم يكن ينفعها وانما كان يثيرها كثيرا اذ هي تستنكر ان يدعوها للانتفاع بما اتى به القرآن الكريم وهو لا يعرف ما فيه ولعلها في ذلك تعتمد على سيرته وخلقه البعيد عن اوامر ونواهي الدين وقضية أخيره تصورها الأبيات هي حث الزوجه المتواصل لزوجها للعمل لكسب الرزق وتحصيل المال لاينهما في ذلك الوسيلة وقد تجعل من جيرانها ومعارفها مثلا يحتذى به ، وقد تشير على زوجها ببعض الوسائل من أجل تحقيق طموحها كما فعلت زوجة أبي دلامة اذ اشارت عليه بخداع الخليفة وذلك باصطناع الفقر حتى يعطيه مالا .

---

(١) الاغاني ج ١٠ ، ٢٣٨ وشرح شواهد التلخيص على معاهد التنصيص تأليف عبد الرحيم العباسي، المطبعة المصرية ١٢٧٨ ، ج١ ، ٢١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون المال سببا في انقطاع العلاقة الزوجية من وجوه اخرى فقد نقل لنا الشعر العباسي بعض الصور الاجتماعية التي تتعلق بالزواج طمعا بمال المرأة ، او الزواج بالأرملة ؛ فكان هذا مجالا للتندر والسخرية من جانب ،وسببا لهجاء الزوج من جانب اخر ، لان مثل هذه الامور كانت غير مقبولة اجتماعيا عند كثير من الناس ، فقد ورد أن رجلا من ثقيف يقال له محمد بن خالد بن عمار الثقفي ، وكان عدوا لابان بن عبد الحميد اللاحقي تزوج بعمارة بنت عبد الرحمن الثقفي ، وكانت كثيرة المال فقال أبان يهجوه ويحذرها منه : -

لاعمر الله بها ربعه ... ولا رأته مدركا شعاره
ماذا رأت فيه ، وماذا رجت ؟ ... وهي من النسوان مختاره
أسود كالسفود ينسى لنا ال ... تنور بل محراك قيتاره
تجرى على أولاده خمسة ... أرغفة كالريش طيارة
وأهله في الارض من خوفه ... ان افرطوا في الاكل سيارة (١)

فالشاعر يتمنى على الله ان لا يتم زواجه ولا يباركه له ، ويتساءل عما رغب هذه المرأة فيه وما الذى دفعها للقبول به زوجا لها مع العلم بأنها مختارة فيها كثير من الصفات التي ترغب الرجال بها، اما هو فلا يملك صفه واحدة جيدة سواء كانت خلقيه ام خلقيه ، وأهم ما يميزه بخله الشديد على اسرته ، ومن كان له مثل هذا الخلق بالاضافة الى دمامته فهو ليس بزوج مختار .

وهو ينصحها بتركه وإبطال الزواج قائلا : -

ويحك فرى واعصبي ذاك بي ... فهذه اختك فراره
اذا غفا بالليل فاستيقظي ... ثم اظفرى انك ظفاره
فعمدت نائلة سلما ... تخاف ان تعمده الفاره
سرور غرتها فلا عوفيت ... فإنها اللخناء عراره
لو نلت ما ابعدت من ريقا ... ان لها نفثه سحاره (٢)

فهو ينصحها بتركه الى غير رجعة حتى تحقق لنفسها الظفر والراحة من هذا الزواج الذى لن يعود عليها الا بكل سوء . وقيل ان عمارة هذه لما سمعت هذا الشعر هربت فحرم الثقفي من جهتها مالا كثيرا. (٣)

---

(١) الاوراق ، ٢٤ . والغيارة : من يستخدم الزفت طلاء للاشياء .
(٢) المصدر السابق ، ٢٤ .
(٣) نفسه ، ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تكون المرأة الغنية أرملة ،مما يطمع الرجال فيها فيطلبونها للزواج ويبدو ان الزواج من ارملة سواء كانت فقيرة أم غنية كان مكروها في هذا العصر ويسبب في الحاق العار بأبنائها. يذكر أن سعيد بن المهلب تزوج بنتا لسفيان بن معاوية ، وكانت قد تزوجت قبله فكتب أبو عينيه يعنفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها : -

رأيت أشاشها فرغبت فيه ... وكم نصبت لغيرك بالاشاش
الى دار المنون فجهزتهم ... نحشهم بأربعة حشاش
فصير امرها بيدي ابيها ... وعيشك من حبالك بالشلاث
والا فالسلام عليك مني ... سأبدأ من غد لك بالمراثي(١)

فالشاعر يواجه ابن عمه بحقيقة السبب الذى دفعه الى زواجه من هذه الأرملة .لقد كان غناها ولم يكن اى شيء اخر،فهو قد طمع في اثاثها كما طمع فيه آخرون من قبله . فذهبوا هم وبقي الأثاث.إنه يشير هنا الى ان مثل هذه المرأة تعد فألا سيئا على الرجال الذين يتزوجونها لكونهم يموتون عنها ، لهذا فهو ينصحه بتركها وطلاقها طلاقا لارجعة فيه ، وان لم يفعل فهو يقرعه السلام ويخبره أنه سيبدأ باعداد المراثي له لاحساسه بأنه لن يعيش طويلا مع هذه المرأة.

ومن الظواهر الاجتماعية الواضحة في العصر العباسي كثرة الجواري وانتشارهن في ذلك المجتمع انتشارا واسعا نتيجة كثرة الفتوحات العربية انذاك فهن سبي الحروب ، وهن بالتالي حق للفاتحين ، اذ يصبحن ملك يمين لهم.وزاد في انتشارهن كذلك اشتغال النخاسين بتجارتهن فكان لهن أسواق خاصة بهن ، كسوق الرقيق في بغداد وقد كن من جنسيات مختلفه ، روميات وفارسيات وتركيات وزنجيات ... وقد كان كثير منهن يتمتعن بجمال باهر مما جعلهن يغلبن على عقول الرجال ، وبالتالي جعل لهن مكانا متميزا في هذا العصر ، سواء في قصور الخلافة ام بين فئات العامة ، والذى يهمني في هذا البحث هو التعرف الى أثر هذه الفئة على الحياة الأسرية في العصر العباسي.ولكي يتسنى لي ذلك لابد من دراسة لبعض اوضاعهن وأخلاقهن ، فهن كما ذكرت من جنسيات مختلفة وبالتالي فهن ذوات اشكال مختلفه محببه للرجال من طول قامة وبياض لون وصفاء بشرة ..... وكذلك فقد كن ذوات ثقافات مختلفة منها نحوية وأدبية وشعرية ، كما انهن كن يحذقن مهارات مختلفه أهمها الغناء والرقص،كل ذلك زاد في رغبة الرجال فيهن، وخاصة رجال الطبقة الاولى اذ كن وسيلة من وسائل الترف عندهم .

---

(١) الاغاني ٢٠/٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تكن ثقافتهن تلك حبأفي العلم والثقافة وإنما كان تجار الرقيق يقومون بتعليمهن وتثقيفهن من أجل مكاسب تجارية خالصة ، فثقافة الجارية وحذقها لمهارة معينةكانت تزيد في ثمنها أضعافا مضاعفة ، وليس أدل على هذا ما رواه الجاحظ عن الاصمعي قال : " بعث الي هارون الرشيد وهو بالرقة فحملت اليه ، فانزلني الفضل بن الربيع ، ثم أدخلني عليه وقت الغروب فاستدناني وقال : يا عبد الملك وجهت اليك بسبب جاريتين أهديتا لي وقد أخذتا طرفا من الأدب أحببت أن تبرز ما عندهما وتسير على الصواب فيهما ، ثم أمر باحضارهما فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط ، فقلت لاحداهما : ما عندك من العلم فقالت ما أمر الله في كتابه ، ثم ما ينظر فيه الناس من الاشعار والاخبار ، فسألتها عن حروف القرآن فأجابتني فكأنها تقرأ في كتاب الله ، ثم سألتها عن الاشعار والاخبار والنحو والعروض فما قصرت عن جوابي فيكل فن اخذت فيه فقلت لها تنشدين شيئا فانشدت : -

يا غياث البلاد في كل محل ... ما يريد العباد الا رضاك
لا ومن شرف الامام وأعلى ... ما أطاع الاله عبد عصاك

فقلت يا أمير المؤمنين ما رأيت امرأة فينسك رجل مثلها " .(١)

فهذه واحدة من جواري ذلك العصر الكثيرات ممن تمتعن بثقافة دينيه وأدبية واسعة وقد كان بعضهن يقصدن للمساجلات الشعرية ، فقد روى صاحب الاغاني ان دنانير جارية محمد بن كناسة كانت شاعرة مغنية تقصد للمذاكرة والمساجلة الشعرية.(٢)

للأسباب السابقة من جمال وثقافة وحذق للغناء وغيرها ، كان للجواري مكانة في قلوب الرجال ، غلبت في كثير من الأحيان علىمكانة الحرائر ، وقد أكد بعضهم ذلك بقوله " من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء ، وكان مسلم بن مسلمه يقول عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر "(٣).

وقد يقول قائل هذا كلام نظري ، ولكن هذا ما كان بالفعل ، فقد روى الاصبهاني في اخبار " دقاق " قال " : كانت دُقاق ام ولد يحيى بن الربيع احمد المعروف بابن دقاق مغنية محسنة متقنه الاداء والصنعة ... وعَشقت دُقاق فتزوجها بعد مولاها ثلاثة من القواد من وجوههم فماتوا جميعا .(٤)

---

(١) المحاسن والاضداد ص / ٢٥٠ .
(٢) الاغاني ج ١٣ ، ص ٣٣٧ .
(٣) المحاسن والاضداد ص / ٢٥٣.
(٤) الاغاني ج ١٢ ، ص ٢٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هذه الرواية نفيد بأن الجواري كن مقدمات ومرغوبا فيهن وكن يتنقلن من زوج الى آخر ، وقد يكون هؤلاء الازواج من علية القوم . وقد كن كذلك حظايا الخلفاء وأمهات أولادهم،ويكفي للتدليل على ذلك أن جميع الخلفاء العباسين كانوا من أمهات أولاد خلا ثلاثة منهم هم أبو العباس السفاح ، والمهدي ، والامين ، ولم تكن الخاصة فقط هي الطبقة الوحيدة التي تهتم بالجواري بل كذلك كن عند العامة ومنهم الشعراء الذين أكثروا من ذكرهن في اشعارهم فساهمن في موجة المجون التي شاعت في هذا العصر عند طائفة منهم وقد اقترن مشاهيرهم بأسماء جوار فمنهم أبو نواس الذى اقترن اسمه بجنان جارية عبد الوهاب الثقفي ، والعباس بن الاحنف بفوز ، وبشار بن برد بعبدة وقد أكثروا من ذكرهن في شعرهم . ولا شك ان لاخلاق الجواري يدا طولى في تشجيع الشعراء على ملاحقتهن والتغزل بهن ، وفي اشاعة الغزل المكشوف الذي شاع على السنتهم اذ كانت بعض هذه الجواري يتميزن بالمجون وسوء الخلق، وقد اشتهرت غير واحدة بهذا ، كعريب ، وجنان[1] وغيرها ولعل صورة واحدة من صور مجون الجواري تكفي للكشف عما كن عليه : - ذكر الجاحظ في كتابه المحاسن والاضداد : -

" اجتمع أبو النواس والفضل الرقاشي والحسين الخليع وعمرو الوراق ، ومحكم بن رزين ، في منزل عنان ، فتناشدوا الى وقت العصر ، فلما أرادوا الانصراف قالوا اين نحن الليلة ، فكل قال عندي ، فقالت عنان بالله قولوا شعرا وارضوا بحكمي فقال جميعهم شعرا يدعو كل واحد منهم الآخرين الى بيته ويرحب بهم وجاء دور عنان فقالت :

مهلا فديتك مهلا ... عنان أخرى وأولى
بان تنالوا لديها ... أشهى النعيم وأحلى
فإن عندي حراما ... من الشراب وحلا
لا تطمعوا في سواي ... من البرية كلا
يا سادتي خبروني ... أجاز حكمي ام لا

فقالوا جميعا قد أجزنا حكمك وأقاموا عندها .[2]

فمثل هذه الصورة للجواري تؤكد ما كن عليه من مجون وإسراف في اللهو فساهمن بذلك في انحراف الشعراء واغراقهم في المجون ، مما كان لهذا كله اثر على المجتمع انذاك ، ولكن علي ان لا اذهب بعيدا وأقول بان الجواري جميعا كن مثل عنان ، بل كان بعضهن على غاية من الخلق والنبل والاخلاص لاسيادهن .

---

(١) انظر اخبار عريب الاغاني ج٢١ ص ٥٤ وما بعدها ، وعنان ج٢٣ ، ص ٨٥ وما بعدها .

(٢) المحاسن والاضداد ص/ ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الصفات الاخرى التي ميزت الجواري تلاعبهن بعقول الرجال واظهار الحب والاخلاص لهم لأجل التسلية في بعض الأحيان ولأجل المكاسب المادية في كثير من الاحيان ، فقد يكون للجارية أكثر من صاحب توهم كلا منهم بأنها تحبه له وأنه الوحيد الذي تعرفه ، كما أنها توهمه بأنها محافظة ولا تخرج للرجال الا نادرا ، وغير ذلك من الأمور التي تجعلها تؤثر في عقله وتخلب لبه فيهتز طربا لما يسمع ويشفق عليها مما تعاني ، ويؤثرها بكل ما لديه من حب وعطاء حتى اذا ما استنفدت ما عنده ، تركته غير آبهة به لتبحث عن صيد سمين آخر وهكذا .

وقد أورد الجاحظ وصفا للقينه فقال : - " إن القينه لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودها لأنها مكتسبه ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربصين ليقتحموا انشوطتها ، فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ونشطت للشرب عند شربه ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه فاذا احست بأن سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد تعقل في الشرك ، وأوهمته ان الذي بها اكثر مما به منها ، ..." (١)

وهناك وصف لطبيعة الجواري جاء على لسان واحدة منهن ، هي فضل الشاعرة اذ قالت وقد بلغها ان سعيد بن حميد - صاحبها - قد عشق جارية من جواري القيان في رسالة ارسلتها له : -

ياعالي السن سيء الأدب	شبت وأنت الغلام في الطرب
ويحك ان الفتيان كالشرك ال	منصوب بين الفرور والعطب
لا تصدين للفقير ولا	يطلبن الا معادن الذهب
بينما تشكى هواك اذ عدلت	عن زفرات الشكوى الى الطلب
تلحظ هذا وذاك وذا	لحظ محب - وفعل مكتسب (٢)

وقد علل مثل هذا التصرف وغيره من أخلاق الجواري بأنه إنما كان نتيجة للظروف التي عاشتها الجارية ، فهي تربى منذ نعومة اظفارها بعيدة عن تعاليم الدين وحسن الخلق . اذ أنها تعيش في الغالب حياة منكره تتنقل في أسواق الرقيق من سيد الى آخر فلا تعرف في حياتها سوى تقديم الخدمة والمتعة لطالبها دون حساب لكرامة او انسانيه ، قال الجاحظ : " وكيف تسلم القينة او يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تكتسب الاهواء ، وتتعلم الألسن ،والأخلاق بالمنشأ ، وهي تنشأ من لدن مولدها الى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والاخانيث وبين الخلعاء والمجانين ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع

---

(١) رسائل الجاحظ ج٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) الاغاني ج١٨ ، ١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منه الى ثقة ولا دين [١]

ولقد كان للجواري أثر بالغ على الحياة الزوجية ، فقد أصبحن شغل الرجل الشاغل الذى يلهيه عن زوجته وعن بيته ، كما انهن بما كن عليه من سوء خلق او مجون أثرن على ثقة الرجال بالنساء وجعل بعضهم يظن بأن خلق النساء واحد مهما اختلفت مظاهره لا يدمن على عهد ولا يحفظن ودا ، كما أن توافرهن وسهولة الحصول عليهن جعل الرجل يستهين بالعلاقة الزوجية . ومثال ذلك ما كان بين الخليفة هارون الرشيد وزوجته زبيدة ، فقد أورد صاحب الاغاني قال : - كانت دنانير مولاة يحيى بن خالد البرمكي ، وكانت صفراء مولده وكانت من أحسن الناس وجها ، وأظرفهن وأحسنهن أدبا وأكثرهن هواية للغناء والشعر وكان الرشيد لشغفه بها يكثر مسيره الى مولاها ، ويقيم عندها ، ويبرها ويفرط حتى شكته زبيدة إلى أهله وعمومته فعاتبوه على ذلك . [٢]

وقد كن مصدر عتاب بين الازواج اذ ذكر عبد الله بن محمد بن يسير قال:- هوى أبي قينة من قيان أبي هاشم بالبصرة فكتبت اليه أمي تعاتبه ، فكتب اليها :-

لا تذكري لوعة أثرى ولا جزعا ... ولا تقاسن بعدي الهم والهلعا
بل اكتسي تجدي ان اكتسيت أسأ ... بمثل ما قد فجعت اليوم قد فجعا
ما تصنعين بعين عنك قد طمحت ... إلى سواك وقلب عنك قد نزعا
إن قلت قد كنت في خفض وتكرمة ... فقد صدقت ولكن ذاك قد نزعا
وأى شيء من الدنيا سمعت به ... الا اذا صار في غاياته انقطعا
ومن يطبق خليعا عند صبوته ... أم من يقوم لمستور اذا خلعا [٣]

فالشاعر لا يقيم حرمة لعلاقته بزوجته ولا يتذكر منها حسنا ولا معروفا وهو يقر ويعترف أنهما كانا يعيشان حياة رغيدة ، وأنها كانت تحرص على راحته وهنائه ولكن هوى هذه القينة غلبه فاصبح ممن لا يعتب على تصرفه ، وبالتالي فإن عليها أن تتقبل هذا الأمر على ما هو عليه دونما جزع او شكوى فما كان بينهما صار في نهاية غايته ، وكل أمر يصل الى هذه المرحلة لا بد ان ينقطع وينتهي كما يقول .

وقد لا يكتفين بأنهن سبب للشكوى والعتاب ، بل ربما كن سببا مباشرا

---

(١) رسائل الجاحظ ج٢ ، ١٧٦ .
(٢) الاغاني ج١٨ ، ص ٦٧ .
(٣) الاغاني ج ١٤ ، ص : ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للطلاق ، فقد ذكر الطبرى ان يحي بن الاشعث بن يحي الطائي تزوج ابنه لعمه النعمان ، وكانت ذات يسار ولسان ، فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند فلما طال مقامه بها وبلغها أنه قد اتخذ امهات أولاد التمست سببا للتخلص منه .." (١) ان هذا يدل على أن الرجل كان يهمل زوجته وينصرف عنها الى الإماء حتى لو كانت تتمتع بصفات جيدة ، فالجوارى زاحمن المرأة الحرة وقد استوى في ذلك المرأة ذات الصفات الحسنة والمرأة الضعيفة ذات الصفات غير الحميدة .

وقد تكون الجارية سببا في هجاء الزوجة وبيان عيوبها كما هو الحال عند أبي دلامة الذي أراد وليدة تريحه من زوجته العجوز ، قال في رسالة ارسلها للخيزران مع حاضنة اولادها ام عبيدة : -

أبلغي سيدتي بالله يا ام عبيده
انها أرشدها الله وإن كانت رشيده
وعدتني قبل أن تخرج للحج وليده
فتأنيت وأرسلت بعشرين قصيده
كلما أخلقن اخلفت اخرى جديده
ليس في بيتي لتمهيد فراشي من قعيده
غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حوت طرى في عصيده
ما حياة مع أنثى مثل عرسي بسعيده (٢)

فأبو دلامة يريد جارية صغيرة حسناء لتمهيد فراشه وتقوم على راحته بدلا من زوجته العجوز التي لا تملك شيئا من عناصر الجمال بل هي عجوز بشعة يعيش معها في شقاء دائم والذى شجع هذا الشاعر وذاك على الجرأة بطلب الجارية الحسناء هو توافر الجواري وسهولة الحصول عليهن والا لكانوا اكثر حفاظا على زوجاتهم وأكثر احتراما للعلاقة التي تربطهم بهن .

اما الطلاق فشاع شيوعا كبيرا في هذا العصر حتى أن لفظة الطلاق كانت تدور على الألسن كأي كلمة اخرى ، وقد يطلقها الرجل لأسباب غير منطقية او حتى دونما سبب على الاطلاق . وشيوع الطلاق في هذه الصورة دليل كبير على استهانة الرجل بالحياة الزوجية ، ولم لا والجواري يملأن الاسواق والبيوتات . كما

---

(١) تاريخ الامم والملوك ص ٥٠٨ - ٥٠٩ .
(٢) الاغاني ج١٠ ، ٢٦٢ - ٢٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انه دليل على ضعف الرابطه الزوجية التي تحدثت عنها سابقا . ولم يكن الرجل هو الساعي للطلاق دائما فقد تطلبه المرأة كذلك اذا وجدت ان حقها ضائع او انها ظلمت في زواجها وفيما يلي انواع الطلاق التي كانت شائعة في هذا العصر . -

عبثية الطلاق : -

ان مثل هذا النوع كان يشيع على بعض الألسنة بدون سبب خاص بالزوجة او بالعلاقة الزوجية التي تجمعهما وإنما يكون - مثلا - لرؤية جارية حسنة الشكل او سماع لحن عذب ، فيقسم الرجل بطلاق زوجته إن هو رأى أجمل من تلك الجارية او سمع أعذب من ذاك اللحن ، فقد ذكر الجاحظ " قال : اسحق بن ابراهيم الموصلي كنت انا والحسين بن الضحاك يوما عند المعتصم وحضرت فيه جارية تعرض عليه فاعجب بها ، فقال للمدنيين كيف ترونها : فقال أحدهم ، امرأته طالق إن كان رأى مثلها وقال : آخر أمرأته طالق ان لم ، وسكت فقال المعتصم : إن لم ، قال لا شيء فضحك وقال له ويحك ما دعاك لطلاق أهلك بلا سبب " (١).

وقد تذهب الزوجة بقافية شعر ، فقد روي عن علي بن دعبل الخزاعي قال : حدثني أبي ،قال :خرجت ومعي اعرابي ونبطي إلى موضع يقال له بطيانا من أمصار دجلة متنزهين فأكلنا وشربنا فقال الاعرابي قل بيت شعر فقلت : -

نلنا لذيذ العيش في بطياثنا

فقال الاعرابي :

لما جثثنا اقدحا ثلاثا

فقال النبطي :

وأمرأتي طالق ثلاثا

وما زال يبكي حتى الصباح فقلت : ما يبكيك فقال ذهبت امرأتي بقافيه " (٢)

ومن الطلاق ما يكون لسبب غير منطقي لا يستحق ان تهدم به حياة زوجية ويشرد من أجله أطفال فقد روى ابن الجوزي : " أن رجلا .. تقدم الى قاض هو وزوجته ، فقال خاصمتني وقالت : أنا أظرف منك فقلت : إن كنت اظرف مني فانت طالق ثلاثا ، فقال القاضي الظرف صفات تذكر فليذكر كل واحد منكما ما يرى انه تفرد به . فقال الرجل : مرها فلتصف من نفسها . فقال : والله ما اعرف لنفسي حالا اتفرد بها توجب كوني مقدمه على غيري في حدود الظرف ، فقال الزوج قد سبقتني بجميع حدود الظرف بهذا القول وأراها قد حرمت علي لكونها أظرف ، فقال القاضي كذا عندي الحكم " (٣)

---

(١) المحاسن والاضداد . أبو عثمان الجاحظ تصحيح محمد أمين الخانجي مطبعة السعادة ط ١٣٢٤٩هـ ص : ١٦٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه ص/ ١٦١ ، ١٦٢ .
(٣) أخبار الظراف والمتماجنين ص/ ٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أسباب الطلاق ما يكون لبخل الرجل فقد ذكر الجاحظ " ان احدهم طلق امرأته - وهي ام اولاده - لأنه رآها غسلت خوانا له بماء حار فقال لها هلا مسحته "[1] وذلك لان الماء الحار يذهب ما عليه من دسم وهذا ما لايريده هو .

وقد تكون المرأة هي البادئه بطلب الطلاق إن هي أحست بأنها ظلمت في زواجها او لأي سبب تراه هي موجبا لهذا الطلب .. فقد روى صاحب الأغاني عن بعضهم أنه رأى أم ابن جامع - المغني - وابن جامع معها عند معن بن زائده وهو ضعيف يتبعها ويطا ذيلها وكانت من قريش ، ومعن يومئذ على اليمن فقالت أصلح الله الامير ، ان عمي زوجني زوجا ليس بكفء ففرق بيني وبينه . فقال من هو ؟ قالت " إبن ذى مناجب قال علي به قال : فدخل اقبح من خلق الله واشوهه خلقا فقال من هذه منك قال : امرأتي قال : خلي سبيلها [2]..

وعلي أن لا أبالغ بالقول ان كل حالات الطلاق كانت بدون سبب أو لاسباب بسيطه يمكن تلافيها ، اذ ان هناك حالات كثيرة توجبه ، كما أن النوع الأول من الطلاق كان ينتشر عند طبقات معينه من الناس تسربت اليها أخلاق دخيله ليست من صلب المجتمع الاسلامي الذى كره الناس بالطلاق وجعله أبغض الحلال عند الله تعالى .

ولم تكن القضايا الماليه والجواري وحدها التي افسدت العلاقة بين الأزواج في هذا العصر وإنما كانت الخمر تنافسها في ذلك بل ربما كانت تنجح في ان تكون المقدمة عند الزوج والفائزه به دون الزوجة، فقد ذكر أن ابا شراعه كان قد حلف الا يشرك النبيذ بطلاق زوجته ، فهجره حولين كاملين ثم حنث فشرب وطلق امرأته فقال في ذلك : -

فمن كان لم يسمع عجيبا فانني ... عجيب الحديث يا أُميم وصادقه
وقد كان لي انسان يا ام مالك ... وكل اذا فتشتني أنا عاشقه

---

(١) البخلاء ، ص ٢٣ .
(٢) الاغاني ج٢ ، ص : ٢٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عزيزة والكأس التي من يحلها ... تخادعه عن عقله فتصادقه
تحاربتا عندي فطلت دنها ... وأكوابها والدهر جم بوائقه
وحرمتها حولين ثم أزلتي ... حديث الندامى والنشيد اوافقه
فلما شربت الكأس بانت باختها ... فبان الغزال المستحب خلائقه
فما أطيب الكأس التي اعتفت منكم ... ولكنها ليست بريم أعانقه (١)

فالشاعر يوضح أن الخمرة وزوجته كانتا كأختين ، كلتاهما محببتان إلى نفسه ، غاليتان على قلبه وبالتالي فقد كان بينهما منافسة وعندما تحاربتا أبطل شرب الخمرة وحلف على عدم شربها ، ولكنها ، لاثرها الكبير على عقله وقلبه، بقيت تخادعه وتزايله حتى أتى يوم لم يستطع مقاومتها فشربها وطلق زوجته التي لم يكن لها ذنب في هذا الطلاق . لقد كانت زوجته محببه الى قلبه ونفسه وهي كالغزال جمالا ولطفا ولكن حدث ما كان وذهبت بشربة خمر .

ومن العبث بالعلاقة الزوجية طلاق الزوج زوجته بدون سبب سوى ادعائه بغضها ، كما ورد عن أبي النضير الذى قال : -

رحلت سكينة بالطلاق ... فأرحت من غل الوثاق
رحلت فلم تألم لها ... نفسي ولم تدمع ماقي
لو لم تبن بطلاقها ... لابنت نفسي بالإباق
وشفاء مالا تشتهيه النفس تعجيل الفراق (٢)

فقد كانت زوجته - كما يقول - مثل الوشاق وقد تخلص منه طلاقها ، فنال بذلك الراحة والسعادة . وفي هذا دليل على شدة بغضه لها وتبرمه بوجودها عنده لذلك فهو لم يحزن ولم يتألم لفراقها ، وكيف يفعل وقد حقق له فراقها الراحه وفيه وجد العلاج الناجع لشفاء نفسه من كرهها وثقلها على قلبه ونفسه .

ولم يكن هذا شعور كل المطلقين لزوجاتهم في هذا العصر ، فمنهم من ندم لطلاق زوجته المتسرع وشعر بالالم والحزن لفراقها ولكن مضى فيها قول لا يمكن الرجوع عنه كما هو الحال عند مسلم بن الوليد ، قال : -

أجارتنا مافي فراقك راحة ... ولكن مضى قول فأنت به بسل
فبيني فقد فارقت غير ذميمة ... قضاء دعانا للقطيعة لا الختل
اما واغتيال الدهر خلة بيننا ... لقد غال الفا ساكنا بهم الشمل
فما بي إلى مستطرف العيش وحشة ... وإن كنت لا مال لدى ولا اهل

---

(١) الاغاني ج ٢٣ ، ص : ٢٨ - ٢٩ .
(٢) العقد الفريد ٣ / ٤٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنا لابك الامر الذى تكرهينه ... أتى الحلم بالعتبى وقد سبق الجهل
فلا شوق إن اليأس اعقب سلوه ... سواء نوى من لا يراجع والثكل (١)

فالشاعر لم يكن مرتاحا لطلاق زوجته ، ولكن لسبب ما لم يذكره الشاعر أصبحت محرمه عليه (٢) ، اذ منى فيها قول لا يمكن الرجوع فيه - كما يقول - لكنه يبدو نادما وكارها لما حصل ، ومقدرا لعظم الخسارة التي لحقته بطلاقها فكأن الأمر كان به لا بها . وهو يعلل ما حصل لهما بأنه قدر مقدر اذ لم يكن طلاقها عن خيانة او غدر مما جعله يذم الدهر الذى فرق شمله بأهله وقد بلغ به الندم حدا عزف بعده عن الزواج من اخرى رغم حاجته الى واحدة يعيش معها وهذا مما يؤكد ان المرأة كانت تتعرض للطلاق ظلما ودونما سبب خاص بها ، او لذنب اقترفته .

ويتذكر الشاعر لياليه الخالية مع زوجته حيث كانا يعيشان عيشا هانئا فيقول : -

عليك سلام لا تحية ذي قلى ... حلا بعدك العيش الذى كان لا يحلو
الارب يوم صادق العيش نلته ... بها وندامای العفافة والبذل
عشية آواها الحجاب كأنها ... خذول من الغزلان حالية عطل (٣)

فهو يقرئها سلام محب لا تحية مبغض كالتي قد تكون من الزوج لزوجته المطلقه ويؤكد لها انه عانى كثيرا من فراقها وهو لم يشعر براحة الا بعد ان يئس منها وقد كان من قبل لا يشعر بالراحة ولا يحلو له عيش الا معها ولا ينسى ان يذكر محاسنها وهو يودعها. ويزيد من حزنه وأساه لطلاقها ابنه الذى له منها : -

لعمر ابنها لولا احتراق الحشا له ... لمات الجوى او لاستفيد به مثل (٤)

فقلبه يحترق لحال ابنه الذى فقد امه نتيجة لطلاقها ، ويؤكد الشاعر ان لولاه لمات الجوى او لاستبدل بها اخرى ولكن خوفه عليه منعه من ذلك . ولعل الذى قصده الشاعر ان وجود ابنه كان دافعا اخر لمنعه من الزواج من اخرى ، فقد قال في ابيات سابقة ان الذى منعه من الزواج من اخرى ندمه على طلاقها وعدم قدرته على فراقها .

---

(١) شرح ديوان صريع الغواني ، ص٨٩ وما بعدها .
(٢) اورد الدكتور عبد القادر الرباعي سببا لذلك فذكر أن طلاقه لها كان بسبب اختلافه معها في بعض شؤون حياتهما فغلب جهله على عقله فطلقها بعد ان انجبت له ولدا كان لا يزال صغيرا انظر صريع الغواني حياته وشعره ، دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض ١٩٨٣، ص ٢٤ .
(٣) ديوان صريع الغواني ص ٨٩ - ٩٠ .
(٤) المصدر السابق نفسه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحاول بعد ذلك جاهدا أن يسلوها حتى لا يوجد للعواذل ما يمكن ان يعذل عليه : -

سلوت وان قال العواذل لا يسلـــو وأقسمت لا يرقى الى سمعي العـــذل
وباينت حتى صرت للبين راكبـــا قرى العزم فردا أمثل ما انفرد النصل[1]

فقد سلاها لا لانه مقتنع بضرورة ذلك ، وإنما لاثبات أنه قادر على أن يسلوها وقد استخدم السفر ليكون وسيلة من وسائل سلواه لها .

وقد تكون المراة هي سبب ذلك الفراق الذى يكون بين الزوجين ، فقـــد قال محمد بن الحسن الرؤاسي[2] في زوجته بعدما ملها لكثرة ذهابها عند اهلهـــا ومفارقته ايلما : -

بانت لمن تـهـــوى حمـــول فأسفت في أثر الخمـــول
أتبعتهم عينا عليـــــــــ هم ما تفيق من الهمـــول
ثم ارعوبت كمـــا ارعـــوى عنها المسائل للـــتطلول
ملت وأبدت جفـــــــوة لا تركنن الى علـــلول[3]

فهو يبدو نادما لتركها وطلاقها لذا فقد اتبع ركبها عينيه الدامعتيـــن أسفا وندما على فراقها له ، ولكنه يحاول ان يتجاوز الموقف ويتجلد ويصبـــر لسلواها وهو يشير الى أسباب طلاقه اياها فنجدها في مللها وجفوتها له ، ويؤكـــد الشاعر أن من كانت هذه أخلاقها لا يركن اليها ولا فائدة ترتجى منها ، ولما كانـــت زوجته على هذه الصفات رأى أن طلاقها افضل على الرغم من أنه كان يدخـــــر لها حبا ، ويكره فراقها . ويبدو من خلال الرواية والابيات ان زوجته لم تكـــن تكن له حبا وكانت ضائقة بالعيش معه مما دفعها الى الاكثار من زيارة اهلهـــا وتركها اياه غير آبهة به ولا بمشاعره نحوها .

أما هجاء الزوجات فيعد واحدا من سلسلة حلقات التفكك بين الزوجين اذ شاع في هذا العصر شيوعا كبيرا وبلغ درجة من السوء حتى أن الرجل لم يكتف بصفـــات الهجاء المعقوله والمتعارف عليها بين الناس ، وإنما امتد الى نوع من الفحـــش والبذاءة ، وأصبحت الزوجة ثقلا او هما على قلب زوجها يريد التخلص منه بأي طريقة كما أنها أصبحت في بعض الاحيان تشكل كابوسا له فهو يتذكرها عند رؤيته المناظر التي لا تثير في نفس الانسان سوى الحزن والضيق والرعب ، ومن ذلك قول أبي كناسة وقد رأى مطلوبا : -

---

(١) ديوان مربع الغواني ص ٩١ - ٩٢ .
(٢) سمي الرؤاسي لكبر رأسه ،وهو أول من وضع من الكوفين كتابا في النحو مات في أيام الرشيد (معجم الادباء ج ١٢٢/١٨ .)
(٣) معجم الادباء ج ١٨ ، ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيا جذع مصلوب دون صلبـــــه ثلاثون حولا كاملا هل تبـــادل
فما أنت بالحمل الذى قد حملته بأضجر مني بالذي أنا حامـل[1]

فهو عندما رأى هذا المصلوب على الجذع تذكر امرأته التي كان يبغضهـا والذي ثقل عليه مكانها [2] فوجد أن حاله ليس بأفضل من حال هذا المصلوب .

ومما يلاحظ هنا أن الموازين والمفاهيم المتعارف عليها انقلبت عنـــد بعض رجال هذا العصر ، فمن الشائع أن العلاقة الزوجية اذا استمرت سنوات طويلة تصبح اكثر قوة وتماسكا ، وتكون هذه السنوات دافعا للحفاظ على ديمومة العلاقـة ولكن رجال هذا العصر كانوا يرون العكس فقد تستحق المراة عندهم البغض والهجاء لطول لبثها عند زوجها . روى صاحب الاغاني عن بعضهم ان ابا الزوائد كانت عنـده امراة انصارية فطال لبثها عنده حتى ملها وابغضها فقال يهجوها : -

يا رمل أنت الفول بين رمـــال لم تظفري بنفى ولا بجمـــال
يا رمل لو حدثت انك سلفـــع شوهاء كالسعلاة بين سعالـي
ما جاء يطلبك الرسول بخطبـــة مني ولا ضمت عليك حبالـــي
ولقد نهى عنك النصيح وقال لـي لا تقرنن بذية بعيـــال[3]

فهو لا يرى فيها صفة خُلقية او خَلقية تستحق منه المدح عليها بل ليـس فيها أمر سوى الدمامة والخلق السيء والبعد عن تعاليم الدين بالاضافة الى أنهـا صخابة تزعجه بما هي عليه من سوء لذا فهو يتمنى الخلاص منها عن اى طريق حتى لو كان الموت ذلك الطريق وليس الشاعر وحده هو الذى يحس بسوئها وانما هناك اخرون نصحوه بعدم قرنها بعياله كما يقول ،فان دل هذا على شيء فإنما يدل على وجود من يزيدون في المشكلات الزوجية بأحاديثهم وأعمالهم . ثم ينتهي الشاعر بقذفهـا بأفحش الكلام وأكثره بذاءة ، وقد آثرت عدم ذكره لفحشه .

لقد أكثر بعض الشعراء من هجاء زوجاتهم ماديا ، وقاموا بتصوير مشاعرهم مـــن خلال الاوصاف السيئة التي اطلقوها عليهن ومن هؤلاء دعبل الخزاعـــي الذى قال في زوجته : -

يا ركبتي خزز وساق نعامـــة وزبيل كناس وشدق بعيـــر
يامن اشبهها بحمي نافـــض فطاعة للقلب ذات زفيـــر
صدغاك قد شمطا ونحرك يابـس والصدر منك كجؤجؤ الطنبـــور
يامن معانقها يبيت كأنـــه في محبس قمل وفي الصدر ساجور
قبلتها فوجدت لدغة ريقهـــا فوق اللسان كلدغة الزنبـــور

---

(١) الاغانـــي ج١٣ ، ٣٣٩ .
(٢) المصدر السابق ج١٤ ، ١٢٤ .
(٣) ديوان دعبل الخزاعي ، ٨٩ . الخزز : ولد الأرنب ، الزبيل : وعاء يوضع فيـه الزبـل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يصور زوجته بصورة فيها من البشاعة فنون وألوان ، فساقاها كساقي النعامة ضعفا وهزالا وشدقها مثل شدق البعير ويصور علاقته بها على نحو تبدو فيه قائمة على الكره والضيق فهو لا يرى فيها الا الدمامة والقذارة ولا يحس معها الا بالكره والاشمئزاز كل ذلك يجعله يحس بأنها قيد في عنقه يريد الخلاص منه .

وقد لا تنفع كل وسائل الزينة في وقف مشاعر الكره عند الزوج ، فقد قال اعرابي في عروس له في البصرة : -

أقول وقد شدوا عليها حجابها ... الا حبذا الأرواح والبلد القفر
الا حبذا سيفي ورحلي ونمرقي ... ولا حبذا منها الوشاحات والشذر
أتوني بها قبل المحاق بليلة ... فكان محاقا كله ذلك الشهر
وما غرني الا خضاب بكفها ... وكحل بعينها وأثوابها الصفر
تسائلني عن نفسها هل أحبها ... فقلت ألا والذي أمره الأمر
تفوح رياح المسك والعنبر عندها ... واشهد عند الله ما ينفع العطر (١)

فقد بلغ كره هذا الاعرابي من زوجته مبلغا كبيرا وهو لم يقم وزنا لوسائل الزينة التي كانت تستخدمها من خضاب وكحل وغيره ، ولم تفد أثوابها المزينة والملونة في لفت انتباهه او تحريك مشاعره نحوها اذ هو لا يحس تجاهها بغير الكره والضيق ، وهذا الاحساس هو الذي جعله لا يرى حسنا ولا جميلا فيها او في زينتها . وتذكر بدل من ذلك البلاد المقفره ووسائل سفره ، ولعل ذلك للرغبة التي كانت عنده بالرحيل عنها وتركها ، وهو لا يخفي مشاعره تلك تجاهها بل هو يخبرها بكرهه لها وضيقه منها ويقسم لها على ذلك . وهو يؤكد في نهاية الابيات أن مشاعره هذه لن تتغير أبدا مهما استخدمت من وسائل زينة او عطر او غيره وقد يكون السبب في مثل هذا الأمر عادة الزواج التي تحرم على الرجل رؤية زوجته الا ليلة زفافها والتي كانت شائعة في هذا العصر .

التشائم بالزوجات : -

لم يقتصر بعض الشعراء على هجاء زوجاتهم وشتمهن ووصفهن بصفات سيئة وإنما زادوا على ذلك بأن قذفوا زوجات غيرهم وجعلوهن هدفا للاتهام والهجاء حينما يغضب من زوجها او عندما يتهاجيان .

---

(١) عيون الاخبار ٣٢/٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ركز الشعراء في شتمهم لزوجات غيرهم على اعراضهن ، فقذفوا بعضهن بكثير من صفات السوء ، وأقذع بعضهم فوصفهن وصفا بذيئا مما لا يجوز ذكره . ومن أخفه ما قاله أبو تمام في هجائه لمقران النبارقي:

امراة مقران ماتت بعد ما شابـــا
فحسّت السلع الفتيان والصابـــا
لم يبق خلق بباب الشام نعرفـــه
بالفتك مذ هلكت الاوقد نابـــا
يا نكبة هشمت أنف السرور بـــه
وميتة أبقت العزاب عزابـــا (١)

فالشاعر في هجائه لمقران هذا يذكر وفاة زوجته التي يتهمها بالخلق السيء وعندما ماتت ناب كثيرون عن الخطايا حيث كانت هي تدفعهم اليها.
وقال في هجائه ايضا : -

مقران يا منتشب الـــراس ... لا تخل من هم ووســـواس
لا تقس قلبا وابك من لم يكن ... على الكئيب الصب بالقاسي
ريحانة الفتيان قد أصبحت ... رهن جبابين و أرمـــاس
وقل لها يا امرأتي هدنـــي ... فقدك بل يا امراة النـــاس(٢)

فالشاعر يؤكد ما قاله في امرأة مقران هذا في ابياته السابقة من انها كانت ذات خلق سيء وأنها لم تكن زوجة له واحده .

ومن الذين استخدم أعراض الزوجات هدفا لأهاجيه ابن الرومي ، قال في هجاء أبي حفص الوراق : -

قالوا هجاك أبو حفص فقلت لهـــم ... لا شب قرن أبي حفص ولا زرعـــا
لئن هجاني وفرط الجهل اوقعـــه ... لقد تزوج ايضا بعدما صلعـــا
قد قلت اذ قيل زفت حليلتـــه ... صبرا فإني بقرن الشيخ قد طلعـــا
طلقها منه ان عفت له ابـــدا ... ما أبصرت منه ذاك المنظر الشنعا
أقبح بوجه أبي حفص وعفتهـــا ... هذان شيئان لا والله ما اجتمعـــا (٣)

---

(١) ديوان ابي تمام ج٤ ، ٣١٩ . والسلع : شجر مر .
(٢) المصدر السابق نفسه ج٤ ، ٣٨٠ .
(٣) ديوان ابن الرومي ٣ / ٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الأمومة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأمومـــــــــــــــة

أولا : شعر الامّهات في الأبنـــــــــاء

من صفات الأم حب اولادها والحرص عليهم وإيثارهم على نفسها ســـــواء كان ذلك في القضايا المادية أم في غيرها ، احساسا منها بضرورة التضحيـــة من أجل أولادها ، وهذا ليس بكثير عليهم ،كما ترى، فهم فلذات كبدها وقطعـــة منها تؤثرهم على نفسها . فقد ورد عن الواقدي صاحب السير والمغازي أنـــه قال : " حضر العيد ، فقالت امرأتي : أمّا نحن في انفسنا فنصبر علـــى البؤس والشدة ، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم ، لأنهـــم يرون صبيان الجيران قد تزينوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم ، وهم علـــى هذه الحال من الثياب الرثة ، فلو احتلت لهم بشيء في كسوتهم ... "(١)

ومن علامات المودة والحب بين الأم وأبنائها تذكرها لهم حينمـــا يبتعدون عنها ، واستغلال الفرص لارسال الهدايا لهم . فقد ذكر صاحب الأغانـــي عن الشاعر محمد بن كناسة ان ابراهم بن أدهم - خاله او ابن خاله - قـــدم الى الكوفة ، فوجهت امه اليه بهدية معه فقبلها .... "(٢)

ومن مظاهر حرص الأم على أبنائها توجيهها لهم في كافّة نواحي حياتهم وفي كل أطوارها . وهذا التوجيه إنما يكون للالتصاق الطبيعي والاجتماعـــي بينها وبينهم ، وقد يحدث أن يكون هذا التوجيه سلبيا ، فبقدر ما يكـــون للأم من رجاحة عقل واخلاص لأمومتها تستطيع توجيه أولادها توجيها صالحا وعلـــى العكس من هذا فالأم الجاهلة الحمقاء هي التي توجه أبناءها الوجهة التـــي قد يكون فيها ضياعهم ، وأحيانا دمارهم ، وقد تكون الأم واعية ، الا أن عـــدم مقدرتها لتكون أمّا حقة يجعلها تسير أولادها وفقا لرغباتها الشخصية ممـــا يؤدي بهم الى الشقاء وأحيانا الى الضياع ، اذ ليست كل والدة أمـــا ، فالأم هي التي تستطيع أن تقوم بدور الأمومة الحقة في جميع أطوار حياة أبنائها والى آخر لحظات عمرها مهما كلفها ذلك من تضحية وعطاء .

---

(١) مروج الذهب ج ٤ ، ٣٣٠

(٢) الأغاني ٣٤١/١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا تستطيع أن تقوم الأم بدورها الايجابي بشكل فعال ما لم تعيش في جو أسري آمن ومطمئن ، اذ ان حياة الشقاء وعدم الاستقرار في العلاقات الزوجية والتأثيرات الاجتماعية والبيئية - السلبية منها - كلها أسباب تؤدي الى اضعاف الدور المتوقع منها ، - وكذلك في انحرافها في توجيه الأبناء وتربيتهم .

ومن توجيه الأم لأولادها ما يكون حول أُسلوب حياتهم ونهج عملهم ، فقد لا توافق الأم على اسلوب ابنها في حياته او عمله فتوجهه توجيها غير مباشر إلى تغيير نهجه وعمله ومن ذلك ما قامت به ام الجاحظ عندما طلب منها طعاما فجاءته بطبق مليء بالكراريس قاعدة الانحراف بسبب عن العلم الى العمل من أجل توفير الأكل له ولها فذهب الجاحظ الى الجامع مفتما ولقيه مويس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء في الدرس ، فسأله ما شانك ؟ فحدثه حديث أمه فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين دينارا فأخذها ودخل السوق واشترى الدقيق وحمله الحمّالون الى داره وسألته أُمه من اين لك هذا ؟ فقال من الكراريس التي قدمتها اليّ .(١)

ومن التوجيه الهدام الذي من الممكن أن يؤدي الى ضياع الابن ما وجهته جلبان والدة ابي نواس الشاعر اذ وضعته عند عطار ليعمل عنده " ولما شبّ اسلمته امه الى بّراء يبرى البخور "(٢)فساهم عمله بالاضافة الى خلق امه الى انحرافه ومجونه ، هذا بالاضافة الى أن سيرة جلبان نفسها كان لها تأثير سلبي في توجيه ابنها ايضا . فقد ذكر ابن منظور أن أم ابي نواس "عجمة ، وكان لها بيت تتبادي فيه الغواني "(٣) .

ومن مظاهر حرص الأم على ابنتها تزينها وإلباسها أحسن اللباس وإغلاه عند الزواج .وقد كانت مثل هذه العادات شائعة آنذاك ، حتى ترتفع في عين زوجها وأهله - كما يقول الجاحظ - فقد ذكر في كتابه البخلاء قصة امرأة تدعى مريم الصناع ، تحايلت في توفير المال قال على لسان شيخ :

---

(١) طبقات المعتزلة ، احمد بن يحيى المرتضى ، تحقيق سوسنّة ديفلّد - فليزر بيروت - لبنان ، ١٩٦١ ، ص : ٦٨ .

(٢) اخبار ابي نواس ، ابن منظور شرح وضبط محمد عبد الرسول ابراهيم ، جمع ونشر عباس الشربيني مطبعة الاعتماد ١٩٢٤ ، ٦ .

(٣) اخبار ابي نواس ، ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" زوجت ابنتها - مريم الصناع - وهي بنت اثنتي عشرة سنة ، فحلتها بالذهب والفضة وكستها المروي والوشي والقز والخز وعلقت المعصفر ودقت الطيب ، وعظمت في عين الختن ورفعت من قدرها عند الأحماء . فقال لها زوجها أنى لك هذا يامريم.. قالت اعلم اني منذ ولدتها الى ان زوجتها كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة وكنا - كما قد علمت - نخبز في كل يوم مرة ، فاذا اجتمع من ذلك مكوك بعته ."(١)

ومن الأمهات اللواتي عرفن بحدبهن وحرصهن على اولادهن ، السيدة زبيدة فقد كانت حريصة أشد الحرص على ولدها الأمين ، وحرصها ذاك كان من أهم دوافع الخليفة هارون الرشيد بتوليته العهد رغم أن اخاه المأمون كان أكبر منه سنا . وهذا الحرص كان نابعا من حبها لابنها ورغبتها في تحقيق المجد له ، لذا كانت تراقب الوضع في كل ما يدور حولها وتطالب الرشيد بكل ما يمكن أن يفيد ابنها . ذكر المسعودي أنها دخلت عليه مرة " فقالت ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك الى عبدالله - المأمون - دونه " (٢).

فسلوك السيدة زبيدة سلوك طبيعي . اذ الأصل في علاقة الأمومة أنها لام حب وإيثار، وللابن بر ومودة، ويتوقع من الأم التي يكون ابنها خليفة أو مهيأ لأن يصبح خليفة أن تساعده في القيام بواجبه وتنصحه إن رأت أن هناك موضعا للنصح تدعيما لمركزه ، لكن أن تكون منافسة له على منصبه ،وانها تريد أن تستأثر بذلك دونه فهذا أمر غريب من هنا نستغرب موقف الخيزران التي عرف عنها حب السلطة وتقديمها اياها على واجبات الأمومة حتى اتهمت بتنفيذ مؤامرة ضد ابنها موسى الهادي . وعلى الرغم من اختلاف الروايات في ذلك الا أن محاولة الصاق التهمة بها دليل على ما كان يكتنف عاطفة الأمومة عندها من فتور وضعف .لقد تعرض المسعودي لذلك في كتابه مروج الذهب اذ يقول " كان الهادي كثير الطاعة لأمه الخيزران مجيبا لها فيما تسأل من الحوائج للناس وكانت المواكب لا تخلو من بابها .. فكلمته ذات يوم في أمر فلم يجد الى إجابتها فيه سبيلا . فاعتل عليها بعلة فقالت : لا بد من اجابتي ، وقال : لا افعل ، قالت : فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب الهادي وقال : ويلي على ابن .... ، لقد علمت انه صاحبها والله لاقضيتها لك ، قالت : والله لا أسألك حاجة أبدا،

---

(١) البخلاء ، عمرو بن بحر الجاحظ ،تحقيق وتعليق طه الحاجري ، دار المعارف، القاهرة ٥ ، ط ٦،ص : ٣٠

(٢) مروج الذهب ج ٤ ، ٣٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال والله لا أبالي ، وحمي وقامت وهي مغضبة ، فقال مكانك فاستوعبي كلامي.والله والا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو من خاصتي أو من خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التي تغدو الى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ اياك ثم اياك أن تفتحي فاك في حاجة لملي أو ذمي فانصرفت وما تعقل ما تطأ ، فلم تنطق عنده بحلو ولا مرّ بعدها " (١).

مما يلاحظ على هذه الرواية أن الخيزران كانت ترغب بالسلطة والسيادة رغبة كبيرة ، وكان غدو المواكب إلى بابها وتوسطها في تحقيق مطالب الناس سواء كانت معقولة أم غير معقولة مما يرضي رغبتها تلك ولم تكن تكتفي بدور الوسيط او الموجه لابنها بتنفيذ ما ترغب ، الا أنها كانت تضمن الحاجة لصاحبها مسبقا ، وهذا إن دلّ على أمر فإنما يدل على مقدار سطوتها وثقتها بتحقيق ما تريد ، وتصرف الخيزران هذا كان امتدادا لما تعودت عليه أيام المهدي الذي كان يكن لها حبا ويسمع لرأيها ومشورتها كثيرا ، فلما مات أرادت أن تتابع ذلك من خلال أبنائها . وهنا لا بد من الاشارة الى أمر يختص بالخليفة الهادي اذ لم يكن السبب الوحيد في محاولة منع أمه من استقبال المواكب هو ابعادها عن أمور السياسة فقط وإنما كان السبب أيضا هو ما قد عرف عنه من غيرة شديدة جعلته يرفض فكرة دخول الرجال على أمه والحديث بحديثها لذا فقد لا أستبعدمحاولة وضع سمّ لها على ذكر بعض الروايات (٢) ، اذ أحسّ بانها عبء عليه سياسيا بالاضافة الى ما كانت تسبب له من حرج في مجلس الخلافة لكثرة ذكرها والحديث بحديثها في حين كان هو يرى أن مكانها في بيت يصونها وعمل يشغلها ومصحف يذكرها . ولعل قوله عندما سألها عند الأرزة المسمومة التي أرسل بها اليها يؤكد ما أذهب اليه فقد ورد أنه قال : " كيف رأيت الأرزة ؟ فقالت : وجدتها طيبة ، فقال : لم تأكلي ولو أكلت لكنت استرحت منك متى أفلح خليفة له أم"(٣). ولعل

---

(١) مروج الذهب ج /٤ ص/ ١٨٦ وتاريخ الامم والملوك ج ٦ ص/ ٤٢١، ٤٢٢، تاريخ ابن خلدون مج ٣ ، ص ، ٤٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج/ ٦ ص/ ٤٢٢ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك ج ٦ / ٤٢٢ ، وتاريخ ابن خلدون مج ٣ ، ٤٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الانصاف للأمومة أن أتم كلام الخليفة الهادي بكلمتين : متى أفلح خليفة له أم مثل الخيزران تنافس ابنها في منصبه وتريد الاستئثار به دونه .

هذان نموذجان متناقضان للامومة في الواقع العباسي : أحدهما سام يؤثر الولد على كل شيء في الحياة ، والآخر نفعي يضحي بالولد في سبيل مغنم حياتي زائل ، واذا ما تتبعنا الأمومة في الشعر وجدناها من النوع الأول فقط كما سنرى فيما يلي من نماذج .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد قل شعر الأمهات في أبنائهن كثيرا في هذا العصر ، ولعل ذلك راجع فيما أرى الى سببين أولهما : أن شعر النساء كعادته في كل عصر يقل كثيرا عن شعر الرجال ، وثانيهما : أنّ كثيرا من شاعرات هذا العصر كنّ من الجواري اللواتي لم يكن لأكثرهن فيما يبدو لي ، اهتمام كبير بالأسرة ونواحيها ، ولعل هذا راجع الى وضعهن في العصر بالاضافة الى طبيعتهن واهتمامهن كما اتضح في الحديث عنهن في الفصل الأول .

ولم أعثر فيما وقعت عليه من شعر على قصيدة متكاملة سوى قصيدة لاعرابية قالتها في رثاء ابنها جاءت على لسان المفضل الضبي بالاضافة الى مقطعات قصيرة للسيدة زبيدة قالتها في رثاء ابنها الأمين ، وحتى هذه المقطعات مشكوك في نسبتها اليها (١) الا أنها تحمل روح الأمومة وبعض مشاعرها .

ومما قالته الاعرابية في أسفها على موت ابنها ووصف عجزها عن الصبر : -

يا عمرو مالي عنك من صبر ... يا عمرو يا أسفي على عمرو
لله يا عمرو وأيّ فتى ... كفّنت يوم وضعت في القبر
أحثو التراب على مفارقه ... وعلى غضارة وجهه النضر (٢)

فالأم تحس بالعجز عن الصبر على مصابها في ابنها الذي مات وكفنته بيديها ووضعته في القبر وأهالت عليه التراب . لقد كانت تحرص عليه كل الحرص من قبل وتحميه بعقلها وقلبها من كل مكروه قالت :

ربيّته دهرا أفتقه ... في اليسر أغذوه وفي العسر
حتى اذا التأميل أمكنني ... فيه قبيل تلاحق الثغر
وجعلت من شغفي أنقلّه ... في الأرض بين تنائف غبر
أدع المزارع والحصون به ... وأحلّه في المهمه القفر
ما زلت أصعده وأحدره ... من قتر موماة الى قتر
هربا به والموت يطلبه ... حيث انتويت به ولا أدري
حتى دفعت به لمصرعه ... سوق المعيز تساق للعتر

---

(١) يقال ان هذه الابيات قالها أبو العتاهية على لسان السيدة زبيدة ، العقد الفريد ج ٣ ص : ٢٦١.

(٢) زهر الآداب شرح علي محمد البجاوى ، دار احياء الكتب العربية ط٢/١٩٦٩ ج ١ ، ص ٤٠٨ .

(٣) زهر الآداب ج ١ ، ٤٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمشاعر الأم تبرز جلية من الأبيات ، كما يبرز نهجها في تربية ابنها فهي تجهد نفسها في اطعامه والرفق به وحمله معها من مكان الى آخر حتى تجعل منه ابنا كما تحب وتتمنى أن تراه ولكي تحميه من كل ما يمكن أن يصيبه راحت ترعاه وتبقيه الى جانبها وأمام عينيها ، ولكن هذا كله لم يمنع عنه الموت الذي كان جادا في طلبه حتى استطاع أن يخطفه من بين يديها وفي وقت عجزت فيه عن أن تقاوم سطوته المخيفة .

اذ راعني صوت هبت به ... وذعرت منه أيّما ذعر
وإذا متّيته تساوره ... قد كلحت في الوجه والنّحر
وإذا له علق وحشرجة ... مما يجيش به من الصّدر
والموت يقبضه ويبسطه ... كالثوب عند الطي والنشر
فدعا لأنصره وكنت له ... من قبل ذلك حاضر النصر
فعجزت عنه وهي زاهقة ... بين الوريد ومدفع السّحر (١)

ففزع الأم ورعبها اثر سماعها صوت نزع ابنها لم يفد في شيء اذ وقفت عاجزة لا تستطيع فعل شيء في حين كانت دائمة الحضور لأي نداء أو استغاثة منه إنه الموت القاهر الذي تعجز عنه كل قوى البشر هو الذي أضعفها وأعجزها عن تلبية نداء ابنها الحبيب الى قلبها لم يفت الأم أن تبكي أماني ابنها التي كانت تتأملها وقومها منه لقد ذهبت كل هذه الأماني بوفاته لهذا قالت :

حين استوى وعلا الشباب به ... وبدا منير الوجه كالبدر
ورجا أقاربه منافعه ... ورأوا شمائل سيّد غمر
وأهمّه همّي فساوره ... وغدا مع الغادين في السّفر
تغدو به شقراء سامية ... مرطى الجراء شديدة الأسر
ثبت الجنان به ويقدمها ... فلج يقلّب مقلتي صقر (٢)

فهو قد مات في أول الشباب بعدما بدأت تلمح فيه مخايل الرجل الذي سيسود قومه وبعدما بدأت ترى ملامح جماله ومظاهر خلقه الكريم وشجاعته وفروسيته .

ولكن هذا كله لم يكن ليعيد ابنها الذي افتقدت ولم يبق لها بعده سوى الصبر والتعزي : —

---

(١) زهر الآداب ج ١ ، ٤٠٩ .
(٢) المصدر السابق ، ٤٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يبعدنك الله يا عمري ... اما مضيت فنحن بالأثر
هذي سبيل الناس كلهم ... لا بدّ سالكها على سفر
اولا تراهم في ديارهم ... يتوقعّون وهم على ذعر
والموت يوردهم مواردهم ... قسرا فقد ذلّوا على القسر (١)

فالأم تحاول خلق التعزي في داخلها بأن الموت هو سبيل الناس كلهم ولا بد أن يأتيهم واحدا تلو الآخر ، لذا فهم يتوقعونه ويحيون حياة ذعر دائمة ، ولكن هذا ايضا لا يمنعهم منه وهو يأتيهم قسرا . فهي تحاول اقناع نفسها بهذه الفكرة لعلها تسلو ابنها وتعزي نفسها عنه ، إن القصيدة تبدو كأنها قطعة من قلب هذه الاعرابية انتزعتها بمشاعرها انتزاعا قويا ، فهي تمثل وله الأم وخوفها وحرصها على ابنها في حياته كما تمثل فجيعتها ولوعتها ويأسها بعد وفاته .

أما السيدة زبيدة فتحس باليأس من ابنها بعدما قتل فتقول : -

أودى بالفك من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتوَلك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدنَ له ... أصبن منه سواد القلب والراسا
فبت مكتئبا أرعى النجوم له ... أخال سنته بالليل قرطاسا
والموت دان له والهم قارنه ... حتى سقاه الذي أودى به الكاسا
فليس من مات مردودا لنا أبدا ... حتى يردّ له من قبلنا ناسا
رزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر آساسا (٢)

فالأم تحاول أن تجد طريقها الى السلوى بأن من أودى بابنها هو الموت الذي لن يترك احدا ، لذا عليها والحال هذه أن تسلاه وتتعزى عنه . وتصف مشاعرها ازاء حدث قتل ولدها فتؤكد أن المصاب وقع منها في الصميم وهي تعاني القلق لمصابها وخسارتها به والاكتئاب حزنا عليه ويأسا من رجوعه خاصة انها تعلم أن رحلته الأبدية هذه لا عودة له منها ، مثله مثل الآخرين الذين ذهبوا ولم يعودوا .

وتعرض الأم لأمر هو من خصائصها واهتماماتها ، اذ قد تتعب كثيرا وتضحي كثيرا من أجل ان ترى ابنها اصبح رجلا ناجحا فيه من الصفات الحميدة

---

(١) زهر الآداب ج ١ ، ٤١٠
(٢) مروج الذهب ج ٣ ، ٢٩٦ - ٢٩٧ ، وشاعرات العرب ، ٢١٣ مع اختلاف في بعض المفردات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما يطمح اليه كل انسان ، وهكذا فعلت ولكنها اصيبت به عند بلوغه ما تمنت أن تراه فيه ، وعندما أصبح رجلا تباهي به الرجال كما تقول . ولعل هذا كله مما يؤكد عظم خسارتها به ، وبالتالي شدة حزنها وألمها لفقده .

وقد وصفت السيدة زبيدة حالتها بعد ابنها فقالت في كتاب ارسلته الى الخليفة المأمون : -

كتبت وعيني مستهل دموعها ... اليك ابن عمي من جفون ومحجر
وقد مسّني ضير وذل كآبة ... وأرّق عيني يا ابن عمي تفكّري
وهمت لما لاقيت بعد مصابه ... فأمري عظيم منكر عند منكر
سأشكو الذي لاقيته بعد فقده ... فأنت لبيتي خير ربّ معمّر (١)

فالأم تعرض لحالها ، وما أصابها بفقد ولدها من ضرر وذل حال بالاضافة الى القلق والسهر لتفكيرها في مصيرها بعده ، خاصة وأنه بمكانة تؤهله لأن يوفر لها كل حماية ويعطيها قدرا كبيرا من القوة ، مما أحسها بعظم المصاب وقيمة الخسارة . ومما يلاحظ على هذه الأبيات أن الذي شغل الأم تفكيرها في نفسها وفيما سيؤول اليه حالها فبدا اهتمامها بهذه الأمور أكثر من اهتمامها بأي أمر آخر ، ولعل طبيعة الحادثة نفسها التي ذهب فيها ابنها هي التي فرضت هذا الاهتمام ويضاف الى هذا أن اولئك الذين يكونون في مستوى اجتماعي ومادي كبير ، يدور تفكيرهم أول ما يدور حول كيفية المحافظة على هذا المستوى ويتخوفون كثيرا من ذهابه ، ولعل هذا نفسه ما كان يشغل بال السيدة زبيدة ، اذ نراها تسارع في ارسال الرسائل بعد وفاة ابنها الى الخليفة المأمون ، تطلب منه حمايتها واسترجاع ما أخذه الجند منها . قالت : -

أتى طاهر لا طهر الله طاهرا ... فما طاهر فيما أتى بمطهّر
فأخرجني مكشوفة الوجه حاسرا ... وأنهب اموالي وأخرب ادوري
يعزّ علي هارون ما قد لقيته ... وما مرّ بي من ناقص الخلق اعور
فان كان ما أبدى بأمر أمرته ... صبرت لأمر من قدير مقدّر
تذكر اميرالمؤمنين قرابتي ... فديتك من ذي حرمة متذكّر (٢)

وسواء كانت هذه القصيدة للسيدة زبيدة أم أنها منظومة على لسانها فإنها تصور بطريقة أو بأخرى ما كان يدور بخلدها بعد وفاة ابنها الأمين وتولي اخيه المأمون الخلافة مكانه ، أو ما كان من الممكن أن يدور في خلد أي أم فجعت بمثل فجيعتها .

---

(١) شاعرات العرب ، ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : شعر الابناء في الأمهات

لقد قل الشعر المباشر للأبناء في الأمهات في هذا العصر اذ كان الذين رثوا امهاتهم او ذكروهن في اشعارهم قلة ، ولعل السبب في ذلك يعود الى تلك النظرة التي كانت تتعمق نفوس الشعراء العرب في هذا العصر الذي ابتعدوا فيه عن ذكر الحرم في اشعارهم الا قليلا في رثاء أو غيره . سواء كانت الحرم امهات أم بناتا أم اخوات أم زوجات وكان ذلك حرصا على عدم كشف ما يخصهن من امور ودفعا لكل شبهة من الممكن أن تلحق بهن فقد زاد الاهتمام بهذه القضايا باعتباره عصر الحجاب الذي فرض على المرأة الحرة لتميزها عن الجارية ولحمايتها مما يمكن آن يلحقها من جرّاء تهتك بعض المتهتكين من الشعراء والمجان . ولكن الشعراء مع عدم اكثارهم من القول المباشر في الأمومة ، قد وضح تأثرهم العميق بفكرة الأمومة وتعمقها عقولهم ومشاعرهم حتى بدت واضحة من خلال اشعارهم في هذه العلاقة ، ومن خلال وصفها والتمثل بها كما سيظهر تاليا :

وضحت صفة الحرص عند الامهات في الشعر كثيرا ، مما جعلها مثلا يعرض له الشعراء في حديثهم عن أمور كثيرة بالاضافة الى اهتمامهم بها على أساس أنها صفة قائمة في علاقاتهم المباشرة مع أمهاتهم . قال علي بن الجهم يصف سحابة : -

وسارية ترتاد أرضا تجودها ... شغلت بها عينا قليلا هجودها
أتتنا ريح الصّبا وكأنها ... فتاة تزجّيها عجوز تقودها
تميس بها ميسا فلا هي ان ونت ... نبهتها ولا هي ان اسرعت تستعيدها
اذا فارقتها ساعة ولهت بها ... كأم وليد غاب عنها وليدها (١)

فالشاعر يصف العلاقة بين السحابة والريح فيراها علاقة وطيدة لا تستطيع الريح مفارقة السحاب ، وهي لها كالعين لا تغفل عنها بنوم أو غيره وهي تسايرها في سيرها ولا تفارقها ، وإن فعلت وفارقتها لحظة تصبح والهة بها مثل وله أم بوليدها الذي غاب عنها فلا تستطيع له فراقا ولا تطيق عنه بعادا ، وإن فعلت مضطرة تبقى مشغولة به ، بفكرها وقلبها ، وهذا ما يدل على شدة الترابط بين الام وابنها ، وقد خص الشاعر الوليد بالذكر ، اذ تكون

---

(١) ديوان علي بن الجهم ، تحقيق خليل مردم بيك ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت لبنان ط ٢ ، ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلاقة بينه وبين امه أكثر ترابطا لطبيعة الحاجة الى الأم مما يزيد في قوة العلاقة بينهما . ولعل استعمال الشاعر لكلمة (الوله) يدل على مقدار الشغف والحرص من الأم لابنها الصغير .

وقد يشكل مثل هذا الحرص بعض الثقل على الابن عندما يكبر، خاصة إن بالغت الأم في حدبها وحرصها عليه قال ربيعة الرقي في هذا الأمر : -

وبلائي أنّ أمّي ... أثقلتني بإزاري
فإذا ما قمت أمشي ... همّ خصري بانبتار
كلّ ذا أحمل وحدي ... أين امي من فراري
أمنا هذا ، وربي ... حمل برذون بخاري
أمنا لست ببرذو ... ن ، ولا بغل مكاري (١)

فالأم تبدو كثيرة الحرص على ابنها تحاول أن تقيه من البرد بأن تثقل عليه لباسه ، ولكن هذا كان يثير الابن الذي يحس بثقل لباسه الذي يكاد يبتر خصره ، ويخاطب أمه قائلا إن ما تلبسه اياه يكاد يكون حمل برذون ، وهو ليس ببرذون ولا ببغل حتى يحتمله على حد قوله .

والأم هي مصدر رحمة لابنائها لذا فهم يرجعون اليها عندما يحسون بضيق وخوف ، ولا يكون ذلك الا لاحساسهم بقوة الرابطة التي تربطهم بها وتربطها بهم ، فالرحمة الدافئة والحنان الدافق من السمات المميزة للعلاقة التي تربط الأم بأولادها ، فقد ذكر أن الرشيد امتحن ابراهيم بن نهيك في حبه للبرامكة فذكر ابراهيم حبه لهم وخطأ الرشيد في قتله اياهم ، فقال له الرشيد : قم عليك لعنة الله يا ابن ... فقام لا يعقل ما يطأ ، فانصرف الى امه فقال : يا أمّ ذهبت والله نفسي ، قالت كلا إن شاء الله وما ذاك يا بني ، قال ذاك ان الرشيد امتحنني بمحنة والله لو كان لي ألف نفس لم انج بواحدة منها ... (٢) .

ومن صور رحمة الأم بابنائها ومعارضتها لقسوة الأب عليهم ما روي عن أم بشار بن برد قولها لوالده : اما ترحم هذا الصبي الضرير وانت دائم

---

(١) شعر ربيعة الرقي ، جمع وتحقيق د. يوسف بكار ، دار الاندلس للطباعة والنشر ط ٢ ، ١٩٨٤ ، ص : ٩٩ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ، ٥٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الضرب له "(١) وقد كان ابوه يضربه ضربا مبرحا بسبب تعرضه للناس بالهجاء المقذع فيشكونه له .

ومن ذلك ما قاله علي بن الجهم في كتاب ارسله الى امه عندما حبسه أبوه في الكتّاب : -

يا أمتا أفديك من آم ... أشكو اليك فظاظة الجهم
قد سرّح الصبيان كلهم ... وبقيت محصورا بلا جرم (٢)

فالشاعر الابن يشكو الى أمه قسوة أبيه اذ حبسه في الكتّاب وسرّح الصبيان ، وهو يأمل أن تحقق له العفو عنده ، وما كان الشاعر ليفعل ذلك لولا احساسه بحب أمه له وحرصها على راحته ، هذا أمر ، والأمر الآخر أن الشاعر يشير الى بعض الادوار التي يقوم بها الأبوان في تربية أبنائهم حيث تكون الأم للرحمة ، ويكون الأب للشدة وذلك حسب ما تقتضيه طبيعة كل منهما .

وقد عرف عن الأم التضحية والفداء لأبنائها فتناول الشعراء هذا المعنى ، وكان مجالا خصبا لتشبيهاتهم وصورهم . قال أبو نواس : -

وقانص احفى به من أمّه ... لو يستطيع فناته بلحمه
ما زال في تقديمه ونهجه ... يوحي اليه كلمات علمه
يقيه من برد الندى بكفّه ... توقية الأمّ ابنها في ضفّه
وما يلذ انفها من شمّه ... بنازل المكّاء عند نجمه (٣)

فأبو نواس يصف اهتمام القانص بصيده فيشبهه باهتمام الأم بابنها الذي تطعمه باهتمام كبير وتحرص على أن يأكل أفضل الطعام ، وهي تبذل في ذلك جهدا كبيرا ، ويصور الشاعر مقدار اهتمامها بأنها لا تدخر جهدا في اطعامه ورعايته وحمايته من كل ما يمكن ان يؤذيه ، كالبرد وغيره ، وهي تفعل ذلك دونما ملل أو تعب وكذلك يفعل القانص الذي يهتم بصيده اهتماما كبيرا خاصة بطعامه حتى انه لو استطاع ان يطعمه من لحمه لفعل حتى يغدو صيدا سمينا تماما كما تفعل الأم مع الاختلاف الكبير بين غاية كل منهما من هذا الاهتمام .

---

(١) الأغاني ج ٣ ، ٢٠٢
(٢) ديوان علي بن الجهم ، ١٨٠
والاغاني ج ١٠ ، ٢١٧
(٣) ديوان أبي نواس تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي ، نشر الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، ط ١٩٨٢. ص : ٦٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يكون اهتمام الأم بأبنائها الصغار فقط، بل يكون بالكبار منهم أيضا، وتختلف درجة هذا الاهتمام من مناسبة إلى أخرى ، وقد ورد لبعض الشعراء شعر في هذا يصور جزءا من صورة الأسرة العباسية وبعضا من اهتماماتها : قال سوّار القاضي .

فبابك أيمن ابوابهم وداركَ ماهولة عامرة
وكفك حين ترى المجتدين ن أندى من الليلة الماطرة
وكلبك آنس بالمعتفين من الأم بابنتها الزائرة (١)

فالشاعر يعرض لصورة من صور اهتمام الأم بأبنائها ، وقد خص الابنة المتزوجة والتي تأتي لزيارة أهلها ، وهنا يبرز دور الأم بشكل خاص أكثر من غيرها في الأسرة حيث تهتم كثيرا وترحب بها كثيرا .

وليس الحب والاهتمام فقط هما من ميزات الأم التي تنبّه اليها الشعراء اذ تطرق بعضهم الى مثاليتها في التسامح مع أبنائها فكان ايضا مضرب مثل عند بعضهم : -

قال بشار بن برد : -

قد وعدت والوعد كالكتاب فأنت للأدنين والجناب
كالأم لا تجفو على العتاب فامضها من بحرك العباب (٢)

فالأم لا تجفو أبناءها أبدا ، مهما بدر منهم وهي تحتمل منهم العتاب دونما غضب او جفاء وبصدر واسع وقلب عطوف .

ونتيجة لهذه النظرة المثالية، رأى كثير من الشعراء أن للأم مهمة يجب أن تقوم بها وهي رعاية اولادها رعاية شاملة ، وإن هي أخلّت بشيء من هذه الرعاية تكون قد تخلت عن مهمتها أما، لذا جعل الشعراء مثل هذا الموقف صورة يشبهون بها من يتخلى عن مهمته الأصلية الى أخرى .

قال ابن هرمة : -

وإني وتركي ندى الأكرمين وقدحي بكفيّ زندا شحاحا
كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض اخرى جناحا (٣)

---

(١) العقد الفريد ج ١ ، ٢٤٣ .
(٢) ديوان بشار بن برد ج ١ ، ١٦٨.
(٣) كتاب الصناعيتين ، تصنيف ابي هلال العسكري ، تحقيق مفيد قميحه ،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط ٢ ١٩٨٤ ، ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترك الأم أولادها لترعى أولاد اخرى أمر قلما يحدث ، وإن حدث فيكون أمرا غير طبيعي ، اذ إن الأم لا يمكن أن تتخلى عن صغارها ، لترعى صغار غيرها سواء كانت أما من بني البشر أم من غيره ، فالطيور وغيرها من واضعات البيض ترعى بيضها حتى يخرج صغيرها ، وهي منذ مرحلة وضع البيض ترعاه وتهتم به ولا تتركه ،وقد رأى الشاعر ان هذه صورة قريبة وواضحة لمن يتحدث عنه اذ لا يمكنه أن يترك كرم الكرماء ويذهب الى غيرهم تماما كالأم التي لا يمكنها ترك صغارها لترعى صغار غيرها .

وقد قال ابو تمام في معنى قريب من هذا المعنى : -

كمرضعة أولاد اخرى وضيعت بنيها فلم ترقع بذلك مرقعا (١)

فالوضع الطبيعي للأم المرضعة هو ارضاع أبنائها ، وهي إن تركت مهمتها هذه لترضع أولاد غيرها تضع نفسها في وضع غير طبيعي ، والأم التي تفعل ذلك تضيع بنيها ، ولن يفيدها ارضاع أولاد غيرها شيئا مع إضاعة بنيها .

ولعل أكثر الصور تكرارا واهتماما عند الشعراء هي صورة الأم الثكلى، اذ كانت مدار اهتمامهم وملء خيالهم عند حديثهم عن الحزن والجزع .
قال البحتري في صديق له :

إني لباك عليه ما طرفت عين وما فاض دمعها السرب
بكاء محزونة على ولد لم يفن منها الاشفاق والحدب (٢)

فالشاعر يشبه كثرة بكائه وغزارة دموعه على صديقه بصورة الأم الثكلى التي لم يكن حدبها واشفاقها على ابنها في منع القدر أن يطاله ، لذا فهي دائمة البكاء ومجددة لدفق الاحزان على مرّ الأيام .

وكتبت احداهن الى اسحق الموصلي تقول : -

وجدي بجمل على أني أجمجمه وجد السقيم ببرء بعد ادناف (٣)
او وجد ثكلى اصاب الموت واحدها او وجد مغترب من بين آلاف (٤)

---

(١) الصناعتين ، ١٣٨
(٢) ديوان البحتري ج ١ ص ٣٤٤
(٣) اكتمه واخفيه
(٤) الأغاني ج ٥ ، ٣٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس الحزن والبكاء فقط من صفات الأم الثكلى ، وانما أضافت الشاعرة لهـــا صفة الوجد . بل جعلت وجدها مثالا يقاس عليه لذا شبهت وجدها بحبيبهـــا بوجد الأم الثكلى ، بما فيه من وله وحرقة قد يصحبها انكسار ويأس لعظـــم المصاب .

أمّا أبو تمام فقد صور وجده بوجد أم ترى ابنها يصارع الموت وتقـــف حائرة لا تدري ماذا تفعل قال : -

والله لو تدري بما ألقـــى ... لحرجت ان تتجاوز الحقّـــا
بي فوق ما تلقى بواحدهـــا ... أمّ تراه لجنبها ملقـــى
تبكي لمنهوش تنيّبـــه ... صلّ فما يرجى ولا يرقـــى
فارحم شقيا في هواك فمـــا ... يبغي وان اعتقته عتقـــا (١)

فالشاعر يصور وجده بحبيبته بوجد أم ترى ابنها ملقى الى جانبها يصـــارع الموت من جراء لدغة أفعى . وتقف حائرة لا تدري ماذا تفعل ، وهي تعانـــي في هذا كله القلق الشديد مصحوبا بحزن شديد .

وكان التعاطف مع الأم جانبا معبرا من جوانب الحب الذي يربـــط بين الابن وأمه ويكون ذلك من خلال مشاركة الابن للأم في مشاعر الحزن والفـــرح، لقد كان مثل هذا الشعور متمثلا عند ابن الرومي بعد وفاة خالته ، اذ قـــال يصف شعوره وشعور امه تجاه الموقف : -

أراني وأمي فقدان اختهـــا ... وان كنت في رفه بها وصـــلاح
كفرخ قطاة الدوّ بان جناحهـا ... فبات الى حصن بغير جنـــاح (٢)

فالشاعر يصف عمق الخسارة التي لحقته وأمه بوفاة خالته. والذي يبدو أنـــه كانت تربطهما بها صلة قوية ، وعند وفاتها شعرا بفقدان كبير لها وخســـارة فادحة ، وهو يشبه حالهما بحال صغير القطا الذي بان جناحه ، فأصبح لا يقـــدر على الطيران او الحركة الطبيعية ، مما جعله يلجأ الى مكان يؤويه .هكـــذا كان حال الشاعر وأمه فقد فقدا نصيرا ومحبا ومعينا لهما ، مما جعلهمـــا يشعران شعور ذلك الطائر .

---

(١) ديوان ابي تمام ج ٤ ، ٢٤٤
(٢) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٥٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحاول الشاعر أن يعزي نفسه وأمه بأن ما حدث لهما بوفاة خالته أمر مقدر لا بد من حدوثه اذ اصاب ويصيب جميع الناس ، فهذه الدنيا ليست بدار اقامة : -

ألا ليست الدنيا بدار فلاح بعينك مرعاهما مساء صباح
لنا من كلا العصرين ساق كلاهما بدور فيسقينا بكاس ذباح (١)

فالدنيا بنظره ليست دار خير وليست دار اقامة ، فسرعان ما يخطف الموت أصحابها ويذهبهم وكأنهم لم يحيوا فيها أبدا ، لذا لا يندم عليها ولا يأسف لها ويرى ان ما اصاب خالته أمر اصاب ويصيب الناس جميعا .

والفخر بالأم باب آخر طرقه بعض شعراء العصر العباسي ،ومنهم أبو شراعه الذي يقول مفتخرا بأمه : -

أنا ابن العنبرية ازرتني إزار المكرمات ازار خالي
فإن يكن الغنى مجدا فإني سأدعو الله بالرزق الحلال (٢)

فالشاعر ينسب نفسه الى أمه ويفخر بهذه النسبة ، ويوضح اثرها على نفسه ومستقبله فأ مه قوّته ودعمته بالخلق الكريم الموروث الذي يراه منها وفي خاله وعلى هذا فهو مدفوع لمتابعتهما في هذا ، لذلك يسلك الى رزقه طريق الحلال ولا يرضى بطريق آخر سواه ، فاذا كان المال هو الذي يجلب للانسان مجدا ، فإنه يدعو الله أن يكون مجده في الرزق الحلال .

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٥٤٠ .
(٢) الاغاني ج ٢٣ ، ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الشعراء من فجع بأمه فرثاها رثاء حارا ابرز فيه موقفه من الحدث ، ومشاعره تجاه من ربته ورعته ، فعبر بذلك عمّا يكنه لها من حب وتقدير وعن مدى خسارته برحيلها عنه ، ولكني لم اعثر الا على نموذج شعري واحد لابن الرومي يمكن ان يعطينا فكرة عن تصوير الشعر لهذه الناحية .
قال ابن الرومي في رثائه لأمه يحث عينيه على إفاضة الدمع لتعطي مصابه حقه : -

أفيضا دما انّ الرزايا لها قيم فليس كثيرا ان تجودا لها بدم
ولا تستريحا من بكاء الى كرى فلا حمد مالم تسعداني على السأم (١)

فمصابه عظيم اذا فجع بأمه وما أفاضة الدموع الا لاعطاء هذا المصاب حقه وهو لا يتوقع من عينيه ان تبكياها بدمع عادي مثلما بكت غيرها من الناس وإنما يريد منهما أن تبكياها بدمع غزير فهي تستحق ذلك واكثر ، وليس كثيرا ان تجودا لها بالدم بدل الدموع . وليست الدموع وحدها هي كل ما يتوقعه الشاعر من عينيه وفاء لأمه الحبيبة الى نفسه ، وإنما يحثهما على السهر وعدم اللجوء الى النوم بعد البكاء ففي سهرهما اسعاف له على الخروج من السأم القاتل . إنه يخاطبها مخاطبة الصديق لصديقه وقد أكد الشاعر حاجته الى البكاء والعزاء في مواضع أخرى من القصيدة ، اذ قال : -

أيا موت : ما أسلمتها لك طائعا هواك ، فمالي زفرتي زفرة الندم
سابكي بنشر الدمع طورا وتارة بنظم المراثي دائم الحزن والوكم
وتسعدني نفس على ذاك سمحة بما نثر الشجو الدخيل وما نظم
لأنفي نومي لا لأشفي غلّتي على أن عيني مذ فقدتك لم تنم (٢)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٢٢٩٩
(٢) المصدر السابق ج ٦ ، ٢٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يبدو حزينا متألما على موت أمه ، وهو في الوقت نفسه يؤكد عجزه عن مقاومة الموت الذي انتزعها منه ، لذا لا يجد له سلوة الا في نثر الدموع تارة وفي نظم المراثي تارة أخرى . ويحاول الشاعر هنا أن يعوض عجزه عن مواجهة الموت بما يمكنه فعله من البكاء والرثاء ويعينه على تحقيق ذلك نفس سمحة سخية بالدمع كثيرا . إنه لا يفعل هذا لشفاء غلة أو لتحقيق راحة ما ، ولكنه يفعله من أجل ابعاد النوم عن عينيه التي لم تنم فعلا منذ فقد أمه .

ويصور الشاعر حياته بعد أمه خليطا من الحزن والدموع قال : -

ويا لذة العيش التي كنت أرتضي ... تقطّع ما بيني وبينك فانصرم
رميت بخطب لا يقوم لمثله ... شروري ولا رضوى ولا الهضب من خيم
بأنكر ذي نكر وأقطع ذي شبا ... وأمقر ذي طعم وأوخم ذي وخم
رزيئة أمّ كنت أحيا بروحها ... واستدفع البلوى واستكشف الغمم (١)

فقد انقطع الوصل بينه وبين كل لذة بعد وفاة أمه اذ لا يمكن الجمع بين الحزن واقتراف اللذائذ ،وهو لا يرى في ذلك كثيرا بالنسبة لمصابه ، اذ أصيب بمصاب فادح منكر لا يستطيع حمله أحد مهما بلغ من القوة والعظمة فقد توفيت أمه التي كان يحيا بروحها ويستدفع البلوى بها ، ويبعد عن نفسه الغم بوجودها الى قربه وبدعائها الدائم له .

ويؤكد الشاعر أن فقده أمه فقد من نوع خاص فيقول : -

أقول وقد قالوا: أتبكي كفاقد ... رضاعا وأين الكهل من راضع الحلم
هي الأم يا للناس جرّعت ثكلها ... ومن يبك أمّا لم تذم قط لا يذم
فقدت رضاعا من سرور عهدتها ... تعللنيه فانقضى غير مستتم
رضاع بنات القلب بان ببينها ... حميدا وما كل الرضاع رضاع قم
الى الله اشكو جهد بلواي انه ... بمستمع الشكوى ومستوهب العصم
واني لم ايتم صغيرا وانني ... يتمت كبيرا اسوأ اليتم واليتم
على حين لم الق المصيبة جاهلا ... ولا آهلا والدهر دهر قد اعتزم
اقاسي وصنوي منه كل شديدة ... تبرّح بالجلد الصبور وبالبرم (٢)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٢٢٩٩ - ٢٣٠٠ .
(٢) المصدر السابق ج ٦ ، ٢٣٠٠ - ٢٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يرد على العاذلين الذين يستغربون كثرة بكائه وشدة حزنه وكأنه طفل رضيع بحاجة دائمة الى أمه فيقول : بأن الرضاع أنواع ورضاعة الذي افتقده هو رضاع سرور كانت تدفعه اليه ، فقد كانا صديقين يحب أحدهما الآخر ، اذ كانت أما عظيمة في خلقها وفي أمومتها وهي لم تذم قط ، وكانت تقدم لابنها كل ما يجلب له السرور والسعادة ، وقد فقد بفقدها أغلى مما يمكن ان يفقده الابن الرضيع . فرضاعه هو نوع خاص من الرضاع ربما كان أهم بكثير من رضاع الفم،لذا فإن فقده لها كان كبيرا وبلواه بها كانت عظيمة لا يمكن دفعها ولا تجاوزها الا بمعونة من الله تعالى . وهو يصور عمق بلواه ومصابه وضعفه ازاءه من خلال حواره التالي : -

خليليّ: هذا قبر امي فوزّعا ... من العذل عني واجعلا جابتي نعم
فما ذرفت عيني على رسم منزل ... ولا عكفت نفسي هناك على صنم
خليليّ رقا لي ،أعينا اخاكما ... نشدتكما من ترعيان من الحرم
أمن كرى الشكوى تملأني جزتما ... سبيل اغتنام الحمد والحمد يغتنم
فكيف اصطباري للمصاب وانتما ... تملأن شكواه وفي جانبي تلم
عجبت لذي سمع يمل شكايتي ... ويعجب من صدر يضيق بما كظم
ألا ربّ أيام سحبت ذيولها ... سليما من الأرزاء املس كالرّلم
أرشح آمالا طوالا وأجتني ... جنى العيش في ظل ظليل من النّعم
ولو كنت أدري أنّ ماكان كائن ... لقمت لروعات الخطوب على قدم (١)

فهو يؤكد أن اعتكافه على قبر امه وبكاءه ليس كثيرا فهو لم يجلس الى صنم ولم يبك طلالا قط ولكنه بكى قبر أمه الحبيبة الى نفسه والتي فقد بفقدها الكثير. وأقل ما يمكن فعله تجاهها هو البكاء والجلوس الى قبرها ، وهو في هذا كله يبدو ضعيفا أخذ الوهن منه كل مأخذ ويأمل من أصدقائه أن يعينوه ويرقا له ويعذراه على ما يفعل بدلا من اظهار الملل والضيق من شكاياته وزفراته ، وهو يتعجب من مللهما للشكوى وضيقهما منها ، في حين هما يعجبان من صدره الذي يكاد ينفجر بما يحمل من ألم وحزن ، وهو في هذا كله يتذكر أيامه الخوالي التي مرت ناعمة خالية من كل ألم وحزن ليس فيها الا الآمال العظيمة والعيش الظليل دونما توقع او عمل حساب لما يعانيه الآن ، ولو كان يعلم بامكانية حدوث ما حدث لهيأ نفسه له لكان وقع المصاب عليه أهون ولكان أقدر على تجاوزه .

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٢٣٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف الشاعر نفسه بعد امه وما آل اليه حاله فيقول :-

نبا ناظري يا أمّ عن كل منظر ... وسمعي عن الأصوات بعدك والنغم
وأصبحت الآمال مذ بنت والمنى ... غوادر عندي غير وافية الذّمم
وصارمت خلاني وهم يصلونني ... وقد كنت وصّال الخليل وان صرم
وآنسني فقد الجليس وأوحشت ... مشاهده نفسي ولم أدر ما اجترم
سوى أنه يدعوالى الصبر واعظا ... فان لجّ ما بي لجّ في العذل او عدم
ولو أنني جمّعت وعظي ووعظه ... ليشعب صدعا في فؤادي لما التام (١)

يصف الشاعر حياته بعد أمه بالتعاسة والشقاء ، اذ لم يعد يرى جميلا ولا يحس بسعادة فالآمال والأماني أصبحت بعدها معلقة وبات يعيش وحيدا عن أهله وأصدقائه بعدما صارت كالسهم موحشة وأحاديثهم ثقيلة على نفسه وذلك لاحساسه بالتعاسة والرغبة في الوحدة ، وهو وإن جالسهم لا يكون لهم سوى الحديث عن الصبر والوعظ او العذل إن لجّ هو في الحزن والبكاء . ويبدو الشاعر ضائقا بوعظ أصدقائه وحثهم اياه على الصبر لأنه وحده الذي يفيد في لملمة احزانه او لأم جرح قلبه .

وقد شارك الشاعر حزنه على أمه كل ما حوله بما في ذلك الارض والجبال والسحاب والريح وغيرها ، فحزنه موزع حتى صار أحزانا . قال :

فقدناك فاسودّت عليك قلوبنا ... وحقّت بأن تسودّ وابيضّت اللّمم
وأظلمت الدنيا وباخ ضياؤها ... نهارا وشمس الضحو حيرى على القمم
وأجدبت الأرض التي كنت روضة ... عليها وأبدت مكلحا بعد مبتسم
ومادت لك الأجبال حتى كأنما ... شواهقها كانت بمحياك تدعم
وأصبح يبكيك السحاب مجاودا ... فأرزم ارزام العجول وما رذم
وناحت عليك الريح عبرى وأصبحت ... لدن عدمت ريّاك تجري فلا تشم
وقامت عليك الجنّ والانس مأتما ... تبكي صلاة الليل والخمص والهضم
وأضحت عليك الوحش والطير ولّها ... تبكيّ الرواء النضر والمخبر العمم
وأبدى اكتئابا كل شيء علمته ... واضعاف ما أبداه من ذاك ما كتم (٢)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ / ٢٣٠٩ - ٢٣١٠
(٢) المصدر السابق ، ٢٣١٠ - ٢٣١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحس الشاعر أن حزنه الشديد على أمه احتد ليعم كل شيء من حوله فبالاضافة الى أن القلوب اسودت حزنا عليها وابيضت الرؤوس لهول المصاب بها ، فقد أظلمت الدنيا وأصبح نور نهارها باهتا وشمسها لا تريد الخروج اذ لم يعد في الدنيا من يستحق أن تضيء له وكذلك الأرض التي كانت معطاءة أصبحت مجدبة وتغير حالها وكذلك الجبال مادت وبكاها السحاب وناحت عليها الريح وحتى الجن أقامت هي والانس مأتما تبكيها وتصلي عليها. ومما لا شك فيه أن الشاعر تهيأت له امور، وبالغ في وصف أثر فقد امه على الأشياء من حوله . ولكن أحزانه قد صبغت نفسه بصبغة الحزن التي لونت الاشياء من حولها بنفس لونها فتهيأ له أن كل شيء حزين ومصاب باليأس لفقدها وكأن موتها نهاية الحياة . وقد تنبه الشاعر نفسه لهذا فقال :

كذاك أرى الأشياء إما حقيقة بدت لي وإما حلم مستيقظ حلم
ولن يحلم اليقظان الا وقد أتت على لبّه دهياء هائلة الفقم (١)

فالشاعر يؤكد أنه فعلا يرى الأشياء هكذا،ولكنه غير متأكد أن ما يراه حقيقة ، أم خيال . وهو إن لم يكن حقيقة فإنه حلم انسان واع لاحلامه .

لقد نجح الشاعر في تصوير أثر موتها على الاشياء من حوله ففي حين كانت أجزاء الكون التي فقدتها او خرجت منها كانت حزينة يائسة ، فان الأجزاء الاخرى التي استقبلتها كانت مبتهجة فرحة قال : -

وأما السموات العلى فتباشرت بروحك لمّا ضمها ذلك المضم
وما كنت الا كوكبا كان بيننا فبان وأمسى بين اشكاله نجم
رأى المسكن العلويّ أولى بمثله فودّعنا جادت معاهده الرّهم (٢)

فالشاعر يرى ان السماء فرحت واستبشرت بقدوم أمه وانطلاقها اليها ، اذ تحولت فيها الى نجم بعد أن كانت كوكبا خبا ضوؤه بالموت ، وما رحيلها عن الارض الا لأن المسكن السماوي رأى أنه أولى بها لخلقها العظيم ومكانتها العالية .

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٢٣١١ .
(٢) المصدر السابق ج٦ ، ٢٣١٢ ، والرهم : المطر الضعيف الدائم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أكثر الشاعر من الحديث عن مكانة أمه وأهميتها في حياته ،وربما كان ذلك ليقنع نفسه ومن هم حوله بعظم خسارته بها وضرورة الوفاء لها ، وما الدموع وهجر النوم الا تعبير عن شعوره هذا وقد كان يجسد شعوره ذكر فضائلها حيث قال : -

أحاملتي : اصبحت حملا لحفرة ... اذا حملت يوما فليس لها قتم
أحاملتي : أستحمل الله روحةً ... الى تلكم الروح الزكية والنسم
أمرضعتي أسترضع الغيث درّة ... لرمسك بل استغزر الدمع ما سجم (١)

يذكر الشاعر فضائل أمه عليه من حمل ورضاعة ويقارن بين ما قامت به تجاهه وبين ما أصبحت عليه هي الآن اذ اصبحت حملا لقبر موحش ، وبعدها يحاول الشاعر أن يؤدي اليها بعض ما قدمت له في الماضي فيهديها سلامه ودعاءه ويدعو لها بالسقيا ، ويؤكد وفاءه باستغزار الدمع وكثرة البكاء لفقدها .

ودور الأم لا ينتهي بالحمل والرضاعة ورعاية الابن صغيرا وإنما يمتد ويكبر مع تقدم عمره فهو بحاجة الى الصاحب الأمين والصديق المخلص . وليس هناك من يقوم بهذا الدور أفضل من الأم ، وهذا هو ما كانت عليه ام ابن الرومي اذ قال : -

ألا من أراه صاحبا غير خائن ... الا من أراه مؤنسا غير محتشم ؟
ألا من تليني منه في كل حالة ... أبرّ يد برّت بذي شعث يلم ؟
ألا من اليه اشتكي ما ينوبني ... فيفرج عنّي كلّ غمّ وكل هم ؟ (٢)

فقد كانت أمه تقوم بدورها على أفضل وجه حيث كانت تمثل الصديق المخلص والصاحب الأمين لابنها ، وكانت المؤنسة لوحدته بالاضافة الى برها به ورحمتها له اذ كانت الملجأ الذي يلتجأ له أن أصابه هم او اشتكى من شيء فيجد لديها كل رحمة ورأفة مما يفرج همه ويقلع عنه قلقه .

ويلتفت الشاعر الى مناقب أمه الراحلة فيذكر منها الجانب الديني قائلا :

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٢٣٠٨
(٢) المصدر السابق ج ٦ ، ٢٣٠٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لعمري وعمري بعدك الآن هيّن ... عليّ ولكن عادة عادها القسم
لقد فجعت منك الليالي نفوسها ... بمجيبة الاسحار حافظة العتم
ولم يتخطىء الأيام فيك فجيعة ... بصوامة فيهن طيبة الطعم
وفات بك الأيتام حصن كنافة ... دفيء عليهم ليلة القر والشبم
رجعنا وافردناك غير فريدة ... من البّر والمعروف والخيروالكرم
فلا تعدمي أنس المحلّ فطالما ... عكفت وآنست المحاريب في الظلم (١)

فلقد كانت أمه امرأة تقية تجيب الأسحار وتقوم الليل صوامة تعطف على الأيتام وتقدم لهم ما يقيهم من البرد والحر ، فخلقها مزيج من البر والمعروف والعطف والكرم .

ويحاول الشاعر بعد هذا كله أن يجد طريقا الى الصبر والتعزي عن أمه ، فيطرق طرقا كثيرة ويكرر أنواع التعزي التي طرقها هو وغيره من الشعراء في التعزي عن أهلهم وأحبتهم . كحال الدهر وانقلابه وتغيره ، وقدرته وسطوته وجبروته التي لا يقدر أحد على مجابهته فيقول : -

الا كم أذلّ الدهر من متعزّز ... وكم زم من أنف حميّ وكم خطم
وكم ساور العقيان في اللؤم صرفه ... وكم غاوص الحيتان في زاخر الحوم
وكم ظلم الظّلمان حق صحاتها ... ومثل خصيم الدهر أذعن وأظلم
وكم غلبت غلب القبول هناته ... ولم تقتبس من قبل ذاك ولم تـرم
وكم نهش الحيّات في هضباتها ... وكم فرس الاسد الخوادر في الأجم
وكم أدرك الوحش التي لجّ نفرها ... يفور لها طورا ويطلع الأكم
وكم قعص الابطال امّا شجاعة ... واما بمقدار اذا اضطره اقتحم
وكم صال بالأملاك وسط جنودها ... وأخنى على أهل النبوات والحكم (٢)

فالدهر ذو قوة جبارة لا يستطيع دفعها او ردها احد ، فهو يذل المتعززين حتى يذعنوا له ، ويلاحق الأقوياء ومن يصعب اللحاق بهم الى مخابئهم فينازلهم وتكون الغلبة له دائما لا يترك في ذلك انسانا أو حيوانا او وحشا . وليس هذا فحسب فهو لا يترك احدا ، ولا يخلد شخصا مهما بلغ من الحكمة والعظمة . والدليل على ذلك أنه ذهب بالأنبياء ولم يترك واحدا منهم بالاضافة الى غيرهم من الناس.إذا كان الامر هكذا فلا عجب ان الذهب أمه ورحلها الى عالم آخر

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٢٣١٢
(٢) المصدر السابق ، ج ٦ / ٢٣٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس عجبا أنه لم يستطع مجابهته ولا الوقوف في وجهه وهو يملك كل هـــــذه القوة وهذا الجبروت .

ويؤكد ان الدهر لا يبقى على حاله أبدا وانما هو متغير : -

أرى الدهر لا يبقى على حدثانـــه شعيب الأعالي جهوريّ اذ بغـــم (١)

لقد اعاد الشاعر كثيرا من افكاره السابقة عن حال الدهر وتغيره وقوتـــــه وجبروته ، وحال الأيام وضرورة عدم الركون اليها عله يجد في ذلك كلـــــه تعزية عن أمه وسلوى،الا أن هذا لم ينفع معه شيء كما يقول : -

تمثلت امثالي معيدا ومبدئـــا فما اندمل الجرح الذي بي ولا التأم
وكم فارع سمعي بوعظ يجيـــده ولكنه في الماء يرقم ما رقـــم
وكيف بأن يقنى الفؤاد عظاتـــه وقد ذاب حتى لو ترقرق لا نسجـــم
وهل راقم في صفحة الماء عاشد ليقرأ ما قد خطّ الا وقد طســـم (٢)

فالتعزي الداخلي الـــذي قام به هو بتأمله حال الدهر والأيام لم يفـــد في تخفيف آلامه وأحزانه على أمه،ولا التعزي الخارجي (٣) الذي كان من الآخريـــن عن طريق الوعظ افاده ايضا،اذ ان جرحه كان فوق كل هذا العزاء. وقـــد خانه صبره عنها فلم يستطع السكون عن البكاء او الصبر على الفـــراق خصوصا أن قلبه قد تحوّل فأصبح كالحجر الأصم لا يعي وعظا ولا تفيده عبر.

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٣٠٤ ٢ (٢) المصدر السابق ٢٣٠٨٧

(٣) استخدم هذين المصطلحين الدكتور مخيمر صالح في كتابه رثاء الأبنـــاء، مكتبة المنار الزرقاء - الاردن ط ١ ويقصد بالداخلي ما يكون مـــن ذات الانسان بالتفكر والتأمل حوله اما الخارجي مايكون من الآخريـــن ويكون بالحث على الصبر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : الأم في شعر المناسبات

نال الأمهات شيئا من مديح الشعراء وخاصة أمهات الخلفاء والرؤساء ولعل السيدة زبيدة أم الخليفة الأمين ، وزوجة الخليفة هارون الرشيد، هي أكثر أمهات هذا العصر نصيبا من هذا المدح ،والسبب في ذلك موقعها السابق من الخليفتين هارون الرشيد والأمين وكونها عربية هاشمية تتمتع بخلق وكرم وسيادة ،إن هذا كله جعلها هدفا لمدائح الشعراء . ومن هؤلاء نصيب الأصفر الذي قال فيها عندما حجت : -

سيستبشر البيت الحرام وزمزم ... بأم وليّ العهد زين المواسم
ويعلم من وافى المحصّب أنها ... ستحمل ثقل الغرم عن كل غارم
بنو هاشم زين البرية كلّها ... وأم وليّ العهد زين لهاشم
سليلة املاك تفرّعت الذرى ... كرام لأبناء الملوك الاكارم
فوالله ما تدري : أفضل حديثها ... عليهم به تسمو أم المتقادم
يظن الذي اعطته منها رغبة ... يقصّ عليه الناس احلام نائم (١)

فالشاعر يمدح أم ولي العهد الخليفة الأمين بما تمتدح به الشريفات من النساء فالبيت الحرام الذي تتوجه اليه يستبشر بالخير لقدومها لزيارته وموسم الحج هذا سيكون من أفضل المواسم لأنها فيه . وينوه الشاعر بكرمها ومساعدتها للآخرين ثم يتوجه إلى قومها بني هاشم الذين يرى الشاعر فيهم كل صفة تمتزج وكل فضل يذكر ، فهم عنده زين البرية ، وهي زينتهم بما تتمتع به من شرف وخلق .إنها سليلة هذا البيت الذي ما يلبث يخرج الكرام والملوك واحدا تلو الآخر ، وقد أنجبت شريفا اكتسب خلق قومه وقوم أمه . ويعود الشاعر الى تكرار بعض اخلاقها فيذكر طيب حديثها ، وبلاغة كرمها حتى أن من تناله عطاياها يظن أنه في حلم أو أن هناك من يقص عليه أحلام نائم . فعطاؤها يصدر عن رغبة في العطاء وهو ترجمة لأخلاقها الكريمة الموروثة .

ويقال إنها أعطته فرسا بلا سرج فقال في ذلك : -

لقد سادت زبيدة كل حيّ ... وميت ما خلا الملك الهمام
تقى وسماحة وخلوص مجد ... اذا الانساب اخلصت الكرام
اذا نزلت منازلها قريش ... نزلت الأنف منها والسّنام
بلغت من المفاخر كل فخر ... وجاوزت الكلام فلا كلام
وأعطيت اللّهى لكن طرفي ... يريد السرج واللجام (٢)

(١) الأغاني ، ج ٢٣ ، ص : ١٤ (٢) المصدر السابق ، ج ٢٣ ، ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعدد الشاعر فضائل هذه السيدة فالتقوى والسماحة والمجد والسؤدد ورفعة النسب من مناقبها، ويضاف اليها أخلاقها العظيمة التي هي مدار حديث الناس . لقد بلغت في ذلك مستوى عاليا ، تجاوز حدود الكلام حتى غدا الشاعر عاجزا عن وصفه ان هذا كله شجعه على ان يطالب بسرج الحصان ولجامه حتى تتكامل لديه الهدية .

وقال أبو نواس في مدح الأمين منوها بفضائل أمه : -

إنّ الخلافة لم تزل ... تزهو ، وتفخر بالأمين
جاءت به ابنة جعفر ... قمرا جلا ظلم الدجون
مهدية ، خير النسا ... ء لذا ابنها خير البنين
فالله يبقيه ، ويبقـ ... ـيها حقب السنين (١)

يعرض الشاعر في مدحه للخليفة الأمين بفضل أمه ومكارمها التي ساهمت في رفعة هذا الخليفة وأوجبت مدحه ، فهي خير النساء أنجبت ابنا هو خير البنين ، لذا فهو يدعو للخليفة وأمه بطول العمر ليبقيا ذخرا لأمتهما .

ومن الشعراء من أشرك والد الأمين مع أمه في المدح فقال : أشجع السلمي فيهما : -

ملك أبوه وأمه من نبعة ... منها سراج الأمة الوهاج
شربا بمكة في ربا بطحائها ... ماء النبوة ليس فيها مزاج (٢)

فأشجع ينوه بقوم الأب والأم فيراهما أشرف قوم، فهم من نبعة أضاءت الطريق للبشرية ، ولقد أنجبا ابنا فيه من الأخلاق الحميدة الكثير ومن ألمع أخلاقه الكرم الذي أهله مع أخلاقه الأخرى الى أن يسود الناس ويخلفهم .
ومثله قول التيمي(٣) في الأمين : -

خليفة الله خير منتخب ... لخير ام من هاشم وأب
خلافة الله قد توارثها ... آباؤه في سوالف الكتب(٤)

---

(١) ديوان ابي نواس ٤١١
(٢) الأغاني ج ١٨ ، ٢٢٦ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز : ٢٥٢
(٣) التيمي : - عبدالله بن أيوب من شعراء الدولة العباسية ، اكثر شعره في وصف الخمرة .
(٤) الاغاني ج ٢٠ ، ٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالتيمي يؤكد ما جاء به أشجع فالخليفة الأمين كان خير خليفة أتى به أبوان هما ينتسبان الى خير القبائل . وقد ورث هو هذه الخلافة عن آبائه كما توارثها اباؤه من قبل .

ويشارك الشاعر مروان ابن ابي حفصة غيره في مدح زبيدة ام الخليفة الأمين فيقول : -

لله درك يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من العلا والسؤدد
ان الخلافة قد تبين نورها للناظرين على جبين محمد (١)

فالشاعر يكبر الأم التي أنجبت هذا الابن العظيم الذي يتمثل فيه السؤدد والعلا لذا فان الخلافة ستكون حتما فيه من دون اخوته ، لقد اضاء نورها جبينه لذا فهو احق بها منهم .

ومثلما كانت الأم هدفا لمدائح الشعراء كانت عرضة لأهاجيهم وشتائمهم مثلها مثل الزوجة والأخت والابنة ، على أن نصيبها من هذا كان أكبر فإذا اختلف شاعر مع شاعر آخر او مع غيره من الناس فإنه يرشقهم بشتائمه ، وقد يقذف المحصنات من نسائهم . وسرعان ما يلحق الأم نصيبها من ذلك ، وقد يقتصون منه ويقابلونه بالمثل فينال أمه ما نال أمهاتهم وقد ينبو بعضهم في هجائه نبوا كبيرا. ويخرج عن حدود الخلق ، وقد يفحش افحاشا بالغا " وهذا مما لن أعرض له لفحشه ونبوه " . وما عدا ذلك فقد تمثل شتمهم للأم في الطعن في خلقها وما شابه،ومنه قول ابن الرومي في أحدهم ويدعى ابن الجنازه : -

لما رأى أمه نهبى مقسمة يجري الهجاء بها في كل ميدان
أحرجته فهجاني غير منتصر لا سابق من مجاراتي ولا ثان (٢)

فهو يعرض لاخلاق أم ابن الجنازه هذه المشبوهة ، تلك الاخلاق التي جعلتها تتعرض للشتم والهجاء من الناس جميعا وفي كل مجال ومكان وقد دفع هذا بابن الرومي الى ان يعرض له ويحرجه في اخلاق امه كما فعل الآخرون فأثار هذا غضب ابن الخبازة فهجا ابن الرومي ولكن لم يصل الى مستواه ولم يستطع مجاراته على حد قول الشاعر نفسه .

---

(١) شعر مروان بن ابي حفصة ، الديوان ،جمع وتحقيق د. حسين عطوان دار المعارف مصر ، ٤١ .

(٢) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٢٥٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أشهر الشعر الذي قيل في الهجاء بالأمهات قول عبد الحميد اللاحقي في هجائه أبيا نواس :

أبو نواس ابن هانيء وأمه جلبان
والناس أفطن شيء الى حروف المعاني
إن زدت بيتا على ذي ما عشت فاقطع لساني (١)

فالشاعر يعرض بأخلاق (جلبان) والدة أبي نواس المشبوهة ، ويذكره بأن الناس واعون الى هذا الامر ويعرفونه بها .

ولقد نالت التعزية بالأم قسطا وافرا من اهتمام الشعراء خاصة فيما يتعلق بأمهات الخلفاء والرؤساء ، اذ عزى الشعراء بهن ، فأبدوا الحزن عليهن والبكاء لوعة لهن بالاضافة الى تعداد مناقبهن ومن هؤلاء البحتري الذي قال في رثاء أم الخليفة المتوكل :-

غروب دمع من الأجفان تنهمل وخرقة بفليل الحزن تشتعل
وليس يطفيء نار الحزن اذ وقدت على الجوانح الا الواكف الخضل
ان لجّ حزن ، فلا بدع ولا عجب أو قلّ صبر ،فلا لوم ولا عذل
عمري لقد فدح الخطب الذي طرقت به الليالي ،وجلّ الحادث الجلل (٢)

---

(١) طبقات ابن المعتز ، ٢٤٢ ، تحقيق عبدالستار احمد فراج ، دار المعارف مصر واخبار ابي نواس ، ٣٣ - ٣٤ مع اختلاف .
(٢) ديوان البحتري ١٨٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول الشاعر ان الدموع تنهمر حزنا لوفاة هذه السيدة ، والذي اصابها هو خطب جلل أجزع الناس جميعا ، فأحزنهم حزنا لا يمكن تخفيفه الا بسكب الدموع الغزيرة ، فالموقف صعب لا يستغرب معه حزن ولا بكاء ولا فقد صبر.

وقد حث الشاعر ابن الرومي عينيه على البكاء في تعزيته للمعتضد بأمه فقال : -

عينيّ هذا ربيع الدمع فاحتشدا ... وأبلياني بلاء غير تعذير
خص الامام وعمّ الناس كلهم ... رزء لعمر المنايا غير مجبور
ام الامام أصيبت وهو شاهدها ... ولا مجير على صرف المقاديـر
لقد تجاوز مقدار تحزمها ... ظهرا منيعا وعزا غير مقهور (١)

يستعين الشاعر بالدموع على عظم المصاب فالدموع عنده هي التي قد تطفىء غليل الحزن وناره . ويبرر الشاعر هذا الحزن الشديد بأنه جاء على قدر الخطب ، فقد كان موت هذه السيدة حدثا عظيما أصاب الناس جميعا اصابة بالغة ، فلا عجب إن اشتد الحزن وانعدم الصبر.

وقد نال شخص الأم قدرا لا بأس به من اهتمام الشاعر في قصيدة التعزية وهذا خلاف ما رأيناه في قصيدة التعزية بالزوجة ، ومن هذا الاهتمام ذكر مناقب الأم الراحلة . قال ابن الرومي في تعزيته للخليفة المعتضد : -

نعاء ام أمير المؤمنين السى ... بيت بمكة فالبطحاء معمور
نعاء راعية المعروف رعيته ... لكل عان بأرض الروم مأسور
ولاختلال ثغور طال ما حملت ... ابناءهن على الجرد المحاضير
مواطن البرآمست وهي موحشة ... منها وآنكرن عهد الأنس والنور
ليبكها راغب كانت ذريعته ... حتى تبدل ميسورا بمعسور
وليبكها راهب كانت شفيعته ... أمسى يحاذر ذنبا غير مغفور
وليبكها لخلال لا كفاء لها ... أجملن من كل خير كل تفسير (٢)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٣ ، ١٠٣٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ، ١٠٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يعدد مناقب الفقيدة الراحلة والمتمثلة في البر وتقديم المساعدة الى كل من يحتاجها ، وفي حمايتها لكل من يأتيها طالبا الحماية ، بالاضافة إلى شفاعتها لأصحاب الذنوب وطلب العفو لهم عند من يملكونه وبالتالي فقد خسرها أناس كثيرون ممن كانوا يقفون ببابها لطلب العون المادي ، وغيره .

ومن ذكر مناقب الأم الراحلة قول ابن الرومي في تعزيته عبيدالله ابن عبدالله عند والدته : -

مضت بعد ما مدّت على الأرض برهة ... لتمجد من فيها من البركات
فإن تك طوبى راجعت اخواتها ... فقد زوّدت من طيب الثمرات
لعمرك ما زفت الى قعر حفرة ... ولكنها زفت الى الغرفات (١)

فهو يؤكد أن هذه الأم كانت على غاية من الخلق ، اذ هي كثيرة الخير والبركات لم تذهب من الدنيا الا وقد تزودت بعظيم الأعمال وطيب الاخلاق وبالتالي فان الشاعر يرى أنها ذاهبة الى الجنة وليس الى القبر الموحش وقال البحتري في رثاء ام الخليفة المتوكل بذكر صفات لها مماثلة للصفات السابقة

سيدة الناس حقا بعد سيدهم ... ومن لها المآثرات السّبق الأول (٢)

ان من الصفات والمناقب العظيمة التي يمتدح بها الرجال والنساء على حد سواء السيادة ورفعة المكانة ، وهذا ما كانت عليه ام الخليفة الراحلة ، فهي سيدة للناس بعد الخليفة بالاضافة الى كونها صاحبة مآثر وفضائل عظيمة .

وليس تعداد المناقب او ذكر الفضائل هو وحده نصيب الأم الراحلة في قصيدة العزاء ، بل أكثر الشعراء من الدعاء لها . قال ابن الرومي في تعزيته لعبيد الله بن عبدالله بامه : -

سقاها مع الدمع الذي بكيت به ... حيا الغيث في الروحات والغدوات
وصلى عليها كلما ذرّ شارق ... وحان غروب ، صاحب الصلوات (٣)

فابن الرومي يدعو للأم الراحلة بالسقيا ،ويأمل ان تكون الامطار التي ستسقي

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ١ ، ٣٧٧ .
(٢) ديوان البحتري ، ١٨٨٣ .
(٣) ديوان ابن الرومي ج ١ ، ٣٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبرها غزيرة كغزارة الدمع الذي سكب عليها حتى نغمرها بالرحمة والعفو، كما يتمنى الشاعر على الله ان يغمرها بالصلاة الدائمة لعلها في ذلك تكسب كل غفران وكل خير . قال ابن الرومي في دعائه لأم المعتضد : -

تحية الله ازكاها وأطيبها على معارف وجه فيك منضور (١)

فهو يدعو لها بالتحية والسلام من الله تعالى ، ويتمنى ان يكون سلاما طيبا نضرا مثل خلقها الطيب ووجها النضر .

والدعاء للأم في قصيدة العزاء هوتتمة لما تعوده الشعراء خاصة والناس عامة من الدعاء للمتوفى وطلب الرحمة والغفران له سواء أكان ذلك عن طريق طلب السقيا لقبره أم في القاء السلام عليه وطلب الصلاة له . ولعل ذلك كله مواكب لطبيعة الحدث حيث لا ينفع مع الموت شيء سوى الدعاء للميت وطلب الرحمة له وهذا مما هو في امس الحاجة اليه في مجتمع اسلامي كالمجتمع العباسي .

ويبدو أن حزن الأبناء بفقدهم أمهاتهم كان كبيرا ، مما أفقدهم الصبر واعجزهم عن العزاء ، فوجد الشعراء ان من واجبهم استخدام ما امكنهم من وسائل العزاء والحث على الصبر ، كالتذكير بحال الدهر المتقلبة ، وفناء الناس جميعا ... الخ قال ابن الرومي يعزي عبيد الله بن عبدالله عن أمه : -

عزاؤك ان الدهر ذو فجعات وكلّ جميع صائر لشتات
لك الخير كم ابصرته وسمعته قرائن حيّ غير مختلجات
هل الناس الا معشر من سلالة تعود رفاتا ثمّ ايّ رفات ! (٢)

فالشاعر يستخدم اسلوب الحث على التعزي والتصبر ، فهو يذكر معزيه بأن هذا هو حال الدهر: تغير وانقلاب واصابة بالأهل والأحباب وهذا هو مصير الناس جميعا فهم خلقوا ليواجهوا الموت ولتتحول بعد ذلك اجسادهم الى رفات .

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٣ ، ١٠٣٦
(٢) نفسه ج ١ ، ٣٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن وسائل التعزية عند ابن الرومي التذكير بأحوال الناس من أهل المعزى وممن هم حوله قال : -

تعزّ بموت الصيد من آل مصعب ... نجدهم أسى ان شئت أو قدوات
تعزّوا وقد نابتهم كلّ نوبة ... وماتوا فعزوا كل ذي حسرات
ومن سنن الله التي سنّ في الورى ... اذا جالت الآراء معتبرات
زوال أصول الناس قبل فروعهم ... وتلك وهذي غير ذات ثبات
ليبقى جديد بعد بال وكلهّم ... سيبلى على الصيفات والشتوات
وان زال فرع قبل أصل فانما ... نعد من الاحداث والفلتات
وتلك قضايا الله جلّ ثناؤه ... وليست قضايا الله بالهفوات (١)

ويضرب الشاعر مثلا لمعزيه بالعظماء من آل مصعب الذين رحلوا عن الدنيا، والذين بقوا فيها فصبروا وتعزوا عن السابقين منهم. ثم يوضح الشاعر بعض سنن الله في خلقه ومنها زوال الأصول من الناس وبقاء الفروع وهذه السنة وان كانت متغيرة وغير ثابتة، فان لله سبحانه وتعالى حكمة كبيرة في ذلك فكأنه يبقى الجدد من الناس ويذهب بالبالين وهؤلاء سيلحقون بسابقيهم ويبقى الجديد من ابنائهم وهكذا . لقد تعود الناس على تقبل هذا الأمر الأمر الذي ان اصابه خلل فذهب الفرع قبل الأصل، جزعوا وأصيبوا بالهلع. ان هذا كله من حكم الله الكظيمة استخدمها الشاعر حتى يقنع معزيه بأن وفاة أمه امر طبيعي ومقدر ولا يعد فلته او حدثا غير طبيعي وعليه أن يحمد الله اذ سارت الامور بهذا وأنه لم يحدث العكس فذهب الفرع قبل الأصل اي المعزى قبل والدته .

ومن الشعراء من طلب من معزيه ان يتعزى عن والدته بالرسول عليه الصلاة والسلام ، قال البحتري : -

عزّيت نفسك عنها بالنبيّ ، وما ... في الخلد بعد النبيّ المصطفى أمل
وكيف نرجو خلودا لم يخصّ به ... من قبلنا انبياء الله والرّسل (٢)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ١ / ٣٧٥ - ٣٧٦ .
(٢) ديوان البحتري ، ١٨٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو نبي مرسل ، قد توفي ولم يخلد في هذه الحياة وكذلك جميع الأنبياء والرسل من قبله ، وبالتالي فلا يمكن ان يأمل اي انسان بالبقاء والخلود مهما بلغ من المكانة والقوة .
ومن الحث على الصبر قول ابن الرومي معزيا عبيد الله بن عبدالله عن والدته :-

عليك بتقوى الله والصبر انه معاذ وان الدهر ذو سطوات (١)

فقد جمع الشعراء بين تقوى الله والصبر ، اذ هو من موجبات الايمان ومن اخلاق المتقين لذا فقد حث عليه الشعراء وافترضوا في معزيهم تقبله اذ فيه حماية ووقاية من شرور الدهر . وقال البحتري في تعزية المتوكل عن والدته حاثا اياه على الصبر : -

صبرا ومعرفة بالله صادقة فالصبر أجمل ثوب حين يبتذل (٢)

أما البحتري ، فقد جعل الصبر بمثابة لباس يلبسه المصاب ، ويؤكد بانه اجمل الثياب وأكثرها فائدة لصاحبه ، وقد دعا معزيه اليه وارفق دعواه له بضرورة التعرف الى الله للارتباط الكبير بين الصبر ومعرفة الله .

وحتى يحقق الشاعر الصبر والعزاء عند معزيه انشده مديحا صوره فيه بصورة الرجل القوي الذي يستطيع تجاوز اصعب المصاعب واشدّ المصائب ؛ قال ابن الرومي في معزيه : -

أميري وأنت المرء ينجم رأيه فيسري به السارون في الظلمات
وتعصف ريح الخطب عند هبوبها وأنت كركن الطود ذي الهضبات
عليك بتقوى الله والصبر انه معاذ وان الدهر ذو سطوات
وليس حكيم القوم بالرجل الذي تكون الرزايا عنده نقمات
فجعت فلا عادت اليك فجيعة كما يفجع الأملاك بالملكات
أصبت وكلّ قد أصيب بنكبة يهاض بها الماضي من النكبات (٣)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ١ ، ٣٧٥
(٢) ديوان البحتري ، ١٨٨٤
(٣) ديوان ابن الرومي ،ج ١ ، ٣٧٤ - ٣٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يعظم معزيه ويصفه بأنه صاحب عقل راجح طالما سار الآخرون بهديه ومصابه هذا ليس الأول في حياته حتى يعجزه فقد أصيب من قبل وعصفت به الخطوب مرارا لكنها لم تفلح باضعافه او زعزعته ، لذا فعليه بالصبر وتجاوز مصابه هذا بهمة الرجل المؤمن الحكيم الذي يغلب الاحداث بدلا من أن تغلبه هي فليس هو الأول ولا الأخير الذي تصيبه المصائب اذ ان كل انسان معرض لاحداث الدهر وخطوبه وهنا يتميز الانسان المؤمن القوي عن غيره حيث يكون اقدر على مواجهة الحدث وأصبر على تبعاته وما يترتب عليه .

وقد خلط بعضهم مدح المعزى بالدعاء له ،قال البحتري في تعزيته للخليفة المتوكل : -

قل للامام الذي آلاؤه جمل ... وبشره أمل ، وسخطه وجل
لك البقاء على الأيام يقتبل ... والعمر يمتدّ بالنّعمى ويتّصل
والنّاس كلّهم في كل حادثة ... فداء نعلك أن يغتالك الزّلل
اذا بقيت لدين الله تكلأه ... فكلّ رزء صغير القدر محتمل(١)

فالشاعر يدعو لمعزيه بطول العمر وبالعيش الهنيء ، ويجعل من الناس كلهم فداء له ليس من الموت فقط وانما من الزلل ، اذ هو حامي الدين وبقاؤه بقاء للدين ، لذا يتمنى أن يمده بطول العمر حتى يبقى راعيا لدينه ورعيته ، وكل مصاب مهما بلغ بعد ذلك يكون هينا ومحتملا .

---

(١) ديوان البحتري ، ١٨٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأبـــــوّة والبنـــــوّة

علاقة الأبوّة والبنوّة من العلاقات المهمة في شعر الأسرة في العصـــــر العباسي ، فالشعر الذي يخصهما جد كثير ، بل لقد أخذ النصيب الأوفـــــر من شعر العلاقات الأسرية . ولعل ذلك راجع إلى قوة أواصر العلاقة بينهمـــــا ، بالاضافة إلى أن الطرفين ذكور ولا يرى الشاعر بأسا من ان يفصّل العلاقـــــة بينهما ، في عصر حجبت فيه المرأة . يضاف الى هذا ظاهرة عامة عند الشعـــراء فهم يتحفظون في وصف العلاقة الأسرية التي تكون الأنثى طرفا فيها ، ودليـــل ذلك أن الشعر الذي يتحدث عن البنات كان نصيبه أقل بكثير من الشعر الـــذي يتحدث عن الأبناء في باب الأبوة . ولقد ارتأيت أن اقوم بتقسيم هذا الشعـــر إلى ثلاثة اقسام لتسهيل دراسته ، وهذه الأقسام هي :

شعر الابّوة : ويشتمل شعر الآباء في الأبناء ، وشعر البنوة ؛ ويشمل شعر الأبناء في الآباء . ثم الابوّة والبنوة في شعر المناسبات .

شعر الابـــــوّة

عاطفة الأبوة أو الرابطة التي تربط الأب بأبنائه لا تخفى أهميتهـــــا على أحد ، اذ أنها قضية مُعاشة من الناس جميعا ، فهم في ذلك اما أن يكونـــــوا آباء وإما أن يكونوا ابناء ، وكثير منهم عاش الحالتين معا . ولا شك ان الرابطة التي تربط بينهما هي رابطة الحب والعطف في أغلب الأحيان وهذا لا يعنـــــي أنها دائما كذلك بل قد تضعف هذه العاطفة في فترات وقد تختفي للحظـــــات قصيرة او فترات طويلة ، ولكنها لا تنعدم مهما كانت المؤثرات والظروف الخارجيـــة الضاغطة عليها ، وهي ان ضعفت في بعض مظاهرها او اختفت فان لها مظاهـــــر اخرى تظل باقية أبدا . كما سنرى فيما يلي :

حب الآباء لأبنائهم من الأمور التي جبل عليها بنو البشر ، وهذا الحـــب يبدأ منذ قدوم المولود الى الحياة إن لم يكن قبل ذلك ، اذ يحس الأب أنّ ابنـــه جزء منه وينمو هذا الحب بمرور الأيام بحكم العشرة الدائمة فيرى فيـــــه زينة الحياة وسبب بهجتها من حوله ويستمر هذا الشعور والاهتمام بحكـــــم اضطلاع الأب بواجباته وتقديم كل ما يمكنه تقديمه اليه عن طيب خاطـــــر . وهو كذلك يعقد عليه آمالا كثيرة ترضيه هو أولا فيشعر بالسرور تجاههـــــا وهو يرى ابنه يسيـــــر نحو تحقيقها . فكأن نجاح ابنه في تحقيق مـــــا يصبو اليه هو نجاح للأب نفسه الذي يرى أنه صنيعة من صنائعه . هـــــذا بالاضافة الى رغبة الأب في رؤية ابنه سعيدا هانئا في حياته ، وعند اشتـــداد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حاجة الأب إلى الابن نتيجة ظروف معينة كالمرض أو الشيخوخة يرى أن على الابن سداد ما قدم هو ، ينتظر منه أن يحوطه بالعناية والرعاية ولكن لا ينتهي في اثناء ذلك دور الحب والاهتمام الذي بدأه بل يستمر الى ما بعد نهاية الحياة. والدليل أن الأب يترك كل شيء له بعد موته للابن عن طيب خاطر ويفخر بذلك ، بل قد يحس بالألم الشديد لو أحس أن أحدا غير ولده سيرثه ، وبالتالي تكتمل دورة حياة الأب كما أرادها له خالق البشر ، وتبدأ بعد ذلك دورة حياة الابن كأب لأولاده ، وهذه الدورة هي الدورة المتوقعة من الأب في حياته مع أبنائه وهي بلا شك دورة مثالية اذا ما تمت بالتتابع السابق دون أي تقصير من الأب ودون أي جحود او نكران من الابن ، ولكن الآباء لا يقومون جميعا بهذا الدور ، ولا تكون الظروف مواتية لهم جميعا ليقوموا بأدوارهم بشكل جيد ، ومن هنا فإن هذه الدورة قد تختل في بعض الاحوال لفترة من الزمن قد تطول أو تقصر تبعا للأسباب أو الظروف المحيطة . وأبان تلك الدورة الحياتية للأب مع أبنائه تكون هناك مناسبات وظروف يظهر فيها الحب والود أكثر من غيرها . ولهذا الحب مظاهر ابرزها خوف الآباء وحرصهم على أبنائهم فالخوف أو الحرص على الأبناء مظهر من مظاهر الحب الظاهرة على علاقة الآباء بأبنائهم في مراحل حياتهم المختلفة من كل ما يمكن أن يؤذيهم أيا كان نوع الأذى وما مقداره ، وهو ايضا من أهم واجبات الأب نحو ابنائه ، ويبدأ هذا الحرص منذ نعومة أظفار الابن فيحاول الأب وقايته من كل ما يمكن أن يؤذيه صحيا وعقليا وخلقيا . ومن ذلك حرص الخليفة المهدي على ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد وابعاد مسببات الانحراف كالشرب عنهم " قال اسحاق حدثني أبي قال كان المهدي لا يشرب ، فأرادني على ملازمته وترك الشرب . فأبيت عليه ، وكنت أغيب عنه الأيام فاذا جئته جئته منتشيا فعاتبه ذلك مني فضربني وحبسني فحذقت القراءة والكتابة في الحبس ، ثم دعاني يوما فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذل معهم فقلت : يا أمير المؤمنين انما تعلمت هذه الصناعة للذتي وعشرتي لاخواني ولو أمكنني تركها لتركتها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل ، فغضب غضبا شديدا وقال لا تدخل على موسى وهارون البتة فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن ولأصنعن ..... "(١)

فاحساس الخليفة المهدي بما قد يكون لابراهيم الموصلي وهو على ما هو عليه من شرب وتبذل من تأثير سيء على ولديه أدى به الى منعه من

---

(١) الأغاني ج ٥ ، ١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدخول عليهما. ولم يكتف المهدي بهذا الطرد للموصلي ، فحين بلغه أنه وابن جامع المغني يأتيان موسى ابنه ، بعث اليهما فجيء بهما فضرب ابراهيم الموصلي ضربا مبرحا أما ابن جامع فتوسل اليه قائلا : ارحم أمي ! فرق له واكتفى بطرده. (١)

وقد لا يكتفي الأب بالحرص على ابنه في اثناء حياته ، وإنما يمتد هذا الحرص بعد وفاته ، وقد يفعل ذلك حتى لو كان فيه تضحية كبيرة منه ، ومثال ذلك حرص البحتري على إبنه من جلب العداوة والبغضاء له بسبب شعر الهجاء الذي قاله هو في حياته ، فقد ذكر صاحب الأغاني : أن ابن البحتري أبا الغوث كان قد عزا سبب قلة بضاعة ابيه في فن الهجاء الى " أنه لما حضره - البحتري - الموت دعا ابنه وقال له : اجمع كل شيء قلته في الهجاء ، ففعل . فأمر باحراقه ، ثم قال : يا بني ، هذا شيء قلته في وقت ، فشفيت به غيظي وكافأت به قبيحا فعل بي ، وقد انقضى أربي في ذلك ، وإن بقي روي وللناس اعقاب يؤرثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لي فيه ... "(٢)

ورغم امكانية صنع أبي الغوث هذه الرواية لتسويغ قلة الهجاء عند أبيه الا أن هذا بلا شك دليل على ما يكون من حرص الأب على ابنه بعد وفاته ، من كل ما يمكن أن يجلب له الضرر سواء في شخصه أم في مصالحه المادية والاجتماعية .

ومن أنواع الحرص الشائعة آنذاك تجنيب الأبناء أية حاجة مادية اثناء حياة الأب وما بعدها. ومن هنا ضرب الآباء في الارض لطلب الرزق وتوفيره لأبنائهم ، ومن وسائل كسب الرزق التي كانت شائعة في هذا العصر قصد الخلفاء والأمراء وذوي المال والجاه/وكان الشاعر يعاني من رحلاته هذه كثيرا ، وكذلك أولاده من بعده . قال مطيع بن اياس مخاطبا ابنته التي بكت حين أراد الرحيل الى هشام بن عمرو :

اسكتي قد حززت بالدمع قلبي ... طالما حزّ دمعكن القلوبا
ودعي ان تقطعي الآن قلبي ... وتريني في رحلتي تعذيبا
فعسى الله أن يدافع عني ... ريب ما تحذرين حتى أؤوبا

---

(١) الأغاني ج ٦ ، ٣٠٣.
(٢) المصدر السابق ج ٢١ ، ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس شيء يشاوه ذو المعالي بعزيز عليه فادعي المجيبا
أنا في قبضة الاله اذا ما كنت بعدا أو كنت منك قريبا (١)

من خلال الابيات يوضح الشاعر مدى الترابط بين الأب وابنته ، فالابنة تبكي لفراق والدها وتخشى عليه مما يمكن ان يلاقيه في اثناء رحلته في حين أن الأب لا يريدها ان تبكي لما لدموعها من تأثير معذب لنفسه ، وهو يشير الى أن الدموع البنات خاصة أثرا كبيرا اذ تكاد تقطع قلبه ، ولعله يشير بذلك الى النظرة المتعارف عليها بأن البنت بحاجة الى الشفقة والرحمة أكثر ، ومن هنا فإن الخوف عليها يكون أكثر من الخوف على الاولاد الذكور. لذا فان الأب لا يريد منها أن تبكي في وداعها له حتى يستطيع أن يذهب في رحلته مطمئنا ، ويطلب منها أن تبدل البكاء بدعاء الله عز وجل أن يحفظه ويرعاه ويعيده اليها سالما فذلك أفضل خاصة وأنه في قبضة القدر الذي يستطيع أن ينهي اجله متى شاء سواء كان قريبا أم بعيدا ، ولعل هذه دعوة من الأب لابنته لأن تكون اكثر ايمانا بالقضاء والقدر . ومن الآباء من رأى ان مكانه بقرب أولاده خاصة الاناث منهم ، لأنه يرى في رحيله عنهن وحدة ومشقة عليهن وبالتالي فقد آثر البقاء الى جانبهن قال المعلّى الطائيّ:

لولا بنيات كزغب القطا حططن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطّول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبّت الريح على بعضهم لم تشبع العين من الغمض (٢)

إنّ بنياته اللاتي لا زلن في سن صغيرة وفي حالة من الضعف وعدم القدرة على الاعتماد على أنفسهن منعته من الرحيل والتنقل في البلاد الواسعة لأجل طلب الرزق او لأي غاية اخرى خشية عليهن وقد بدت هذه الخشية المشوبة بالحرص في البيتين الأخيرين والذي يشبّه فيهما اولاده تشبيها رائعا اذ يجعلهم ككبده تمشي امامه على الارض وهو يخاف عليها من كل ما يمكن ان يمسها بأذى وإن اصابها شيء من مرض او غيره قد لا تغمض له عين قلقا وخوفا عليهم ولعمري هذا قمة الحب والحرص .

---

(١) الاغاني ج ١٣ ، ص : ٢٩٠
(٢) العقد الفريد ج ٢ ، ٤٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنهم من خص الاناث من الأبناء بمزيد من الخوف والقلق بعد موتهم، لذا فقد تمنى بعضهم لهن الموت حرضا وصيانة لهن بعد موته . قال محمد ابن يسير الرياشي : -

لولا البنية لم أجزع من العدم ... ولم أجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرّحم
أخشى فظاظة عمّ او جفاء أخ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلّم
اذا تذكرت بنتي حين تندبني ... جرت لعبرة بنتي عبرتي بدم
تهوى بقائي وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرم نزّال على الحرم (١)

فوجود بنيته هذه وخوفه عليها من ذلّ الحاجة جعله يخاف الفقر ويجوب الأرض في ظلمة الليل ليحقق لها عيشا كريما اثناء حياته وبعد مماته ، وليس هذا فحسب ، بل لقد زادته رغبة في الحياة لأنه يخشى عليها ، إن مات ، جفوة الاخوان وفظاظة الأعمام . ولقد بلغ حبها عنده مبلغا كبيرا فهو يشفق عليها من البكاء عليه إن مات ، وهو عندما يتذكر ذلك تجري دموعه دما وخسرة وألما . لهذا كله يتمنى أن تموت قبله خوفا وشفقة عليها . وهو في هذا يصور جانبا من جوانب التعاطف بين الأب وابنته . وهو إن أحسن النية في امنيته تلك - شفقة عليها - كما يقول، الا ان ذلك يؤكد نظرته التي أكدها بقوله : إن الموت أفضل ما تصان به الحرم ، وهي نظرة بلا شك فيها اصول جاهلية كانت - كما يبدو - لا تزال تتعمق نفوس بعض الناس في هذا العصر .

ومن الآباء من يخرج في الصباح الباكر لكسب الرزق لأولاده حتى يخلصهم من براثن الفقر المدقع الذي يعيشونه ، قال ابو فرعون الساسي : -

وصبية مثل فراخ الذرّ ... سود الوجوه كسواد القدر
جاء الشتاء وهم بشرّ ... بغير قمص وبغير أزر
حتى اذا لاح عمود الفجر ... وجاءني الصبح غدوت أسري
وبعضهم ملتصق بصدري ... وبعضهم منحجر بحجري
أسبقهم الى أصول الجدر ... هذا جميع قصتي وأمري
فارحم عيالي وتول امري ... كنيت نفسي كنية في شعري
أنا أبو الفقر وأمّ الفقر (٢)

(١) طبقات ابن المعتز ٢٨١ - ٢٨٢ .
(٢) المصدر السابق ، ٣٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يصف نفسه وأولاده وقد لاح الصباح وحان وقت خروجه المبكر للعمل فيرسم لوحة جميلة لاولاده المتعلقين به اذ يلتصق بعضهم بصدره وبعضهم الآخر يجلس بثبات بحجره وكأنهم بهذا التعلق سيمنعونه من الخروج ليبقى معهم، وسواء كانت كثرة عياله أو شدة فقره صحيحة ام لا جاء بها ليكسب عطف مستمعه فيقدم له بعض المساعدة . الا أنه استطاع أن ينقل لنا صورة من صور الأبوة المشرقة التي تحتمل كثيرا من التعب واحتمال الفراق من أجل كسب الرزق للأولاد .

وقد يسبق الابن والده الى دار البقاء ، فلا يكتفي الأب بالجزع والحزن والبكاء بل يحرص على ان يقدم كل مساعدة ممكنة لزوجة ابنه المتوفى وأولاده ، وتقديم ما يقدر عليه من رعاية ونفقة لهم ، فهو من جانب يوفر لهم الحياة الكريمة. ومن جانب آخر يحاول تعويضهم عما خسروه بوفاة راعيهم. ان محبة الأب لابنه ، والحرص عليه تمتد بهذه الحالة لتشمل أهله جميعا ، فقد روي عن الحسين ابن الضحاك انه كان له ابن يسمى محمدا " له ارزاق فمات فقطعت أرزاقه . فقال شعرا يخاطب المتوكل ويسأله أن يجعل أرزاق ابنه المتوفى لزوجته وأولاده "(١)

انى اتيتك شافعا ... بولي عهد المسلمينا
وشبيهك المعتز أو ... جه شافع في العالمينا
يابن الخلائف الأولين ... ن ويا أبا المتأخرينا
ان ابن عبدك مات والأيام تخترم القرينا
ومضى وخلف صبية ... بعراصة متلدّدينا
ومهيرة عبرى خلا ... ف أقارب مستعبرينا
أصبحن في ريب الحوا ... دث يحسنون بك الظنونا
قطع الولاة جراية ... كانوا بها مستمسكينا
فامنن برد جميع ما ... قطعوه غير مراقبينا (٢)

فالشاعر يستشفع بأولاد الخليفة المتوكل ليحقق مطلبه ، ولم يكن يفعل ذلك لو لم يكن يعلم مقدار الحب الذي يكنه الأب لابنه ، وبالتالي فانه سيقيم وزنا لهذه الشفاعة ويحقق ما طلب منه . وقد نجح الشاعر في ذلك اذ أمر

---

(١) الأغاني ج ٧ ، ٢٢٣

(٢) المصدر السابق ج ٧ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخليفة له بكل ما اراد . ومن الواضح ايضا أن التفكير في الابن وعقبه وأهله لم ينقطع بوفاته وإنما ظل هما يشغل الأب ويدفعه للسعي من أجل البر به وهذا جانب انساني واجتماعي جسدته الأبوّة بشكل جيد .

وقد أدى الحرص عند الآباء الى قلق بعضهم على مستقبل ابنائهم لذا كان الأب قلقا على ابنائه يرغب بالعمل من أجل تحقيق حياة فضلى لهم ولم يكتف بالقول وإنما كان يعمل جاهداً لهم في مجال كسب الرزق وذلك لعلمه أن هذا مما يساعد على توفير حياة جيدة مستقرة . والقلق اكثر ما يكون عند الآباء في حالة احساسهم بخطر ضياع الابن نتيجة لاتجاهه وجهة معينة يكون الأب غير مقتنع فيها ، او عندما يصاب الابن في جسمه او ما شابه ذلك من ظروف وأحوال . فمن الأول قلق والد محمد بن عبدالملك الزيات من اتجاه ابنه نحو الأدب والكتابة فعقلية الوالد التجارية (كان تاجر زيت) تدخلت في حساب عملية الربح ، اضافة الى خوفه عليه من عدم تحقيق مهنة الأدب له كسبا ماديا يوفر له حياة مريحة ومستقرة . ذكر الأخفش عن عمر بن محمد ابن عبد الملك الزيات أنه قال : " كان جدي موسرا من تجار السكرخ وكان يريد من أبي أن يتعلق بالتجارة ويتشاغل بها ، فيمتنع عن ذلك ويلزم الأدب وطلبه ويخاطب الكتّاب ويلازم الدواوين ، فقال له ذات يوم والله ما أرى ما انت ملازمه ينفعك وليضرنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة ، وما أنت فيه مكفيّ ، ولك ولأبيك فيه مال وجاه وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه "(١). ولم يمتنع عن حثه هذا الا عند أول مكسب حققه ابنه من الأدب ، فكان مبلغ عشرة آلاف درهم كسبها من احدى مدائحه فتركه ولم يمنعه بعد ذلك مما يريد. ولا أدري لماذا اقف كلما قرأت هذه الرواية عند قوله تطلب الآجل الذي لا تدري كيف يكون " فكأني به لم يكن مرتاحا لمصير الوجهة التي يتجهها ابنه لأنّ وجهة ابن الزيات الى الأدب والكتابة اوصلته الى الوزارة وفيها قتل شر قتلة(٢). فهل بلغ عمق مشاعر الأبوة عند والد محمد الى الاحساس بما يكون عليه المستقبل ... ! !

وأما قلق الأب عند اصابة ابنه في جسمه ، فقد كانت مثل هذه الحادثة تشغل بال الأب كثيرا في حياته وتؤرقه الليالي الطوال ، محاولا ايجاد مخرج لما يعاني منه فيساعده على الحياة الحرة الكريمة . ومن ذلك ما

---

(١) الأغاني ج ٢٣ ، ٤٦

(٢) المصدر السابق ج٢٣ ، ٧٣ - ٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

روي عن والد علي بن جبلة وكان أصغر اولاده فكان يرق عليه كثيرا فجدّر فذهبت احدى عينيه في الجدري ، ثم نشأ فأسلم في الكتاب ، فحذق بعض ما يحذق الصبيان فحمل على دابة ونثر عليه اللوز فوقعت على عينه الصحيحة لوزة فذهبت ، فقال الشيخ لولده أنتم لكم ارزاق من السلطان فإن أعنتموني على هذا الصبي والا صرفت بعض أرزاقكم اليه فقالوا : وما تريد ؟ قال تختلفون به الى مجالس الأدب ... "(١) .

وهذا القلق الذي يعيشه الآباء على ابنائهم قد يكون سببا من اسباب الخوف من السفر والارتحال ، وكذلك الخوف من الموت ، اذ كثيرا ما كان يعلل الشعراء وغيرهم سبب عدم ارتحالهم من اجل العلم او طلب الرزق ، الخوف على اولادهم من بعدهم . وقد لا يخاف احدهم الموت ولا يجزع له ، ولكن حينما يتذكر ابناءه وما قد يحل بهم بعد وفاته من حزن عليه ، وضياع لعدم وجود من يرعاهم ، او ينفق عليهم ، وكذلك لما قد يلاقونه من جفوة الأقارب خاصة ، والناس عامة ، فعند ذلك يجزع لذكر الموت ويتشبث بالحياة . فقد روي عن تميم بن جميل أنه وقف بين يدي المعتصم وعندما دعا بالنطع والسيف قال : -

أرى الموت بين السّيف والنطع كامنا ... يلاحظني من حيثما أتلفّت
وما جزعي من أن أموت وانّني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى اليهم ... وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا (٢)

فليس جزعه من الموت وإنما من مصير ابنائه بعد ان يصلهم نعيه . انه يتخيلهم في أسوأ حال ، بل يرى حياتهم مرتبطة بحياته وموته مرهون بموتهم . ولا شك ان في هذا الموقف الصعب تبرز مشاعر الابوة الحقة فعلا .

ومن الشعراء الذين اكثروا في هذا المجال الشاعر يموت بن المزرع الذي كان فيما يبدو ، كثير القلق والخوف على أبنائه إن مات وتركهم : -

مهلهل أحشائي عليك تقطع ... وأقرع اجفاني اخوك مزرع

---

(١) الأغاني ، ج ٢٠ ، ١٤
(٢) العقد الفريد ج ٢ ، ١٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى الله أشكو ما تجن جوانحي ... وما فيكما من غصة اتجرع
فلولا كما إن سلكت تنائفا ... ولولا كما قد كان في القوم مقنع
فإن ذرفت عيناي وجدا عليكما ... ففي دون ما القاه منكي ومجزع
أخاف حماما يا مهلهل باعثا ... وطير المنايا حائمات ووقع (١)

فالشاعر يخشى على ابنيه إن مات وتركهما ، ولذا فهو دائم القلق عليهما ودليل ذلك أن النوم قد فارق أجفانه. فهو دائم التفكير بهما وبما يمكن عمله حتى يحميهما من الفاقة والضياع بعده خصوصا أنه كان يعلم أن الموت قد يأتيه في أية لحظة . وقد أورثه هذا كله حياة منغصة متعبة . ويبدو أنه كان دائما كذلك اذ قال في قصيدة اخرى : -

وقد أسهرت عيني بعد غمض ... مخافة أن تضيع اذا فنيت
وفي لطف المهيمن لي غزاء ... بمثلك إن فنيت وإن بقيت (٢)

فهو دائم السهر لا تغمض عيناه رعاية له وخوفا عليه ، اذ هو يخشى إن فعل أن يضيع . ومثل هذه المشاعر كثيرا ما تطرق عقول الآباء لذا فان بعضهم يكون دائم القلق والتفكير في أمر الموت لا جزعا منه ولكن لما قد يلحق ابناءه من بعده من جفوة الأهل والاقارب ، ولما سيجدونه من حزن عليه ووجد لفراقه لذا فهو يعمل بجد ويدخر ما يمكنه ادخاره. وقد يجعله هذا يعمل فوق طاقته ويجوب في الارض الواسعة لأجل توفير حياة أفضل لهم .

وحتى يحققوا الغاية التي أرادها الآباء من حرصهم وخوفهم على ابنائهم الا وهو حمايتهم وتوفير الحياة الآمنة لهم يرى كثير من الآباء أن نصحهم وارشادهم جزء من واجب تربيتهم لأبنائهم ، فهم يرون أن كونهم أكبر سنا وأكثر خبرة يجعلهم أكثر معرفة بما يحتاج الأبناء اليه ، وبما يجب أن يكونوا عليه ، ويرى آخرون أن عملية النصح والارشاد هذه ما هي الا تعبير عن محبتهم لأبنائهم وحرصهم عليهم دون ان يكون لرغباتهم الشخصية يد ، ومن هنا فان ردة فعل الأبناء ، تجاه نصائح آبائهم تختلف حيث يتقبل بعضهم هذه النصائح ، ويرفضها بعضهم الآخر بينما يقف آخرون موقفا معتدلا

---

(١) معجم الشعراء ابو عبدالله محمد المرزباني تصحيح وتعليق د. ف كرنكو ، دار الكتب العلمية ط : ١٩٨٢ ص : ٥١٠ .

(٢) معجم الأدباء ياقوت الحموي ، دار الفكر ١٩٨٠ ، ط ٣ ج٢٠ ، ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقبل بعضها ويرفض بعضها الآخر . وقد تنوعت مجالات النصح والارشاد وأهمها الحث على العلم والتعلم والرحيل من اجلها ومجالسة العلماء والجلوس اليهم. قال يموت بن المزرّع موصيا ابنه مهلهل : -

وإن يشتد عظمك بعد موتي ... فلا تقطعك جائحة سبوت
فجب في الارض وابغ بها علوما ... ولا تلفتك عن هذا الدسوت
وإن بخل العليم عليك يوما ... فذلّ وديدنك السكوت (١)

فالشاعر يريد من ابنه بعد ان يكبر ويقوى على الرحيل أن ينال القسط الوافر من العلم الذي يؤهله لتحقيق مكانةجيدة ، وهو ينوه بالطرق المعروفة آنذاك وهي أن طالب العلم يتنقل من بلد الى آخر ويجوب الأرض ليقابل العلماء ويجالسهم ويأخذ عنهم وهذا ما يريده هو من ابنه اذ لا يرغب في أن يمنعه مانع عن ذلك ، كما أنه يرسم لابنه الطريق المثلى في الاستفادة من معلميه وهي الصبر عليهم دون أي معارضة لهم لما قد يصادفه من عوائق كبخل المعلم في اعطاء ما عنده لتلاميذه، فما عليه إزاء مشاكل العلم وأخلاق المعلمين الا الصبر حتى يحقق ما يريد . ولعل الشاعر أراد لابنه أخذ القسط الوافر من العلم ، للقيمة الكبرى التي كانت للمتعلمين آنذاك ، ولأنه يريد منه أن يسير على النهج نفسه الذي كان يسير هو عليه ، قال : -

وقل بالعلم كان أبي جوادا ... يقال فمن أبوك فقل يموت
تنقّر لك الأباعد والأداني ... بعلم ليس يجحده البهوت (٢)

فالشاعر كان معطاء لتلاميذه يعترف بعلمه الأقارب والأباعد ، وهو علم لا يستطيع أن يجحده أحد . وهذا ما يتمناه على معلمي ابنه ، وما يتمنى أن يكون ابنه عليه كذلك .

ويبدو أن الحث على العلم كان من أهم اهتمامات آباء هذا العصر، قال مساور الوراق ناصحا ابنه : -

شمر قميصك واستعد لقائل ... واحكك جبينك للقضاء بثوم
واجعل صحابك كل حبر ناسك ... حسن التعهد للصلاة صؤوم

---

(١) معجم الأدباء ، ج٢ ، ص : ٥٨
(٢) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها .والبهوت جمع والبهيتة الباطل الذي يتحير من بطلانه،والكذب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ضرب حماد هناك ومسمع وسماك العبسي وابن حكيم
وعليك بالفتوي فاجلس عنده حتى تنال وديعة ليتيم (١)

فالشاعر يوجه ابنه نحو علم معين الا وهو القضاء لقيمة هذه العلوم الدينية، ثم يوضح له ما يحتاج منه هذا العلم من عمل واستعداد ، اذ عليه ان يتعلم العلوم التي تفيده في مجال القول والمناقشة، كما عليه أن يقوم بواجباته الدينية ويعاشر من هم كذلك من العلماء والأصدقاء حتى يبدو متدينا ويقنع الناس بورعه وتقواه مما يشجعهم على التقاضي عنده .

ولا غرابة في اهتمام الآباء بالعلم وحث ابنائهم على النهل منه في عصر ازدهر فيه العلم ازدهارا كبيرا وانتشرت فيه العلوم العقلية والأدبية والنقلية وقد انجز الخلفاء مهمة كبيرة وأساسية في تشجيع العلم والتعليم، فاضافة لكونهم هم أنفسهم علماء كالخليفة هارون الرشيد وكذلك المأمون وغيرهما ، شجعوا العلماء بمكافأتهم على عملهم مكافأة جزيلة، ويجد القارئ في كتب الأخبار والتاريخ أمثلة كثيرة على اغداق الخلفاء والوزراء المال على العلماء والشعراء . ولعل هذا التشجيع من قبل أولي الأمر دفع الناس الى تعليم ابنائهم وارسالهم الى الكتاتيب وغيرها من دور العلم المتوافرة آنذاك . وقد اهتم الخلفاء اهتماما كبيرا بتعليم أبنائهم وتثقيفهم الثقافة التي تليق بهم كولاة للعهد او كأمراء من بيت الخلافة . ولعل من أكثرهم اهتماما بتعليم أبنائه وتثقيفهم هو الخليفة هارون الرشيد فقد ألحق بهم العلماء لتعليمهم اللغة والأدب وغيرهما من فنون العلم ولم يكتف بذلك بل كان يصدر توجيهاته لهم ولاساتذتهم بين الحين والآخر . فقد ذكر الأحمر النحوي أن الرشيد قال له عندما اختاره مؤدبا لابنه الأمين : - " يا أحمر إنّ أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك مبسوطة وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين .أقرئه القرآن وعرّفه الآثار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره مواقع الكلام وامنعه الضحك الا في اوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن ابباها فعليك بالشدة والغلظة ".(٢)

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ، ٢١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلاحظ أن الاهتمام بتعليم الابناء يكون أولا بتعلمهم قراءة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وبعدها رواية الاشعار ، لضرورة العلمين الأوليين وفائدة الشعر في تقويم اللسان ومعرفة فنون أخرى للثقافة من خلال رواية الشعر ، كما أن الاهتمام بتعلم الابن السنن وحسن الحديث والمسلك اللائق واحترام شيوخ بني هاشم - اي قومه - كلها ضرورات يجب على المعلم أن يتنبه لها ويعمل على ايجادها في الابن . هذا بالاضافة الى أن الخليفة يرشد المعلم إلى الطريقة التي يتبعها في التعليم مع ابنه وملخصها الاستفادة من الوقت وتعليمه كل ما يمكنه دون أن يكثر فيميت قلبه او أن يتساهل معه فيحبب اليه الفراغ ويستحليه . كما أنه يوجهه الى اسلوب تقويمه الذي يكون باللطف والملاينة في أول الامرفان نفعا كان بهما والا فليستعمل الشدة والغلظة معه .

وقد كان الآباء يجلسون اليهم ويناقشونهم في القضايا النحوية والأدبية. ذكر المفضل الضبي أن الرشيد طلبه وعندما صار اليه وجده متكئا ومحمد بن زبيدة عن يساره والمأمون عن يمينه فسلم وجلس فقال له الرشيد : "يا مفضل كم اسم في (فسيكفيكهم) " قال المفضل ثلاثة اسماء يا أمير المؤمنين، قال : وما هي قلت ، الكاف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهاء والميم وهي للكفار ، والياء وهي لله عز وجل ، قال : صدقت هكذا أفادني الكسائي ثم التفت الى محمد فقال له أفهمت يا محمد " قال نعم ، قال أعد عليّ المسألة كما قال المفضل فاعادها ... (١) .

وقد يطلب إلى علماء اللغة والأدب مناقشتهم ، ليرى ما وصلوا اليه من علم " فقد روي عن الكسائي أنه قال : دخلت على الرشيد فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام ، فقال " أقعد " فلم ازل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ولم يبق الا خاصته ، فقال لي : " يا علي ألا تحب أن ترى محمدا وعبدالله ؟ " قلت : " ما أشوقني اليهما يا أمير المؤمنين وأسرني بمعاينة نعم الله عز وجل على أمير المؤمنين فيهما " فأمر باحضارها ... ثم أمرني أن استقرئهما وسألهما ، ففعلت ذلك ، فما سألتهما عن شيء الا أحسنا الجواب فيه والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ، ثمّ قال لي يا علي كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ " فقلت يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر : -

---

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٦ ، ص : ٥٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرى قمري مجد وفرع خلافـــــة يزينّهما عرق كريم ومحتـــد (١)

وقد كان الخليفة هارون الرشيد يهتم بضم من تتوافر فيه حسن المعرفـة والأدب الى اولاده ، فقد وصف له يحيى بن خالد الفضل بن سهل وهو غلام علـــى المجوسية وذكر أدبه وحسن معرفتـــه فعمل على ضمه للمأمون. (٢)

وقد احتـد حرص الخليفة في اختيار الاستاذ الجيد الى شكله الخارجـــي فلم يكتف بحسن علمه ومعرفته ، وإنما رأى ضرورة أن يكون شكله مقبولا محببـا للنفس ، ولغلهم في ذلك قد سبقوا علم النفس الحديث الذي يوصي بضرورة ان يكـون المعلم على درجة من حسن المظهر والاناقة والترتيب ، خاصة معلم الاطفـــال لما له من أثر على نفسية الطفل وترغيبه في العلم والتعلم ، فقد روي عـــن الجاحظ انه قال : ذكرت لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلمـــا رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني ". (٣)

ولم يكن حب العلم والحث عليه عند الخاصة فقط ، بل هو كذلـــك عند العامة ، فقد ذكر ان والد حماد عجرد وجهه الى الدرس والتعلم مبكـــرا. وكذلك والد سعيد بن حميد فقد انهمك في ارساله للدرس (٤)

وكذلك فإن التعليم لم يكن مقتصرا على الاولاد الذكور منهم ، فقـــد أخذت البنت عند الطبقة العليا في المجتمع نصيبا لا بأس به ، اما العامـــة فقلما كانوا يهتمون بتعليمها وإذا فعلوا فإنهم يرسلونها الى الكتـــاب مع الصبيان لتعلم قراءة القرآن الكريم وبعض مبادىء القراءة والكتابـــة ، فقد روي عن علي بن الجهم أنه التقى بفتاة كانت معه في الكتاب أعجبتـــه وقال فيها شعرا أجازته هي(٥) .

---

(١) مروج الذهب ، ج٢ ، ص : ٢١٠ - ٢١١ .
(٢) المحاسن والاضداد ص : ٨ .
(٣) مروج الذهب ، ج ٥ ، ص : ١٧ .
(٤) الأغاني ج ١٨ ، ١٥٥.
(٥) ديوان علي بن الجهم - المقدمة - ص : ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن النصح والارشاد ما يكون فى مجال السياسة اذ أن من عادة الخلفاء نصح اولياء العهود من أبناء واخوان وغيرهم . ولعل من اروع ما وقعت عليه من ذلك قول المنصور ينصح ابنه المهدي وقد كان شديد الشغف به ، فكان اذا صادر مال أحد ، وضع ذلك المال وحده في بيت المال وكتب عليه اسم صاحبه ، فلما مرض مرض الوفاة قال لابنه المهدي يا بني إني قد افردت كل شيء أخذته من الناس على وجه المصادرة وكتبت عليه أسماء أصحابه فإذا وليت أنت فاعده الى أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك (١) .
فقد حمّل نفسه وزر ذلك العمل حيّا وميتا من أجل أن يجعل ابنه صاحب فضل يحمده الناس ويحبونه من أجل ذلك .

وقد يكون النصح كذلك في مجال الرعاية الصحيّة للابن اذ أن الصحة الجسدية والنفسية مما يُحافظ عليها الآباء في أبنائهم . فهم يرغبون في بقاء أجسادهم صحيحة قوية وقد كان هذا الأمر مجال فخر لهم . فقد روي عن أبان بن عبدالحميد أن والده نصحه للخروج إلى البساتين لعله يسلو الشرب بعد ما رأى منه تهالكا عليه .(٢)

ومن النصح والارشاد ما يكون في مجال اختيار الاصدقاء ، فقد وعي الآباء آنذاك أهمية الصديق وما يكون له من أثر على الابن ، قال ابن كناسة ينصح ابنه في اختيار الصديق : -

ينبيك عن عيب الفتى ... ترك الصلاة او الحدين
فاذا تهاون بالصلا ... ة فما له في الناس من دين
ويزنّ ذو الحدث المري ... ب بما يزنّ به القرين
أن العفيف اذا تكنفه المري ... ب هو الظنين (٣)

فالأب يلمح إلى شروط يجب أن تتوافر في الصديق حتى يوثق بصداقته الا وهي حسن التدين أو القيام بواجباته الدينية ، ويخص الصلاة منهابالاهتمام الأكبر اذ أنه يرى أن تارك الصلاة لا دين له، ولعله هنا يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام " رأس الأمر وعموده الصلاة "(٤) وبالتالي من يتركها يكون قد

---

(١) العصر العباسي الاول ، الدكتور شوقي ضيف ،دار المعارف ط ٢ - مصر ١٩٦٦. ص ٦٨ - ٦٩ .
(٢) تاريخ الكامل، ابن الاثير الجوزي، المطبعة الازهرية المصرية ط١، ١٣٠١هـ ج٦،ص: ١٣٠
(٣) الاغاني ج ١٣ ، ٣٤٣.
(٤) مسند احمد ج ٥ ، ٢٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هدم ركنا من أهم أركان دينه فكأنه لا دين له . ومن هنا يريد من ابنه أن يحسن اختيار أصدقائه وفق ما رسمه للصديق الحسن او النموذج ، ثم يوضح له بعد ذلك أهمية الصديق وأثره على صديقه، فالذي يصادق أقران السوء يشاب بأخلاقهم ويتهم بما يتهمون به حتى لو كان على غير ذلك . فالأبيات توضح مدى اهتمام الأب بتدين ابنه الحسن وقيامه بالواجبات الدينية كاملة ثم حثه على اختيار أصدقائه ممن هم على شاكلته في التدين .

وليس كل النصح على هذا المستوى الاخلاقي الذي يؤدي الى خير الابن وصالحه . فقد وجد من الآباء الشعراء من نصح ابنته بما فيه شقاؤها وبما هو غير اخلاقي حسب ما هو متعارف عليه . قال أبو دلامة موصيا ابنته : -

سبّي الحماة وابهتي عليها ... وإن أبت فازدلفي اليها
ثم اقرعي بالعود مرفقيها ... وجدّي الخلف به عليها (١)

فالشاعر يوجهها إلى الطريق التي تستطيع من خلالها أن تحقق ما تريد من سب لها وإفتراء عليها ، الا وهي التقرب منها والتودد لها حتى تكسب ثقتها وبالتالي تحقق ما تريد من الاساءة اليها . وليست الحماة وحدها هي التي يوصي أبو دلامة لبنته به شرا بل بقية الجماعة التي ستساكن في موقعها الجديد بعد الزواج : -

أوصيت من برّة قلبا بـرّا ... با لكلب خيرا والحماة شرّا
لا تسأمي خنقا لها وجرّا ... والحيّ عَمّيهم بشرّ طرّا
وإن كسوك ذهبا ودرا ... حتى يروا حلو الحياة مرّا (٢)

فهو في حين يؤكد لها أن تعامل حماتها بالسب والضرب والخنق يوصيها أيضا بمعاملة جميع من سيكونون حولها معاملة مماثلة في السوء حتى وإن عاملوها معاملة حسنة وكسوها الذهب والجوهر وذلك لتحول حياتهم الى جحيم ، وهو بالمقابل يوصيها بمعاملة الكلب معاملة حسنة ، ولا أدري ما الذي دفع أبا دلامة الى هذا النصح ، فهو ينصح ابنته عكس ما كان يفعل الآباء وما يجب ان يفعلوا في مثل هذا الموقف تماما فمن المتعارف عليه أن الآباء يوصون بناتهم خيرا بأقارب ازواجهن . كما يوصونهن بضرورة التمسك بالخلق

---

(١) العقد الفريد ج ١ ، ٣٢٨
(٢) المصدر السابق ج ١ ، ٣١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطيب والمعاملة الحسنة ولكن قد تكون هذه نادرة من نوادر أبي دلامة وجزءا من ظرفه الذي عرف عنه وإن كان غير ذلك فهو يصور بعضا من افراد المجتمع من الآباء غير المسؤولين في تربية أبنائهم ونصحهم وارشادهم . كما ان الابيات تصور جانبا من جوانب الأسرة ومشكلاتها في العصر العباسي وهو العداء التقليدي بين الحماة وزوجة الابن .

ومن علامات الود والحب عند الأب الشوق والحنين لأبنائه ،وأحلاه ما كان من الأب لأبنائه الصغاروقد أكثر بعض الشعراءمن شعرهم فيالشوق والحنين الى أبنائهموعلى رأسهم اسحاق بن ابراهيم الموصلي اذ قال خرجت في رحلة مع الواثق الى النجف وانحدرت الى الصالحية،فذكرت الصبيان وبغداد فقلت .

أتبكي على بغداد وهي قريبة ... فكيف اذا ما ازددت منها غدا بعدا
لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى ... لو أنّا وجدنا عن فراق لها بدا
اذا ذكرت بغداد نفسي تقطعت ... من الشوق او كادت تموت بها وجدا
كفى حزنا ان رحت لم استطع لها ... وداعا ولم أحدث بساكنها عهدا (١)

فالشاعر يبدو في حالات جاده من الشوق والحنين لأهله الذين يسكنون مدينة بغداد فهو ما إن اقترب منها حتى أحسّ برغبة بالبكاء ووجدا وحنينا لأهله فيها . وتتمة الرواية السابقة أن الواثق سأله : يا موصلي اشتقت الى بغداد ؟ فرد عليه : لا والله يا أمير المؤمنين ولكن من أجل الصبيان ، وقد حضرني بيتان فقال هاتهما فأنشد : ـ

حننت الى الأصبيّة الصغار ... وشاقك منهم قرب المزار
وأبرح ما يكون الشوق يوما ... اذا دنت الديار من الديار (٢)

فالشوق والحنين يكون عادة إلى الصغار من الأولاد لما لعلاقة الصغير بأبيه من طبيعة خاصة تثير اشتياقه اليه ان ابتعد عنه . ويوضح الأب الشاعر أنّ شوقه يزداد اذا ما اقترب من ديار اهله وأحبته ، وهكذا كان ، فعندما اقترب من بغداد ازداد احساسه بالشوق الى صبيته الذين يسكنونها .
وليس قرب الشاعر من دياره وأهله هو وحده الذي كان يثير حنينه إلى أبنائه فان لصوت الحمام أيضا دورا في اثارة هذا الشعور.قال محلّم بن عوف : ـ

---

(١) الاغاني ج ٥ ، ص : ٣٥٧
(٢) المصدر السابق ج٥ ، ص : ٣٥٨ ومعجم الأدباء ج ٣/٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأرقني بالليل صوت حمامة ... فبحت وذو الشوق القديم يبوح
على أنها ناحت ولم تذر دمعة ... ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخي مهامة فيح (١)

فصوت هذه الحمامة قد ذكّره بأبنائه الذين كان بعيدا عنهم ، فبكى بدمع سرب شوقا اليهم وأرق ليله ذاك وقد عجب من شدة وجد الحمامة اذ تبكي وفرخاها قريبان منها ، فكيف لا يبكي وأبناؤه بعيدون عنه، بينه وبينهم مساحات واسعة .

ومن مظاهر حب الآباء لأبنائهم الحزن عليهم والجزع لفقدهم، فالفجيعة بالأبناء من أكثر القضايا بروزا في شعر الأبوّة وأعظمها تأثيرا في نفوس قارئيها ، ولا غرابة في ذلك ، فالفجيعة بالابن من اشد لحظات الحياة قسوة وألما ومن أكثر التجارب الانسانية خصبا في الاعمال الفنية ، اذ ان المعاناة التي يعانيها المفجوع بابنه كبيرة بلا شك وبالتالي فإن الشعر المنشود سيكون غزيرا ومتدفقا في الكم وفي التركيز العاطفي فالشاعر حينما يفجع بابنه يرثيه رثاء حارا يسكب من خلاله دموعه وحسرته لفقد فلذة كبده ويؤبنه تأبينا حارا يذكر فيه مناقبه الحميدة سواء كانت موجودة أم مأمولة .

وقد أكثر الشعراء في هذا العصر من رثاء ابنائهم حتى " لقد نشط الرثاء في هذا العصر نشاطا واسعا ، " فلم يمت خليفة ولا وزير، ولا قائد الا وأبنوه (٢) ، فاذا كان الرثاء الرسمي قد شاع مثل هذا الشيوع، فإنه من باب أولى أن يرثي الشعراء أهليهم وأبناءهم ممن فقدوهم ، وهم أقرب اليهم وأشفق .

ويلاحظ في رثاء الآباء لأبنائهم أنّ ثمة تشابها كبيرا في معالجة الموضوع الا أنه توجد بعض الأمور التي يفترق عندها الشعراء بعضهم عن بعض ، فيتميز كل واحد منهم بأشياء تخصه دون غيره ، وسأعرض لهذا كله فيما يلي : -

---

(١) بدائع البدائه ، علي بن ظافر الازدي ، المطبعة المصرية ،١٣٧٨هـ ،ج١/١٠٤.
(٢) الأدب في ظل الخلافة العباسية ، د. علي جميل مهنا ،مراكش : المغرب، مطبعة النجاح الحديثة ١٩٨١ ص : ١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان الدارسون قديما وحديثا يعرّفون الرثاء بانه حزن وبكاء وتوجع، ومن هنا فقد كان حزن الشاعر الفاقد فلذة كبده حزنا عظيما،وبكاؤه بكاء عزيرا وتوجعه عليه توجعا كبيرا ، وقد أسهب الشعراء في وصف أحزانهم تلك اسهابا واسعا . والحزن على الأبناء ليست ميزة الشعراء هذا العصر فقط ذلك أن الحزن لفقد الاولاد هو قضية انسانية عامة يشترك فيها جميع البشر ، وقد حزن الشعراء الجاهليون لفقد أبنائهم ورثوهم رثاء حارا ولعل من أشهرهم أبا ذؤيب الهذلي الذي فقد عددا من أولاده .(١)

وقد تابع الشعراء الاسلاميون سابقيهم الجاهليين في بكائهم أبناءهم وقد وجدوا في حزن الرسول عليه الصلاة والسلام لوفاة ابنه ابراهيم (٢) قدوة لهم في أحزانهم وبكائهم واستمروا على ذلك في العصر العباسي ،(٣) اذ بكى شعراء هذا العصر أبناءهم بكاء حارا وحزنوا عليهم حزنا شديدا ، وقد وصف المتنبي الحزن على الولد بقوله : -

ما عالج الحزن والحرارة في الا حشاء من لم يمت له ولد(٤)

من الذين جزعوا لموت أبنائهم الخليفة المهدي ، فقد ذكر الطبري في كتابه أخبار الأمم والملوك " أنه كان للمهدي ابنة اسمها البانوته سمراء حسنة القد حلوة ماتت وذلك ببغداد ، أظهر عليها المهدي جزعا شديدا لم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه ، وأمر الا يحجب عنه أحد فأكثر الناس في التعازي واجتهدوا في البلاغة".(٥) وهذا الحزن أقل ما يمكن أن يفعله

---

(١) شرح أشعار الهذليين ٣ج١ ،٣٢٠ .

(٢) ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام انه دخل على ابنه ابراهيم وهو يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله عليه الصلاة والسلام تذرفان فقال له عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه : وانت يا رسول الله؟ فقال يا ابن عوف انها رحمة ، ثم اتبعها باخرى ،فقال صلى الله عليه وسلم ان العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضي ربنا وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون " صحيح البخاري القاهرة ، مطبعة دار الفكر ،١٩٨١، ج٢ ، ٨٥.

(٣) أنظر في ذلك كله كتاب الدكتور مخيمر صالح : رثاء الأبناء .

(٤) الكامل ج ١ ، ٢٥ .

(٥) تاريخ الامم والملوك ج ٦ ، ٤٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأب اذ أن مثل هذا المصاب يفطـــر القلب هما وحزنا ولعل هذا هـــو الذي دفع المهدي لتقبل التعازي في ابنته " اذ لم تكن العرب تعزي فـــي المرأة الا أن تكون أما .(١)

فالحزن من الأمور البارزة ، بل هو الأمر البارز في شعر الرثـــاء عامة ورثاء الأبناء خاصة ، وقد أكثر الشعراء من وصف هذا الحزن وأبدعـــوا في ذلك ابداعا أثرّ في قارئيهم فجعلوهم يتعاطفون معهم اذ أحسوا بعمـــق المصاب الذي أصابهم .

قال القاسم بن يوسف في رثاء ابنه محمـــد : -

هوّن رزئي بك الرزايـــا علـيّ في الناس أجمعينـــا (٢)

ومن الذين أسهبوا في وصف أحزانهم لفقد الولد ، ابن الرومي فقدّ فقد ثلاثـــة من الأولاد ، وقد قال في رثاء ابنه هبة الله : -

أبني إن أحزن عليـك فلـي في آن فقدتك ساعة حـــزن
وإن افتقدت الحزن مفتقـــدا لبيّ لفقدك للحري القمـــن
بل لا أخال شجاك تعدمـــه روح التمّ بها ولا بـــدن (٣)

فموت ابنه من أقسى لحظات حياته ، لذا فالحزن عليه ليس كثيرا ، بل سيكـــون حزنا دائما طالما هو مالك لعقله ، فإن تركه فلن يكون ذلك بطوعه وإنمـــا نتيجة لفقد عقلـه .

وقد يخلط الشاعر وصف أحزانه بالتحسر والتفجع تعبيرا منه عن عمـــق مصابه وشدة خسارته بابنه ، قال القاسم بن يوسف في رثاء ابنه : -

أسفا عليك أبا علـــي والمنايا رُصَّـــد
أسفا عليـك أبا علـــي يوم ضمك ملحـــد

---

(١) العقد الفريد ، ج٢ ، ٢٦٤
(٢) الاوراق ٢٠٣
(٣) ديوان ابن الرومي ، ج ٦ ، ص ٢٥١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال :

أسفا عليك بجمرة بين الحشا تتوقد
أسفا عليك بحرقة وحرارة لا تبرد
يبلى الزمان وحزنها بمحمد يتجدد (١)

فالشاعر دائم التحسر على الحال التي آل اليها ابنه حيث ضمه اللحد وذهب دونما رجعة ، وهذه الحال هي التي جعلت حشاه تذوب حرقة وتوقدا ، مما جعل حزنه ملتهبا ودائما ، لا يزول أبدا بل هو دائم التجدد بمرور الأيام عليه . وشبيه بهذا قول ابن الرومي : -

يا حسرتا فارقتني فننا غضا ولم يثمر لي الفنن(٢)

ومن الأمور التي زادت من حسرة الشاعر موت ابنه في ريعان الشباب، وبما أن الابن يمثل أملا ، يرنو اليه الأب بتطلعات واسعة فان موته صغيرا دون ان يحقق الأب أيا من هذه التطلعات ، يزيد من ألمه وحسرته .

ومما كان يزيد في ألم الشاعر ذكرياته مع ابنه ، اذ أنها كانت توري له نار الشوق فتتوقد في أحشائه فتلهبها ، فيلهج لسانه بشعر فيه نتاج هذا الألم وهذه الحسرة فقال ابن الرومي مخاطبا ابنه المتوفى : -

كأني ما استمتعت منك بنظرة ولا قبلة آحلى مذاقا من الشهد
كأني ما استمتعت منك بضمة ولا شمة في ملعب لك او مهد(٣)

فتلك اللحظات السعيدة التي كان يقضيها مداعبا ابنه ضاما له ومقبلا اياه قد اصبحت ذكريات في خيال الشاعر بعد أن كانت حقيقة تملأ يديه ، لذا فان هذه الذكريات تقلب الشاعر على جمر من نار فتزيد في لهيب ذاك الحزن .وقد تمتد هذه الذكريات فتدفع الأب لأن يستعرض أحوال ابنه وصفاته المادية والمعنوية بكثير من الاعجاب والحب .

(١) الاوراق ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
(٢) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ص ٢٥١٥ .
(٣) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٦٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال ابراهيم بن المهدي في ابنه : -

كأن لم يكن كالغصن في ميعة الضحى ... سقاه الندى فاهتز وهو رطيب
كأن لم يكن كالدر يلمع نوره ... بأصدافه لما تشنه ثقوب
وريحان قلبي كان حين أشمه ... ومؤنس قصري كان حين أغيب
وكانت يدي ملأى به ثم اصبحت ... بعدل الاله وهي منه سليب

إن حزن ابراهيم بن المهدي في ذكرياته لابنه يلمس ويحسّ ، فهو يتذكر ابنه الذي كان يملأ حياته بشبابه وجماله فكان كالدر جمالا ونقاء وكالريحان رائحة وزينة لحياة أبيه ، وإن غاب الأب كان يقوم مكانه فيرعى قصره ويؤنسه وفجأة ضاع كل شيء بموته . ان مثل هذا الشعور وتلك الذكريات الحبيبة الى نفسه تجعله : يحس بالضياع والحسرة والألم من جديد.

ومن الشعراء من عايش لحظات مرض ابنه الذي أودى بحياته ... فكان لا يلبث يتذكر حاله وهو يموت لحظة بعد اخرى فكان ذلك مبعثا آخر من مباعث الحزن والألم له . ومات طفل لابن الرومي اثر نزيف أصابه فقال ابن الرومي يصف التحولات التي أصابته واثر ذلك على أهله :-

ألحّ عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجاديّ عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه ... ويذوي كما يذوي القضيب من الرند (٣)

إنّ حال ابنه ، وقد تغير لونه من حمرة الورد الى صفرة الزعفران وتلاشت نفسه مرحلة بعد مرحلة كانت تلهب نفسه حزنا وأسفا خصوصا أنه استشعر عجزه عن أن يعمل شيئا يمكن ان ينقذ هذا الابن العزيز . ومن الذين عاشوا هذه اللحظات المؤلمة أبو القاسم بن يوسف فقال يصف لحظات نزع ابنه : -

---

(١) التغازي والمراثي ، ١٥٣ - ١٥٤ والكامل ج ٤ ، ص ٢٤ مع اختلاف بعض المفردات وترتيب الأبيات .
(٢) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص : ٦٢٥
(٣) الاوراق ص ٢٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آخر عهدي به صريعـــــا للموت بالذل مستكينـــــا
يشخص طورا بناظريـــــه وتارة يكسر الجفونـــــا
اذا شكا غصة وكربـــــا لاحظ او رجع الانينـــــا
يدير في رجعه لسانـــــا يمنعه الموت أن يبينـــــا
ثم قضى نحبه فأمســـــى في جدث للبلى رهينـــــا (١)

فلحظات النزع الاخيرة كانت مشار ألم دائم للأب الذي وقف عاجزا لا يستطيع عمل شيء ، فالموت من اللحظات القاسية التي يقف الانسان ازاءها صامتا دون ان يقدم شيئا فهو الحدث الذي يعجز أمامه اقوى البشر وأكثرهم جبروتا قال القاسم بن يوسف موضحا عجزه امام الموت : -

دافعت الا المنون عنـــه والمرء لا يدفع المنونـــا (١)

فالموت هو قضاء الله الذي لا ينفع معه عمل أب او غيره ولكن ان كان هذا هو موقف الأب في مواجهة لحظات الموت فان موقفه لم يكن كذلك قبلئذ ، اذ كان يعمل من قبل ما وسعه العمل وما هو قدرته حتى يشفى ابنه من المرض حتى ينقذه من براثن الموت ، قال ابراهيم بن المهدي :

جمعت أطباء العراق فلم يصب دواءك منهم في البلاد طبيب
ولم يملك الآسون دفعا لمهجة عليها لأشراك المنون رقيب (٢)

فقد جمع الأب الأطباء حتى يعثروا على الدواء الشافي لابنه ، ولكن لم يهتد اي منهم الى مثل هذا الدواء إن أحداً منهم لم يستطع التغلب على الموت الذي كان يهجم على ابنه هجوما قويا ، فالأب يحاول كل ما يمكنه لحماية أولاده من المرض او غيره. وقد يقدم في سبيل ذلك فوق طاقته ، ولكن عندما يحتم القضاء لا ينفع معه عمل أو أمل، وقديما قال ابو ذؤيب الهذلي بيتا مشهورا : -

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفـــع (٣)

---

(١) الأوراق ، ص : ٢٠٣
(٢) المصدر السابق والصفحة ذاتها -
(٢) التعازي والمراثي ١٥٥، واشعار اولاد الخلفاء ، ٤٥ .
(٣) التعازي والمراثي ، ٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما كان يثير حزن الشاعر كذلك الحال التي أصبح عليها ابنه المتوفى، وقد أبدع الشعراء في وصف ذلك ابداعا جعل قارئيهم يحسون معهم احساس اللوعة والحزن قال دعبل الخزاعي في رثاء ابنه أحمد : -

على الكره ما فارقت أحمد وانطوى عليه بناء جندل ورزين
وأسكنته بيتا خسيسا متاعه وإني على رغمي به لضنين(١)

فهذه الحال التي اصبح عليها ابنه من وحدة تحت التراب والحجارة جعلت الشاعر يدرك مدى صعوبة الحال التي آل اليها بالاضافة الى خسة البيت الجديد - القبر - الذي أسكنه اياه رغما عنه ولو كان باختياره لأسكنه بيتا أفضل وقال القاسم يصف الحال الذي اصبح عليها اولاده : -

غاب الأحبة غيبة وكأنهم لم يشهدوا
وارتهم حفر البلى فممهد وموسد
هجروا بدار لا يهـ ب بها النيام الهجد
حلوا على قرب الجوا ر كما يحل الأبعد
فكأنهم حيث استقـ ل من السماء الفرقد(٢)

فقد أصبح أبناؤه بعيدين بغيبتهم الأبدية تلك كأن لم يكونوا موجودين من قبل . والشاعر يحس ببعد أبنائه عنه احساسا عميقا جعله يتحسس وجودهم من قبل فالحال التي اصبحوا عليها توهم بأنهم لم يكونوا موجودين من قبل ، فقد أصبحوا في مقابرهم هذه بعيدين غرباء رغم قربهم من قلب الأب ونفسه ، ولكن هذه هي حال الموت يجعل أقرب الناس وأحبهم بمشابة الغريب . ويشبه الشاعر حال أبنائه في حياتهم وموتهم بنجم هوى من السماء سريعا لم يكد رائيه يملأ عينيه منه حتى غاب ، وهكذا كان أولاده كذاك النجم أهمية ومكانة بالنسبة لأبيهم ولكن الموت لم يمهلهم بل سرعان ما خطفهم وهم في ريعان الشباب .

والشعر الذي يتحدث عن غربة الابن الراحل كثير ، فقد قال ابراهيم ابن المهدي يصف هذه الغربة التي آل اليها ابنه : -

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي ، ص : ١٥١
(٢) الأوراق ، ص : ٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبدل دارا غير داري وجيـــــرة سواي وأحداث الزمان تنـــوب
أقام بها مستوطنا غير أنـــه على طول أيام المقام غريـــب (١)

فكأن ابنه اختار بطوعه دارا غير دار أبيه ورغب عن جيرته الى سواه ، فاتخذ هذه الدار موطنا أبديا له ، وهو غريب طالما هو فيها . ولعل هذا الرحيـــل هو الذي كان يثير ألم الشاعر وحزنه ، فالأب كان يرى أن مكان ابنه هـــو الى قربه وجواره ، ولكنه أبدل بهذا القرب وهذا الجوار بعدا أبديـــا سيجعله غريبا طول بقائه في هذا المستوطن الجديد .

ومن الأمور الاجتماعية الأخرى التبنـــي تزيـــد من وقـــع المأساة على الأب تلك النظرة التي كان يبديها الشامتون مما زاد من ألـــم الأب وحزنه ، ولكنه لم يهن او يضعف ازاء ذلك بل سرعان ما كان يذكرهم بـــأن الموت حق واجب على جميع الناس ولن يسلم منه شامت ولا حاسد وانّ ما أصابـــه اليوم قد يصيبهم غدا ، وقد بلغ مقدار الاهتمام بهؤلاء الشامتين أن بعـــض الشعراء لم يكتفوا بالاشارة اليهم من خلال قصائدهم في رثاء الأبناء ، وإنمـــا قصر بعض القصائد والمقطوعات الشعرية على وصفهم والرد عليهم ومن ذلـــك ما قاله أبو تمام مخاطبا اياهم : -

لا يشمت الأعداء بالموت اننـــا سنخلي لهم من عرصة الموت موردا
ولا تحسبن الموت عارا فإننـــا رأينا المنايا قد أصبن محمدا
ولا يحسب الأعداء أن مصيبتـــي أكلّت لهم مني لسانا ولا يـــدا
تتابع في عام بني واخوتـــي فأصبحت ان لم يخلف الله واحـــدا (٢)

فالموت مورد سيرده الجميع عاجلا أم آجلا ولا شماتة فيه فهو ليس عارا . امـــا مصيبته في ابنه فهي وان كانت عظيمة الا انها لن تضعفه ولن تجعله يتقاعـــس عن مواجهة اعدائه سواء كان ذلك بلسانه أم بيده .

وليس كل الآباء كأبي تمام قوة ، فمنهم من أثرّت فيه شماتة الواشين تأثيرا جعله ينقم على كل شيء حوله من هؤلاء أبوعبدالله العتبي فقد توفـــي له بنون كان آخرهم يكنى أبا عمرو فقال :

---

(١) اشعار اولاد الخلفاء ، ص : ٤٤
(٢) ديوان ابي تمام شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ط ٣ ج ٤ ، ص ٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد شمت الواشون بي وتغيرت وجوه أراها بعد موت أبي عمرو
تجري عليّ الدهر لما فقدته ولو كان حيّا لاجترأت على الدهر
أسكان بطن الارض لو يقبل الفدا فدينا وأعطينا بكم ساكني الظهر(١)

فموت أبنائه جعله ضعيفا يتجرأ الناس عليه ولم يكونوا يفعلون ذلك من قبل ، اذ كان قويا بأبنائه ولكنه بدونهم أصبح ضعيفا لذا فهو يشور سخطا على الناس من حوله ويتمنى لهم جميعا الموت فداء لأبنائه . ولعل هذا مما يصور عمق الفاجعة التي زاد من مرارتها الوشاة الشامتون .

وقد أخذ الحزن من بعضهم كل مأخذ فترك علامات وتقرحات على أجسادهم وفي نفوسهم الى آخر العمر ، فكل حزن يبلى الا الحزن لفقد الولد، قال أبو عبدالرحمن العتبي في رثاء ولده : -

واوطنت حرقة حشاي فقد ذاب عليها الفؤاد والكبد
ما عالج الحزن والحرارة في الاحشاء من لم يمت له ولد
فكل حزن يبلى على قدم الد هر وحزني يجده الأبد(٢)

فحزنه على ابنه تركه مذاب القلب والكبد فلا غرابة والحال هكذا ان يدوم حزنه الى آخر العمر .

أما القاسم بن يوسف فقد كاد الحزن ان يقطع منه حبل الوتين كما يقول:-

تصرف بي الدهر صروفا وعاد لي شانه شئونا
أصاب مني صميم قلبي وكاد أن يقطع الوتينا(٣)

فموت ابنه مصاب أصاب صميم قلبه وكاد أن ينهي حياته. ومن مظاهر الحزن كآبة النفس فقد ترك موت الابن الأب أسير حالة نفسية صعبة فهو مسلوب الفؤاد يعيش حالة من الكآبة المقيتة وقد أحس أن ابنه ذهب دون عودة ، قال ابراهيم بن المهدي يصف هذه الحال : -

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ص : ٧٦٦
(٢) الكامل ص ٢٥٠
(٣) الاوراق ص ٢٠٤ ، والوتين : عرق في القلب اذا انقطع مات صاحبه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نأى آخر الأيام عنك حبيب فللعين سحّ دائم وغروب
دعته نوى لا يرتجى آوبة لها فقلبك مسلوب وأنت كئيب (١)

ولعل أهم مبعث لهذه الكآبة أن حياة الشاعر كانت مليئة بهجة وأملا بوجود ابنه وعندما فقده وأحسّ أنه فقد أبدي لا عودة منه أحس بهذه الكآبة. ولعل قوله آخر الأيام يدل على تقدم الشاعر في السن عند رحيل ابنه ،وهذه السن تجعل الأب أكثر حرصا على حياة ابنه للحاجة النفسية المتمثلة في الاطمئنان على من يخلفه في الحياة بجميع عناصرها ،وللحاجة الجسمية المتمثلة في رعايته جسميا وصحيا وهذا كله ما يزيد في الاحساس بالألم والكآبة .

ومن مظاهر الحالة النفسية الصعبة التي قد يعيشها الأب المصاب بابنه الغربة النفسية ومن الذين عاشوا هذه الغربة بشار بن برد حيث قال : -

كأني غريب بعد موت " محمد " وما الموت فينا بعده بغريب (٢)

فموت ابنه جعله يعيش حياة غربة بين أهله وأقرانه اذ أن ابنه كان أقرب الناس إلى نفسه وأحبهم اليها وبموته فقد ركنا هاما من حياته إن لم يكن أهم اركانها على الاطلاق . واذا اخذنا حياة بشار موقع اهتمام من حيث قلة اصدقائه ومحبيه فلا نعجب من شعوره هذا وقد فقد ابنه ، وليس هذا فحسب بل ان الموازين اختلت لفقد هذا الابن ففي حين أصبحت الحياة من بعده وهي حياة "ود وألفة " حياة غربة . وأصبح الموت الذي يراه الناس غريبا ليس بغريب فكأن موت ابنه أبطل هذه الغربة من جهة ونقلها الى حياته فأصبحت حياته هي الغريبة . ومن الذين طرقوا هذا المعنى ايضا ابن الرومي اذ قال : -

وأنت وان افردت في دار وحشة فإني بدار الانس في وحشة الفرد (٣)

فحال ابنه ليست بأصعب من حاله وإن ترك وحيدا في قبره ، فهو يعيش مثل هذه الحياة الموحشة بين الناس وهذا دليل على وضعه الصعب الذي آل اليه بوفاة ابنه .

---

(١) الكامل ص ٢٣
(٢) ديوان بشار جمع وشرح وتعليق الامام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية - الجزائر ١٩٧٦،ج١،ص ٢٧٩.
(٣) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص ٦٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أهم مظاهر الحزن البكاء الدائم على الفقيد المتوفى ، فقد بكى الانسان لفراق احبته فرقة مؤقتة فكيف وقد عرف أن فراقهم أبدي وأن هؤلاء الأبناء هم أغلى من في الوجود وما في الوجود ، لذا فقد ذرف الآباء الدموع العزيزة لفراق ابنائهم ، خاصة وأنهم أمام المصاب الجلل أحسوا بحاجة إلى شيء يعطي الابن حقه من الحب والوفاء وقد عجزوا عن حمايته من الموت بالاضافة الى حاجتهم هم الى شفاء أنفسهم مما بها من ألم وحزن. وقد أكثر الشعراء من البكاء ووصف غزارة دموعهم ، فقد ترك ابراهيم بن المهدي العنان لعيونه تصب الدمع صبا فجرت جريانا لغزارتها قال : -

نأى آخر الأيام عنك حبيب فللعين سح دائم وغروب (١)

ولم يكتف الشعراء بسح الدموع عند الحدث أو عند تذكرهم الفقيد ، وانما بكوا ابناءهم زمنا طويلا استمر عند بعضهم لآخر العمر . وقد أصروا على موقفهم هذا من استمرارية البكاء ، اذ أنهم رأو ان ذلك دليل على استمرارية الحزن ، واستمرارية الحزن دليل على بقاء الفقيد في ذاكرة الأب فهو دليل على وفاء من الباكي : وقد تطرق الشعراء لهذا بالحديث فقد قال ابراهيم بن المهدي مخاطبا ابنه المتوفى : -

سأبكيك ما ابقت دموعي والبكا بعينيّ ماء يا بني يجيب
وما غار نجم اوتغنت حمامة او اخضر في فرع الأراك قضيب
حياتي ما دامت حياتي فان أمت ثويت وفي قلبي عليك ندوب (٢)

فالشاعر يؤكد ديمومة بكائه على ابنه ما وجد في عينه ماء بل يذهب الى أكثر من ذلك فهو سيبكيه كلما غار نجم او غنت حمامة او اخضر غصن آراك اي طيلة حياته ، وحتى يحقق الشعراء ما أرادوا من ديمومة البكاء على أبنائهم فقد حثوا دموعهم للاستمرار في البكاء وعلى الجود بالدموع. قال ابن الرومي مخاطبا عينيه : -

أعيني:جودا لي فقد جدت للثرى بأنفس مما تسألان من الرفد
أعيني :ان لا تسعداني ألمكما وان تسعداني اليوم تستوجبا حمدي(٣)

---

(١) اشعار اولاد الخلفاء ص : ٤٤
(٢) المصدر السابق نفسه ص : ٤٤
(٣) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص ٦٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يطلب من عينيه ان تجودا له بالدمع وهو مطلب غير عسير فهو قد جاد للثرى بفلذة كبده ، وهو أثمن بكثير من الدموع .

وابن الرومي واحد من الشعراء الذين يصرون على ديمومة البكاء، وسكب الدموع الغزيرة ، رغم علمه بأنها لا تفيد ، قال مخاطبا ابنه الراحل : -

سأسقيك ماء العين ما أسعدت به وان كانت السقيا من الدمع لا تجدي(١)

ولكنه ربما أراد ذلك لعلمه أن البكاء يعقب راحة ويريح النفس ، وقد عرف القدماء فائدة الدمع ، فاطلقوا العنان لدموعهم المدرارة ، ومن أشهر من طرق هذا المعنى الشاعر ذو الرمة في بيتيه المشهورين (٢). وقد تابع الشعراء العباسيون سابقيهم فعرفوا ان في البكاء شفاء للنفس مما يلمّ بها . قال ابن الرومي ايضا في مطلع قصيدته التي يرثي فيها ابنه الأوسط : -

بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي فجودا فقد اودى نظيركما عندي(٣)

فهو يقرر منذ مطلع القصيدة الغاية من البكاء اذ انّ فيه شفاء للنفس من أحزانها وآلامها ، ولكنه لن يفيد بحال من الأحوال في استرجاع ما فقد الذي يعادل عينيه أهمية ومحبة .

ومن الشعراء من رأى نفسه عاجزا عن وصف حاله لشدة ألمه في مصابه خاصة اولئك الذين ثكلوا بأكثر من واحد ، فأحسوا بقاصمة الظهر، قال ابو عبدالرحمن العتبي وقد تتابع له بنون : -

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٦٢٦.

(٢) البيتان هما : -

خليلي عوجا من صدور الرواحل ببرقة حزوى فابكيا في المنازل
لعلّ انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد او يشفي نجي البلابل

ديوان ذي الرمة ،تحقيق عبدالقدوس ابو صالح ، مطبعة طربين ، دمشق، ١٩٧١ م ج٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٣) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٦٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل لساني عن وصف ما أجـــد . وذقت ثكلا ما ذاقه احـــد .
وأوطنت حرقة حشاي فقـــد . ذاب عليها الفؤاد والكبـــد (١)

وكيف لا يحس بكل هذا الألم وهذه الحرقة وقد فجع باثنين ليس بينهما الا ليـــال قليلة كما قال : -

فجعت باثنين ايست بينهمـــا الا ليال ليس لها عـــدد (٢)

لذا فان حزنه عليهم أبدي اذ يتجدد مع الأيام : -

فكل حزن يبلى على قدم الـــد هر وحزني يجده الأبـــد (٣)

ولقد بكى الشعراء مناقب أبنائهم مثلما بكوا نفوسهم المحزونـــة وقلوبهم المجروحة بفقد أبنائهم وقلة هم هؤلاء الذين لـــم يعـــدوا تلك المناقب ، ولكل من هذه القلة أسبابها الخاصة (٤). ولقد تنبه الدارســون الى شيوع هذا الأمر في قصائد الرثاء ، وحاولوا ايجاد تفسيرات لذلك ، قـــال شوقي ضيف ونحن نجده - التأبين - دائرا على ألسنة الرجال والنساء، فهـم جميعا لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين ، بل يضيفون اليه إشادة بالميـــت ومناقبه "(٥) . وقد أكثر الشعراء من هذه الاشادة حتى رأى بعضهم ان ذكـــر شمائل المرثي ومناقبه من أصعب ما يعالج الشاعر في مضمار الرثاء لتـــداول معانيها واشتراكها مع معاني المديح (٦) ، والسؤال الذي يطرح نفسه مـــا السر في اصرار الشعراء قديما وحديثا على ذكر مناقب موتاهم ، هل هـــو تقليد بعضهم لبعض ،ربما ، ولكن هذا قد لا يكون تفسيرا مقبولا اذ لا بـــد من أمور تدفع الشاعر الى متابعة الآخرين في تعداد مناقب المرثي ســـواء كان قريبا او بعيدا . ويعلل الدكتور شوقي ضيف ذلك بقوله : " هم يبكـــون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية يبكون فيه الشجاعة والوفـــاء

---

(١) الكامل ج ١ ،٢٥
(٢) المصدر السابق نفسه ، ٢٥
(٣) نفسه ، ٢٥
(٤) رثاء الأبناء في الشعر العربي ، ص : ٣٨ وما بعدها فقد شرح الدكتور مخيمر صالح هذه الاسباب بالتفصيل.
(٥) الرثاء د. شوقي ضيف ،دار المعارف ، مصر ص : ٥٤.
(٦) الشعر والشعراء في العصر العباسي د. مصطفى الشكعة دار العلم للملايين بيروت - ط٢ ١٩٧٥ ص : ٥٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحماية الجار ، وكل ما يزين الرجل من صفات وخلال ... وكانما كان غرضهم من تأبينهم أن يصوروا تصويرا تاما مدى الخسارة والمصيبة في الفقيد".(١) ويعلل الدكتور مخيمر صالح ذلك عند الآباء بشكل خاص فيقول : " في رأينا ان الأب عندما يبكي تلك الفضائل إنما يبكي نفسه ايضا ، فلا غرابة والحال هذه أن يكثر الشاعر من بكاء هذه الصفات والتفني بها كثرة تجعلنا نحس أنه يحن اليها ، حنينه الى ابنه الفقيد "(٢) .

وأقول ان الناس اعتادوا في اغلب احوال الوفاة ان يذكروا للشخص المتوفي صفاته الحسنة وهذا يحصل إن كان المتوفي بعيدا فكيف إن كان فلذة الكبد التي يرى فيها الأب كل ما هو حسن وجميل في حياته حتى إن لم يكن كذلك ، وكيف يكون الأمر إن توفاه الله ، إن مصيبة الأب في ابنه في هذه الحال ستدفعه الى أن يلهج بصفات ابنه الحسنة سواء كانت موجودة على الحقيقة أم لا،يضاف الى هذا وضع مناقب الابن وصفاته المعنوية والجسدية في صورة مثالية تعبيرا عن المصاب وعظم الخسارة التي خسرها الشاعر بوفاة ابنه ، وهذا القول الأخير ينسحب على شعر رثاء الآباء والاخوة كما سنرى فيما بعد .

ومن الشعراء الذين عبروا عن عمق المصاب في أبنائهم القاسم بن يوسف اذ قال : -

أُصبت فيه وكان عندي ... على المصيبات لي معينا
كنت كثيرا به عزيزا ... وكنت صبا به ضنينا (٣)

فلقد كانت خسارته به جسيمة ، اذ فقد ابنا معينا له على أحداث الزمان، ففقد بفقده قوته ومنعته .

أمّا المناقب التي ذكرها الشعراء في ابنائهم فهي مناقب تعارف الناس على فضلها وعلى مدح اصاحبهابها كالشجاعة والكرم والعقل والعدل والعفة . قال ابراهيم بن المهدي في ابنه : -

---

(١) الرثاء ص : ٥٤
(٢) رثاء الأبناء ، ص : ٣٥ .
(٣) الاوراق ، ص ٢٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأن لم يكن كالصقر اوفى بشامخ الـ ذرى وهو يقظان الفؤاد طلـوب
كأن لم يكن كالرمح يعدل صـدره غداة الطعان لهذم وكعـوب
يفض الحديد المحكم النسج جـدّة ويبدو وراء القرن وهو خضيب (١)

فالشاعر ينوه هنا بقوة ابنه وبشجاعته ، فهو كالصقر قوة وهو يقظ القلـب عالي الهمة وهو كذلك كالرمح يخوض المعارك ويخرج بالظفر ، ويصارع الأبطـال فيصرعهم .

أما القاسم بن محمد فقد أضاف الى صفات ابنه النفسية بعض الصفـات الذهنية ، قال : -

وكان غرته رقيـق الشفرتين مهنـد
وفتى يزين لبـه أدب وراي محصـد
وعفافة وسماحـة وطلاقة وتـودد
ومهذب محض الضـرا ئب للصواب مسـدد
لقن بحجتـه اذا جمع الرجال المشهـد(٢)

فهو شجاع منذ صغره يصاحب السيف ، وهو حكيم ، أديب ، عفيف ، سمح ، مهـذب صاحب حجة ومنطق ورأي مسدد في مجمع الرجال .
أما الصفات الجسمية ، فقد قلّت بل ندر استخدامها ، وهي تدور حول جمال هيئـة المتوفى وحسن وجهه وطلعته ، ومنها تشبيهه بالبدر ، قال القاسم بن يوسـف في ابنه : -

كالبدر فارقه النجـو س وقارنته الأسعـد (٣)

فهو صاحب وجه جميل مضيء كالبدر يستبشر به بالفأل الحسـن.

ومن الأسباب الموجبة لعرض بعض الصفات الجسمية عند الشعراء أن يكون المتوفي طفلاً لم يبلغ عمرا يؤهله لأن يحوز مجدا او شجاعة او رأيا . ومن هنـا أحسّ بعض الدارسين بالصعوبة البالغة التي يواجهها الشعراء في رثـاء

---

(١) اشعار اولاد الخلفاء، ص ٤٤ - ٤٥ .
(٢) الأوراق ٢٠٤ - ٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأطفال فقال : - " ورثاء الأطفال مركب صعب للشعراء ،فان الطفل لم يصب مجدا يمكن أن يرثى من خلاله "(١) . لذا فقد لجأ الشعراء الى بكاء مستقبل الابن الطفل الذي كان يأمله فيه وهو ما يسمى بالأماني الضائعة . ومن الذين خاضوا هذا المجال بشار بن برد اذ قال : -

وقد كنت أرجو أن يكون " محمد " لنا كافيا من فارس وخطيب(٢)

فالفروسية والخطابة صفتان كان الشاعر يأملها في ابنه عندما يكبر ليقابل الفرسان ويجيب الخطباء الا أن القدر لم يمهله ليحققها فكان ذلك مما يزيد في ألم الشاعر وحرقته اذ أن هذا يزيد من احساسه بعمق المصاب وشدة الخسارة .

ورثاء الأطفال يكون مركبا صعبا للشعراء في الرثاء الرسمي الذي يرثي الشاعر فيه ابن غيره فلا يجد كثيرا مما يمكن أن يصف به الطفل المتوفى . اما عندما يكون المرثي ابنا للشاعر ففي هذا اختلاف ، اذ رغم ما ورد من بكاء الشعراء لأمانيهم الضائعة في ابنائهم الأطفال ، فان الأب ينظر لابنه من زوايا اخرى غير المجد والمستقبل المشرق اذ تربط به علاقة من نوع خاص لا يمكن تسميتها بغير كلمة الابوة . هذه العلاقة توجد نوعا من الحب والاعجاب بالطفل قد تفوق كثيرا اعجابه وحبه لابنائه الكبار الذين حققوا مجدا ، لذا لا أراني اغالي كثيرا اذا قلت : ان الأب قد يحزن لفقدان ولده الطفل في بعض الأحيان أكثر من حزنه لفقد ولده الشاب ، وقد لمس بعض الشعراء طرفا من هذه الأمور فبكوا ابناءهم الأطفال بطريقة تكاد تكون مؤثرة أكثر من الطريقة التي رثوا بها ابناءهم الذين ماتوا في سن الشباب او الرجولة .فالشاعر قد يبكي العلاقة التي كانت تربطه بابنه بما فيها من احساس الأب تجاه ابنه الذي كان بالنسبة له كالريحانة يراها بعينيه أجمل ما تكون ، ويشمها فتكون أزكى العطور : فذكرياته معه ضمن هذه الأوصاف بما في ذلك من الاستمتاع بنظراته وقبلاته التي هي أحلى من الشهد ... كل هذه الأمور جعلت الشاعر يطرق مجالا في رثاء ابنه الطفل أوسع وأفضل بكثير من بكاء أمان ضائعة.فن ذلك ما قاله أبو عبدالله العتبي في ابن توفي صغيرا : -

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص : ٦٧٨

(٢) الديوان ، ص : ٢٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان يكن مات صغيـــــــرا فالأسى غير صغيـــــــر
كان ريحاني فأمســـــى وهو ريحان القبـــــور
غرسته في بساتيـــــــ ن البلى أبدي الدهـــور(١)

فالأب لا يهمه إن مات ابنه صغيرا كان أم كبيرا ، فهو في مواجهته للحـــــدث لا يقوم بحساب الخسائر التي خسرها به وبالتالي لا يهمه الا ان ابنـــــه الحبيب الى قلبه قد ذهب دونما رجعة . فهو كان ريحان حياته يزينها بجمالـــه وراحته ، والآن وقد ضمّه القبر ترك حياة أبيه ليزين القبور من حولـــــه فهو، بدل أن يكون غرسة طيبة في الحياة، نقلته المقادير ليكون غرســـــة للبلى وشتان ما بين الغرستين، سواء كان ذلك بالنسبة للابن المتوفي نفســـه او لأبيه الذي كان يطمع في رؤية هذه الغرسة الطيبة تنمو وتزهر ، فلـــــم تلبث أن أصابها البلى والتآكل ثم التلاشي . فلا شك انه موقف صعب لـــــلأب الذي عاش هذه اللحظات وفكر في نتائجها ، ولكن لم يكن للانسان ولن يكـــون له يد فيما قدر له من الموت أيا كانت صفات المتوفي ومناقبه ، وأيـــــا كان عمره أو قربه ، وما على الأب الا التعزي والتأسي بأحوال الزمـــــان وتغير الأحوال والصبر حتى يؤجر على عمله هذا في الآخرة وحتى يستطيـــــع لملمة احزانه في الدنيا والانطلاق من جديد .

" ومن المعاني التي ترددت في رثاء الآباء تعبيرهم عن مواقفهم من الحـــــدث فقد اختلف الشعراء فيها ، فمنهم من استسلم للأمر وتقبله صابرا محتسبـــــا اياه عند الله تعالى مؤمنا يشينه . ولم يكن ليفعل ذلك لولا أنه قـــــد علم بأن الله قد أعد للصابرين على المصائب أجرا عظيما خاصة في مصـــــاب فقد الولد قال الله تعالى في كتابه الحكيم " الذين اذا اصابتهم مصيبـــة : قالوا ان لله وانا اليه راجعون ، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمـــــة ، واولئك هم المهتدون "(٢)، وقال رسول الله صلى الله عليـــــه وسلـــم : ايما مسلمـــ مضى لهما ثلاثة من اولادها لم يبلغوا حنثا كانوا لها حصنـــــا حصينا من النار قال ابو ذر مضى لي اثنان يا رسول الله قال واثنان قـــال: فقال أبـــو المنذر سيد القراء مضى لي واحد يا رسول الله فقال رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم وواحد وذلك في الصدمة الاولى "(٣) .

---

(١) زهر الآداب ج ٢ / ٧٦٧
(٢) سورة البقرة ، ١٥٦ ، ١٥٧.
(٣) مسند احمد ، ج ١ ص : ٤٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذا فقد كان لهذه القيمة اثر كبير في تخفيف وقع الحدث على الآبـــاء فقـــد اعتبروا الابن المتوفى ذخرا لهم عند الله يوم القيامة ، ومن هنا يحســـن بهم الصبر والتجلد حتى يحققوا ما وعدهم الله به: قال بشار بن برد :

صبرت على خير الفُتَو رزئتُهُ ولولا اتقاء الله طال نحيبي
فأصبحت ابدي للعيون تجلـــدا ويا لك من قلب عليه كئيـــب
ولي كل يوم عبرة لا أفيضهـــا لأحظى بصبر او يحط ذنـــوب (١)

فبشار بن برد ، رغم ما اتهم به من بعد عن الدين ، يبدو مقتنعا بفكـــرة الاحتساب هذه اقتناعا تاما فهو صابر على مصابه يحبس دموعه مخافة اللـــه وليعد مع الصابرين وتغفر ذنوبه، لذا فمظهره يبدو عليه التجلد في حيـــن يحوي قلبا فيه من الكآبة والحرقة الكثير .

أما القاسم بن يوسف فقد تقبل موت ابنه بما يتوقع من الانسان المؤمن بقضاء الله قال : -

كان الذي خفت أن يكونـــا انا الى الله راجعونـــا
أمسى المرجى أبو علـــي موسدا في الثرى يمينـــا (٢)

فالشاعر يشير في بيتيه الى القلق الذي يعيشه بعض الآباء خوفا على اولادهـــم . ويبدو انه كان واحدا منهم ، فكان يحذر عليه الموت ولكن حذره هذا لم يفـــده في شيء اذ مات ، ومع هذا تقبل الأب الحدث بالرجوع الى الله لعله فـــي ذلك يكسب رحمتـــه وقد انتهى امله ورجاؤه مع ابنه الى التراب موســـدا مع ابنـــه .

ولم يكتف الشاعر بهذا الموقف المؤمن، وانما اراد من الآخريـــن أن يفعلوا كذلك فقد قال في قصيدة اخرى له يحث زوجته لبابه على الصبر : -

ألباب ان الصبر أنـــ فع في الامور وأحمـــد
ألباب ان الصبر أبـــ قى للإله وأرشـــد (٣)

فالصبر خير ما يؤجر عليه المصاب في ابنه في الآخرة ويحمد ، لذا فهو يحثهـــا عليه لتحقق شيئا من هذا الأجر والحمد. ولعل هذا مما يوضح التعاطف بيـــن الزوجين وتكاتفهما إزاء مصابهما الواحد .

---

(١) ديوان بشار ص : ٢٧٩
(٢) الاوراق ، ص : ٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن لم تكن مواقف الشعراء جميعها كموقف بشار بن برد ولا كموقف القاسم بن محمد وإنما هناك طائفة منهم فقدت صوابها ازاء الحدث فرفضت الأجر والثواب ، وخانها الصبر فلم تستطيع إليه سبيلا . وابن الرومي واحد من هؤلاء الذين بلغ بهم المصاب حد رفض فكرة الاحتساب رفضا باتا ويقر انه لم يسره أن يكون موت ابنه ثوابا له يوم القيامة قال : -

وما سرني أن بعته بثواب ... ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معدي(١)

فالثواب،مع أنه التخليد في جنة الخلد،لا يساوي عنده فقد ابنه لذا نجده غير مسرور وهو يؤكد على أن موته لم يكن بطواعيته أبدا وإنما غصبة غصبا ولم يكن يقدر على منعه . وهذا الموقف من ابن الرومي لا نجده الا في قصائد رثاء أبنائه ، امّا في التعزية بأبناء الآخرين فنجده يركز على فكرة الاحتساب تركيزا يدل على إيمانه بها ، ويزيد على ذلك بأن يحث معزيه على الصبر الذي خانه هو فلم يستطع عليه عند فقده لابنه الثاني اذ قال مخاطبا اياه : -

أبني انك والعزاء معا ... بالأسى لف عليكما كفن
فاذا تناولت العزاء أبى ... نيليه ان قد ضمه الجنن(٢)

فصبره قد ذهب بموت ابنه فلم يعد يقدر عليه وإن أراده تأبى عليه . ولا يمكن أن نفسر هذا على أنه تناقض في موقفه او ضعف ايمان كما فسره الحاوي(٣).ولكننا نراه حالة من حالات الضعف التي تعتري الانسان عندما يصاب في نفسه او أهله فيحيد عن طريق الصواب للحظات قد تطول أحيانا،الا انه سرعان ما يعود الى وعيه وإدراكه فيطلب الغفران لما كان منه.ودليل ذلك ما ذكرت من حسن تعزيته لغيره كما سيأتي في باب التعزية بالأبناء .(٤) واذا ما أضفنا ذلك كله الى كثرة مصائب ابن الرومي في أبنائه وأهل بيته فقد نجد تفسيرا للأثر البالغ لحدث وفاة ابنه على نفسيته ومواقفه .

ومن الشعراء من كان يضعف ازاء الحدث ضعفا يجعله لا يقدر على شيء سوى أن يتمنى الموت لنفسه إما فداء لابنه وإما رغبة في اللحاق به ،

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص : ٦٢٥ (٢) المصدر السابق ج٦ ص ٢٥١٥
(٣) ابن الرومي ونفسيته من خلال شعره ايليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني المصري ، بيروت - القاهرة ١٩٨٠ ط ٢ . ٥٤٨
(٤) لقد سبقني الى هذا الرأي الدكتور مخيمر صالح في كتابه رثاء الابناء/١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال ابراهيم ابن المهدي في ذلك : -

وإني وإن قدمت قبلي لعالم بأني وإن أبطأت منك قريب
وإن صباحا نلتقي في مسائه صباح الى قلبي الغداة حبيب(١)

ان ما وجده الأب من حزن على ابنه جعله يضعف ضعفا لا يقدر معه على الحياة فهو يحس أن اجله سيكون قريبا ، وهذا أمر لا يزعجه البتة بل على العكس من ذلك فهو ينتظر ذلك اليوم الذي يجمعه وابنه معا بحب وشوق .

وقد أكثر ابن الرومي ايضا من طلب الموت قال : -

بودي أني كنت قدمت قبله وأن المنايا دونه صمدت صمدي(١)

وقال :

أود اذا ما الموت أوفد معشرا الى عسكر الاموات أني من الوفد(٢)

فالشاعر يتمنى في بيته الأول انه لو انه استطاع ان يفديه بنفسه ، أما في البيت الثاني فاني اكاد المس نفس ابن الرومي اليائسة من الحياة لذا فهو يتمنى الموت خلاصا من حياة الألم التي يعيشها .

وقد لا يكتفي الشاعر بتمني الموت لنفسه فقط ، وإنما قد يبلغ به الأمر حدّ السخط والثورة على الحياة وتمنى الموت للناس جميعا فداء لأولاده الذين هلكوا : قال أبو عبد الله العتبي : -

أسكان بطن الارض لو يقبل الفدا فديناواعطينا بكم ساكني الظهر
فياليت من فيهاعليها وليت من عليها ثوى فيها مقيما إلى الحشر
وقاسمني دهري بني بشطره فلما تقصني شطره مال في شطري
فصاروا ديونا للمنايا ولم يكن عليها لها دين قضوه على عسر
كأنهم لم يعرف الموت غيرهم فلما توفوا مات خوفي من الدهر (٣)

فالشاعر يريد أن يفتدي بنيه بأهل الأرض جميعا ، فهو يتمنى الموت لهم جميعا سخطا وثورة على تلك الحياة التي اخذت بنيه منه وأذهبتهم واحدا بعد واحد،فكأن الموت لم يعرف غيرهم ، فالشاعر يحس بأن الدهر

---

(١) اشعار اولاد الخلفاء ٤٥
(١) ديوان ابن الرومي ج٢ ٢٢٥
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٦٢٧ .
(٤) العقد الفريد ج٣ / ٢٥٤ ،وزهر الآداب ج ٢ / ٢٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متسلط يتقصده في موت ابنائه ، لذا فهو شاعر كل ثورته هذه . ولكنه لا يلبث أن يهدأ استسلاماً مقنعا نفسه بأن ليس هناك أفضل من الصبر على مثل هذه الرزية قال : -

فالله ما أعطى ولله ما حوى وليس لأيام الرزية كالصبر (١)

فهو بعد ثورته تلك لا يلبث ان تهدأ نفسه مقنعا اياها بأن أولاده حق من حقوق الله استودعهم عنده ثم استردهم منه ومن هنا يحسن به الصبر الذي هو أفضل ما يمكن عمله . ولعل هذه الأبيات تمثل جانبا من انفعالات الشاعر المصاب بابنه فهو تارة شاعر ، وتارة مستسلم يحاول الوقوف من الحدث موقف الانسان المؤمن .

ومن المعاني التي طرقها الشعراء في قصيدة رثاء الأبناء أيضا التأسي والتعزي عن المصاب وهما من الأمور التي الهمها الله سبحانه وتعالى لبني البشر لتخفيف آلمهم في مصائبهم . فعندما يصاب الانسان في نفسه او أهله يضعف ولا يعود يقوى على الصبر والاحتمال ، ولكن عندما يفكر بما حوله من احوال الدنيا واحوال اصحابها يجد أن ما اصابه امر أصاب ويصيب الناس جميعا عاجلا أم آجلا. وقد يرى أن مصابه أخف احيانا من مصاب الآخرين من حوله لذا فسرعان ما يعود الى رشده وصوابه ، بل سرعان ما يتأسى ويتعزى فيقوى على تحمّل مصابه بطريقة أكثر قوة وأكثر صبرا سواء كان ذلك قناعة منه أم استسلاما .

وللتعزي ألوان كثيرة ، استخدمها الشعراء ، منها ما يتعلق بأحوال الدنيا وأهلها ، ومنها ما يتعلق بقيم آمنوا بها واعتنقوها .

وقد كان تغير الدنيا وانقلاب احوالها وسيلة من وسائل التعزي التي حاولها ابن الرومي فقد قال في رثاء ابنه هبة الله : -

يا هل يخلد منظر حسن لممتّع ، أو مخبر حسن
أم هل يطيب لمقلة وسن فيقر فيها ذلك الوسن
أم هل يبت لذاهب قرن يوما فيوصل ذلك القرن

---

(١) العقد الفريد ج ٣ : ص ٢٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كم منة للدهر كدرها لم تصف منه وله المنن
ما زال يسكرنا ويسلبنا حتى نظل وشكرنا إحن
فحتى أراك بصرفه زبنا فهي الزخارف منه لا انزين (١)

فالدهر لا يدوم على حال أبدا ولا يخلّد منظرا او مخبرا حسنا ، وهو ان اعطى شيئا فسرعان ما يكدره ، لذا علينا ان لا نغتّر بمباهجه فهي ليست الا زخارف خارجية تخفي وراءها كثيرا من الآلام والمتاعب ، وهذا هو حال الدهر مع ابن الرومي فهو لم يمهل فرحته وسعادته بابنه بل سرعان ما أصابه به فحوّل حياته من سعادة الى شقاء . وابن الرومي يحاول أن يقنع نفسه ويعزيها بأن هذه هي حال الدهر دائما ومع الناس جميعا ، الا أنه فشل في هذا اذ ان هذا التفكر بأحوال الدهر لم يعزّه عن ابنه لذلك لم يلبث أن قال : -

أبني إنك والعزاء معا بالأمس لف عليكما كفن (٢)

فابن الرومي واحد من الشعراء الذين خانهم الصبر ولم ينفع معه اي نوع من انواع التعزي لا الدهر وأحواله المتقلبة ولا حال الناس من حوله ولا القيم الدينية والاجتماعية ، ولا أي نوع من العزاء الخارجي كما سنرى فيما بعد ، ولكن هذا كان فقط في رثائه أبناءه أما في تعزيته للآخرين فنجده أكثر هدوءا وتعقلا ، وأقدر على التصبر والعزاء بل أقدر على التأثير على الآخرين واقناعهم بضرورة الصبر والتأسي بأحوال الدنيا وأصحابها وهذا مما يدل على قوة مصابه في ابنه أما القاسم بن يوسف فقد كان أكثر قدرة على التعزي بتغير حال الدهر : -

والدهر رهن بحالتيه فشدة مرّة ولينا (٣)

فالدهر مرهون بحالتين : شدة ولين ، وموت ابنه من هذه الشدة التي تصيب جميع الناس لذا ما عليه الا التأسي بهذه الحال . وقد اكثر القاسم بن يوسف من تعزية ونوّع في ذلك قال في مطلع احدى قصائده : -

---

(١) ديوان ابن الرومي ، ج ٦ ، ٢٥١٤
(٢) المصدر السابق نفسه ، ٢٥١٥
(٣) الاوراق ، ص : ٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هلك البنون محمـــــــد . ومحمدٌ ومحمـــــــد .
وردوا موارد سبلهـــــم وبكل نفس مـــــورد .
واستأثرت بهم المنيـــــ ـة والمنية موعـــــد .
تابى المنية ان يكـــــو ن على الزمان مخلـــــد .
كل امرئ ستفولـــــه وتناله منها يـــــد
والفاقدون اليوم قصـــــ رهم غدا ان يفقـــــدوا
لا يلبث القرناء والـــــ خلطاء ان يتبـــــددوا (١)

فالشاعر يعرض لحال الموت الذي لا يخلد احدا ، فيقول : ان لكل نفس موعـــــدا مع الموت لا بد ان يتحقق شاء الانسان ام أبى . فهي تفصبه أحبته غصبـــــا وإن يفقد اليوم احبته ويبكيهم فسيكون هو المفقود غدا . اذ لا يبقى اثنـــان مجتمعان أبدا . وبالتالي فإن موت ابنه وحزنه عليه ما هو الا حالـــــة عاشها وسيعيشها جميع بني البشر وهذا الأمر بلا شك مدعاة لأن يصبر ويحتمـــل والقاسم واحد من الشعراء الذين يكثرون من التعزي في قصائدهم وغالبـــا ما يفتتح قصائده به ولعلّ ذلك راجع الى قناعته بهذه الفكرة ، فهـــو يعلم أن موت ابنه أمر مقدّر لا بدّ منه ، وهو مؤمن بحق الموت فـــي ابنه ونفسه والآخرين ، الا أنّ هذا كله لا يمنعه من تأبين ابنه وبكائـــه ووصف حزنه وألمه وكثرة دموعه تجاه فقده فلعلّ ذلك يؤكد وفاءه لـــه في اعطائه حقا من ذلك وإبقاء ذكراه في ذاكرته الى الأبد قـــال : -

تاللّه أنساك ما تجلـــى صبح نهار المصبحينـــا
وما دعا طائر هديـــلا ورجعت واله حنينـــا (٢)

فان لم يخلد القدر ابنه فهو خالد في نفسه بذكره دائما وأبدا ، وفـــي نفسه وجد وولهٍ عليه وهذه الكلمة لعلها خير ما يصور حالة فهو في حالـــة من الوجد والحزن والحنين لابنه تجعله يعيش حالة من الضياع .

ومن الشعراء من تعزى بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وآلـــه ، فكان ذلك مدعاة لأن يخفف جزعه وحزنه ، ويروى عن الرسول عليه الصـــلاة والسلام أنه قال تعزوا عن مصائبكم بي " (٣) وقد أفاد الشاعر المتشيع دعبـــل

---

(١) الاوراق ص ، ٢٠٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٠٣ - ٢٠٤
(٣) الكامل ج ١ ، ص ٩١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخزاعي من هذا الحديث الشريف بل ووسع من نطاقه فقد تعزى عن ولده أحمد بوفاة الرسول الكريم وآل بيته ولولا هذا التأسي بهم لكان له موقف آخر قال :-

على الكره ما فارقت أحمد وانطوى ... عليه بناء جندل ورزين
وأسكنته بيتا خسيسا متاعه ... وإني على رغمي به لضنين
ولولا التأسي بالنبي وأهله ... لأسبل من عيني عليه شؤون
هو النفس الا أن آل محمد ... لهم دون نفسي في الفؤاد مكين (١)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظل هذه الحياة الذميمة ، ولا يتوقع خيرا يصيبه بل ذهابا للنعيم وفراقا للأحبة . فكل ما حوله يذكره بحال الدنيا المتقلبة التي لا تدوم على حال وبالموت الذي لا يترك أحدا شابا أم شيبا . ولا شك ان نغمة اليأس بادية في هذا الشعر ، ولكنه نوع من اليأس الذي يصيب المفجوع بابنه عادة وقد يزول بمرور الأيام .

وليس كل التعزي داخليا يكون عن طريق التفكر بحال الدنيا وأصحابها وانما هناك نوع آخر خارجي يكون من الآخرين ممن هم حول الشاعر من أهل وأصدقاء ... اذ قد يكون للمخلصين منهم دور في تخفيف حدة المصاب على الأب وقد يلجؤون الى الطرق السابقة للتعزية مع التذكير بواجب الصبر ليحقق الأجر الذي وعد به الصابرون.وقد يشتد مثل هذا التعزي على النفس فيصبح نوعا من العذل ان آباه الأب واستمر في جزعه وحزنه ، اننا نلمس هذا من خلال ردود الشعراء على هؤلاء المعزين مثال ذلك موقف ابن الرومي الذي كان فيما يبدو لي رافضا مثل هذا النوع من العزاء فقال :-

وإني وإن متعت با بني بعده ... لذاكره ما حنت النيب في نجد
واولادنا مثل الجوارح أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسدّ اختلاله ... مكان اخيه في جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ... ام السمع بعد العين يهدي كما تهدي(١)

فالشاعر هنا يرد على بعض معزيه ممن يرون ان له في ابنيه الباقين سلوة عن الذي رحل ، ولكنه هو لا يرى الأمر كذلك اذ ان له رأيا آخر في هذا ملخصه أن الأولاد كالجوارح لكل مكانته وقيمته ولا يمكن أن يسد واحد مكان الآخر ، فكما أن العين لا يمكن أن تسد مكان السمع ولا يمكن للسمع أن يسد مكان العين فإن الأبناء لا يمكن أن يسد أحدهم مكان الآخر وبالتالي فلن يكون في ابنية الباقيين عزاء وتسلية عن ابنه الراحل وسيبقى يذكره . ومثل هذا الشعور لا يمكن أن يكون عند غير الأبوين .

ويرد ابن الرومي على معزيه في مكان آخر وينعته "بالعازل "قائلا وقد ضاق به :-

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ / ٦٢٥ - ٦٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا عاذلي في مثـــل نائبتـــــي ... تلفى دموع العين تمتهـــــن
فدع الملام فانني رجـــــــل ... عدل على العبرات مؤتمـــــن
أنفقت دمعي في مواضعـــــــه ... لا الوكس يلحقني ولا الغبـــن
أبكاني ابني اذ فجعت بـــــــه ... لم تبكني الاطلال والدمـــــن
وعكفت بالقبر المحيط بـــــــه ... فاعذر فلا صنم ولا وثـــــن (١)

فالشاعر يرد ردا حاسما على عاذله لكثرة دموعه على ابنه وعكوفه على قبـــره بأنه مؤتمن على دموعه عليه أن ينفقها في مواضعها الصحيحة ، وليس دمعـــة على ابنه الا من هذه المواضع بل - كما يرى الشاعر - هي أصحها فبكاؤه علـــى ابنه افضل من بكاء غيره على الأطلال والدمن ولعل في هذا تعريضا بالشعراء الذين ظلوا في عصر الشاعر مولعين ببكاء الاطلال تقليدا، وهو كذلك يعكف على قبـــر ابنه وهذا أمر يرى أنه ليس مما يعذل عليه اذ لم يعكف على الأصنام والاوثـــان وهذا تعريض آخر بالعرب الذين كانوا يعبدون الأصنام في الجاهلية . والمجـــال هنا ليس مجال نقاش أو ردّ علـــى ابـن الرومي فـي تعريضـه هذا وذاك . الا أن هذا قد يصور أمرين : اولهما ان التعزي الخارجي غالبا ما يكون غير مريـــح ولا مؤثر على الأب المصاب خاصة اذا كان المعزي لا يملك الوسيلة المناسبـــة والقدرة الكافية للتأثير والاقناع او قد تصبح التعزية نوعا من العـــذل وهذا ما كان من معزي ابن الرومي السابق . والأمر الثاني ان المصاب الشديـــد الشديد الذي يصيب الانسان قد يجعله يرد ردا فيه من الشدة والقسوة الكثيـــر وهذا ما كان من ابن الرومي في رده السابق وذلك لأنه فيما يبدو يضيـــق بمعزيه ولا يرغب بتعزيته في وقت كان الجزع يأخذ منه كل مأخـــذ .

ورغم كل ما ذكر من مظاهر حسن العلاقة بين الأب وأبنائه وقـــوة أواصر الرابطة بينهما الا أنه وجد مظاهر سلبية لهذه العلاقة من ذلك هجـــاء الآباء لأبنائهم وهذا الهجاء وان كان قليلا الا أنه يبقى ظاهرة موجودة قـــد تكون الغاية من ورائها العبث واللهو . قال أبو دلامة يصف ابنته : -

كأن ظلّامة أخت شيبـــــان ... يتيمة ووالدها حيّـــــان
الرأس قمل كله وصئـــــان ... وليس في الرجلين الا خيطـــان (٢)
فهي التي يذعر منها الشيطان

---

(١) ديوان ابن الرومي ج٦ / ٢٥١٦
(٢) العقد الفريد ج ١ ، ٣١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يصف ابنته بصفات غير محببة على الاطلاق ، وهو يعرض في هذا لصفات نفسية مثل ذل اليتم وما يتبعه من ضعف . كما يعرض لصفات جسدية فيصف قبح رجليها فيشبهها بالخيطان ضعفا ، وهذه صفة مناقضة تماما لصفة جمال الرجلين يضاف الى هذا كله قذارتها التي جلبت القمل وغيره .

إن هذه الصورة التي رسمها الشاعر لابنته صورة بشعة قذرة بلا شك ولكن هل من الممكن ان يصف أب ابنته بهذه الصفات ... ربما اذا كان كأبي دلامة يريد أن يجعلها طرفة من طرائفه التي يبهج بها الخلفاء لينال عنها عطاء ومالا، اذ وردني تتمة الرواية السابقة أنه غدا الى المنصور فأخبره بقصة ابنته وأنشده البيتين فقال له :- بأي شيء تحب أن أعينك على قبح ابنتك هذه ، فأخرج خريطة كان قد خاطها في الليل ، فقال : تملأ لي هذه دراهم فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم . ومن هنا فقد يمكنني القول ان ما كان يقوم به ابو دلامة من هجاء أو غير ذلك هو من التنذر والظرف اللذين كانا السبيل الى ايجاد مكان له في مجالس الخلفاء، فيحوز على ما كان يحب من مال وعطاء .

ومما يروى في هذا المجال أنه دعا السيد الحميري الى منزله فبكت ابنة له فحملها على عاتقه فبالت عليه فوضعها مغضبا وقال : -

بللت عليّ لا حييت ثوبي ... فبال عليك شيطان رجيم
فما ولدتك مريم ام عيسى ... ولا رباك لقمان الحكيم

ثم استجاز السيد الحميري فقال :

ولكن قد تفحمك ام سوء ... الى لباتها او أب لئيم (١)

ثانيا : شعر الأبناء في الآباء : -

قل شعر الأبناء في الآباء في هذا العصر كثيرا اذا ما قورن بشعر الآباء والأبناء من حيث الكم ، وقوة الرابطة التي تجمعها ،والتركيز العاطفي ، ولعل ذلك نابع من طبيعة العلاقة التي تربط الابن بابيه ،ففي حين أن الأب يقدم جل

---

(١) بدائع البدائه ، علي بن ظافر الأزدي المطبعة المصرية ، ١٢٧٨هـ ، ج ١ ص ١١٣، وقد وردت الابيات كذلك في معاهد التنصيص ج١/٢١١؟ وطبقات ابن المعتز ٦٢والعقد الفريد ج/٣٠١ مع اختلاف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حياته في رعاية ابنائه واغداق انواع الحب عليهم ، نجد ان الأبناء لا يقابلون آباءهم بمثل هذه العواطف في القوة والمقدار بل يتجهون بعواطفهم واهتمامهم لأبنائهم هم.وهكذا تستمر دورة الحياة التي أرادها الله لبني البشر بطريقة ممكنة ومعقولة فيها من الحكمة مالا يبلغه الوصف ، اذ ان غالبية الناس سيأخذون قسطا مشابها لما يأخذه بعضهم عن بعض،فهم سيمرون بمرحلة البنوة أولا فيأخذون من آبائهم المحبة والاهتمام ، وعندما يصبحون آباء يغدقون مثل هذه المحبة على أبنائهم وهكذا .... ومن الطبيعي والحال هكذا أن يقل شعر الأبناء في آبائهم ويقتصر قوله في ظروف ومناسبات معينة . ومن هذه المناسبات التي أكثر فيها الشعراء من قول الشعر في آبائهم الوفاة اذ رثى بعض الشعراء آباءهم بأشعار فيها كثير من مشاعر البنوّة الصالحة. ومن هؤلاء الشعراء اسحاق بن ابراهيم الموصلي اذ قال موضحا اثر موت أبيه على مجتمع الأب وعليه نفسه :

ستبكيه اشراف الملوك اذا رأوا ... محلّ التصابي قد خلا منه جانبه
ويبكيه اهل الظرف طرا كما بكى ... عليه أمير المؤمنين وحاجبه
ولما بدا لي اليأس منه وأنزفت ... عيون بواكيه وقلت نوادبه
وصار شفاء النفس من بعض ما بها ... إفاضة دمع تستهل سواكبه
جعلت علي عينيّ للصبح غيرة ... وللليل اخرى ما بدت لي كواكبه (١)

فالشاعر يشير الى منزلة أبيه ابراهيم الموصلي - المغني - في مجالس اللهو والطرب في قصور الخلفاء والأمراء فهذه المجالس ستفقد بموته عنصرا مهما من عناصرها ، وكذلك سيبكيه أهل الظرف جميعا فقد فقدوا بفقده صديقا مقربا. اما الابن فقد حزن وتألم لموته ثم لم يلبث أن بكاه بدمع غزير آملا من هذا الدمع ان يخفف على نفسه بعض ما تجد.وهو يؤكد على ديمومة بكائه لأبيه ما ظهرت له كواكب الليل،اذ أن ذكرى أبيه وحبه له سيبقيان ما بقي حيا ، وما طول بكائه هذا الا دليل على هذه الاستمرارية التي تمثل وفاء الابن لأبيه الراحل.ومن الشعراء الذين وصفوا حالهم ازاء وفاة آبائهم عبد الله ابن احمد بن يوسف فقال :

---

(١) الديوان ، ٨٩ ، والاغاني ج ٥ ، ٢٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطاول في بغداد ليلي وضافني نزيلا جوى بين الحشا والتراثب
أناخا على صبري فحلّى مكانه لفقد أب برّ جزيل المواهب(١)

فقد طال ليل الشاعر وصحب ذلك حزن وجوى على والده الذي رحل فأتيا على كل صبر يملك . كيف لا وقد كان أبوه مثال البر والسيادة والخلق قال : -

اياجعفر يا خير واثل كلها إذا نزلت بالناس احدى النوائب
وراحت افال الشول غرثى تشكها شآمية ترمي الوجوه بحاصب
وحاميتم ان صبحتهم مغيرة عليها المنايا في صدور الكتائب
فتى كان مثل السيف ان هزمنته أتى حدّه دون الطلى والغوارب
له شيمة عند المحامة فظة تشيم العدا منها بروق المعاطب
وتملكه عند الندى أريحية تحكم في امواله كلّ راغب
تخال به ليثا وغيثا وسنة من البدر تجلو مسدفات الغياهب
اذا يده بلت بقائم سيفه هوت قمم الاعداء من كل جانب(٢)

فالشاعر يشيد بمناقب أبيه المتمثلة في الشجاعة والكرم ، وشجاعته من نوع خاص ، فهو حام لقومه في أوقات الشده يتقدم فرسانهم ، وله اخلاق وشيم ترهب الاعداء وترضخهم له، وكذلك هو كريم معطاء لقومه ان اصابهم عوز او حاجة، غيّاث لهم في كل حال . وبالتالي فان من كانت صفاته كذلك فان خسارة أهله وقومه به كبيرة ، والجزع ونفاذ الصبر أقل ما يمكن ان يصاب به ابنه .

ومن الذين رثوا آباءهم كذلك هبة الله بن ابراهيم بن المهدي فقال :-

الحمد لله على ما أرى افقدني الموت لذيذ الكرى
اصبح أغلى الناس في قدره منخفضا يعلو عليه الثرى
ذشر الموت الورى كلهم بموت ابراهيمّ خير الورى (٣)

فالشاعر يشير الى مكانة أبيه اذ كان عللي القدر بين الناس في حياته ، والآن تحولت هذه المكانة الى النقيض تماما حيث اصبح منخفضا تحت ردم الحجارة واكوام التراب . وكأن الموت الذي أصابه أصاب الناس جميعا لكونه اخيرهم وأفضلهم ، وهذا كله أورثه السهاد والقلق .

---

(١) الأوراق ٢٣٨ .
(٢) المصدر السابق والصفحة ذاتها .
(٣) اشعار اولاد الخلفاء ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بدّ هنا من الاشارة الى أمر وهو أن الشعراء ، وإن طرقوا في رثاء آبائهم قضية ديمومة البكاء والحزن والجزع عليهم ، الا أن هناك فرقا واضحا بين مشاعر الابن تجاه أبيه ، ومشاعر الأب تجاه ابنه . كان الأب يبكي ابنه بمزيد من الحسرة والألم وبالتالي فان اصراره على ديمومة البكاء كان أكبر بكثير مما هو عند الابن .

أمّا التعزي والصبر على المصاب بفقد الأب فهو قليل في شعر الابناء ، قال اسحاق في أبيه : -

لقد عزني وجدي عليك فلم يدع ... لقلبي نصيبا من عزاء ولا صبر
لقد كنت أبكي من فراقك ليلة ... فكيف وقد صار الفراق الى الحشر (١)

فالشاعر يبحث عن العزاء والصبر فلا يجدهما اذا غلبه وجده وحزنه على فراق أبيه فلم يدع مجالا لعزاء أو صبر خاصة عند تفكره في أمر موته وعلمه بأن لا لقاء معه الى يوم الحشر . فكان هذا مما يزيده حزنا وألما ، ولكن الشاعر يحاول تجاوز المحنة ، قال : -

أظل كأني لم يصبني مصيبة ... وفي الصدر من وجد عليك بلابل
وهوّن عندي فقده ان شخصه ... على كل حال بين عيني ماثل (٢)

فالشاعر كغيره يظهر عجزه أمام الموت ولكن لا بد من الاستمرار في الحياة رغم ما يصادف الانسان من مصاعب ومتاعب ، وكذلك يرى الشاعر أن لا بد له من تجاوز المحنة والاستمرار في الحياة مع حمله الألم والحزن لفقده أباه ولعل الاستمرار في الحزن والألم هو تعبير آخر عن خلود في نفسه ، وهذا ما يخفف من مصابه . وليس هو ذاك الحزن الذي رأيناه عند الآباء ولا هو ذاك الصبر الذي عجز عنه الآباء عند فقدهم ابناءهم . وإنما هذا جزء قليل منه ، وهنا لا بد من ذكر امر هو الى جانب الأبناء من حيث الحزن على آباءهم وتقبلهم للحدث بصورة أكثر هدوءا من الآباء وكذلك امكانية الصبر والعزاء ومحاولة تجاوز المحنة ، ذلك ان موت الآباء غالبا ما يكون متوقعا

---

(١) الديوان : ص : ١٣٠ ، والاغاني ج ٥ ، ٢٥٦.
(٢) الديوان ، ص : ١٧٣ ، والاغاني ج ٥ ، ٢٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من قبل الأبناء اذ قد يكونون في سن متقدمة ، أما موت الأبناء فغالبا ما يكون مفاجئا بالنسبة للأب سواء كان ذلك في سن الطفولة أم في الشباب انّ خسارة الأب بابنه أكبر بكثير من خسارة الابن بأبيه ، ومن هنا فقد استقبل الآباء موت ابنائهم بفزع كبير كان مشوبا بالسخط عند بعضهم كما رأينا عند ابن الرومي ثم إن بكاءهم وجزعهم كان أكثر ديمومة بالاضافة إلى العجز عن الصبر والعزاء وعدم قدرة كثير منهم على تجاوز المحنة ، ولهذه الأسباب جميعا فقد وعد الله الصابرين على فقد الولد خاصة بحسن الجزاء ، ولم يكن ليخصهم بهذا الوعد الا لعلمه عزّ وجل بكبر المصاب ولم يكن مثل هذا الوعد للمصاب بأبيه بل ربما رأوا هم أنّ عليهم واجبا مهما تجاه آبائهم في مثل هذا المصاب من حسن الدعوة والاسترحام وطلب المغفرة لهم وهذا من أهم ما يميز شعر الأبناء في رثاء الآباء ، قال محمد ابن العتاهية في رثاء أبيه : -

يا أبي ضمك الثرى ... وطوى الموت أجمعك
ليتني مت يوم صر ... ت الى حفرة معك
رحم الله مصرعك ... بردّ الله مضجعك (١)

فمثل هذا الرثاء لا يحوي من الجدية في الحزن والعواطف الاخرى تجاه الأب سوى الدعاء له بالرحمة من الله وبالراحة في مستقره الأخير .

أما اسحاق بن ابراهيم الموصلي فقد ابتدأ ثلاث مقطوعات له في رثاء أبيه بالسلام عليه اذ قال : -

أقول له لما وقفت بقبره ... عليك سلام الله يا صاحب القبر (٢)

وقال : -

سلام الله على القبر الذي لا يجيبنا ... ونحن نحي تربة ونخاطبه (٣)

وقال : -

عليك سلام الله من قبر فاجع ... وجادك من نوء السماكين وابل (٤)

---

(١) الكامل ، ٢٣ .
(٢) الديوان ص ، ١٣٠ والاغاني ج ٥ ٢٦٧ .
(٣) الديوان ، ٨٩ .
(٤) المصدر السابق ، ١٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل مثل هذا السلام وطلب الرحمة والمغفرة للأب المتوفى وكذلك طلب السقيا للقبر كانامن اهتمامات الشعراء الواضحة في رثاء آبائهم اذ ربما كانت من أهم ما يحتاج اليه وقلما نجد هذا في رثاء الأبناء لسببين أولهما: ان الآباء شغلوا بغير الدعاء والسلام من الجزع والبكاء والحزن على الابن ، وثانيهما ان كثيرا من الأبناء المذكورين في الشعر ماتوا اطفالا لم يقترفوا من الذنوب ما يخشى عليه عدم الغفران ، بل كانوا من الذين لا يحاسبون على ذنب لطفولتهم . ومن هنا فقد قلّ اهتمام الشعراء بمثل هذه الأدعية كما هو شائع في شعر رثاء الآباء .

وقد لا تسود المحبة والاحترام علاقة الأبناء بآبائهم دائما اذ قد تضعف الروابط بينهما لأسباب كثيرة منها المادية ومنها الاجتماعية ومنها السياسية ، وقد تتحول أحيانا الى بغض وكره فيسوم الابن أباه ألوانا من الهوان ضاربا بتعاليم الدين والأعراف الاجتماعية عرض الحائط . فقد حثت الآيات القرآنية الكريمة الأبناء على الرفق بآبائهم وحسن مقاملتهم قال تعالى : " وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا[1]"، وقد حذرت بعض الأحاديث الشريفة من عقوق الوالدين وعدته من الكبائر " عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر او سئل عن الكبائر فقال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين.."[2] فقد جعله الرسول عليه السلام مع الشرك بالله في مرتبة واحدة ومع كل هذا فقد وجد عاقون لآبائهم في هذا العصر وقد هجا بعضهم آباءهم هجاء مرا على نحو ما سنرى .

وقد تضمن الشعر العباسي بعض الاعتقادات الاجتماعية الشائعة في هذا المجال فبعض المقولات تؤكد أنّ من يعق اباه لا بد ان يأتي يوم يعقه فيه بنوه ، وهذا واضح في عائلة الشاعر العباسي يونس بن الخياط الذي قال فيه أبوه :

يونس قلبي عليك يلتهف ... والعين عبرى دموعها تكف
تلحفني كسوة العقوق فلا ... برحت منها ما عشت تلتحف
أمرت بالخفض للجناح وبالر ... فق فأمسى يعوقك الأنف
وتلك والله من زبانية ... إن سلّطوا في عذابهم عنفوا[3]

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠ .
(٢) مسند احمد بن حنبل ج ٧ ٧١٠
(٣) الاغاني ج ٢٠ ، ص : ٢ ، ومعجم الادباء ، ج ٢٠ ، ص : ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يوضح مشاعره تجاه عقوق ابنه ، فهو باك حزين ملتهف القلب لما يرى منه ولكن يبدو ان لا حيلة له . وهو يذكره بواجباته الدينية تجاهه وبما أمره الله من حسن في معاملته والرفق به ، الا أنه لم يكن يستجيب لذلك بل ما كان منه الا الزيادة في تعذيب أبيه لذا يتمنى الأب أن يرى أولاد ابنه يفعلون به مثلما يفعل هو به .

وقد اجابه ابنه قائلا : -

أصبح شيخي يزري به الخرف ... ما ان له حرمة ولا نصف
صفاتنا في العقوق واحدة ... ما خلتنا في العقوق نختلف
الحقته سالفا أباك فقد ... اصبحت مني كذاك تلتحف (١)

فهو يتهم اباه بالخرف اذ هو لا يستحق منه اي احترام او رفق ويذكره انه لم يكن يعامل أباه باحترام ، بل لقد كان عاقا له ، وقد جاء دوره ليعقه ابناؤه .

وقد يجمع الشخص عقوق امه وأبيه معا فقد روى صاحب الأغاني ان يونس ابن الخياط كان عاقا لأمه وابيه معا . وكان يجاهر بذلك فقد ذكر أن أحدهم أتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن أبيه أثر سماعه بعض شعره ، فأوصله لعنده وبعد سؤاله اياه عن الشعر اشرع يده اليه بشيء وجزاه خيرا ، فقال يونس : فبادرت فأخذت بيد السائل وقلت لا تعجل فاني قد قلت شعرا أجود من شعره ، فقال ابي ويلك يا يونس ... تحرمني فقلت دع عنك هذا فوالله لا تجوع امرأتي وتشبع امرأتك ؛ فسئل يونس ومن كانت امرأة أبيك يومئذ فقال أمي وجمعت والله عقوقهما ... (٢) .

والعقوق كما يقال دين ، وكما تدين تدان ،فقد روى صاحب الاغاني ايضا قال:"مرّ رجل بيونس بن عبدالله الخياط وهو يعصر حلق أبيه وكان عاقا له فقال له ويلك أتفعل هذا بابيك وخلصه من يده ،ثم أقبل على الأب يعزيه ،ويمسكن منه فقال له الأب يا أخي لا تلمه واعلم انه ابني حقا والله لقد خنقت أبي في هذا الموضع الذي خنقني فيه "(٣).

---

(١) الأغاني ج ٢ ، ص : ٢ ، ومعجم الادباء ، ج ٢٠ ص : ٦٧ .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ،ص : ٥
(٣) نفسه ج ٢ ، ٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونشأ ليونس هذا ابن يقال له دحيم فكان اعق الناس به - كما تذكر الروايات - فقال يونس فيه : -

جلا دحيم عماية الريب ... والشك مني والطعن في النسب
ما زال بي الظن والتشكك حتـ ... ـى عقني مثل ما عققت أبي (١)

وهكذا فقد سار ابنه على النهج الذي سلكه هو مع ابيه في الارتياب به والطعن بنسبه والشكك فيه فكان عاقا له مثلما كان هو عاقا لأبيه من قبل .

ولم يكتف بعض الأبناء بمثل هذا النوع من العقوق وانما هجوا آباءهم هجاء مرا ، ومن هؤلاء مطيع بن اياس الذي قال عندما رأى أباه مقبلا نحوه وهو يشرب مع اخوانه : -

هذا اياس مقبلا ... جاءت به احدى الهنات
هوّز فوه وأنفه ... كلمنّ في احدى الصفات
وكأن سعفص بطنه ... والثغر شين قريشات (٢)
لما رأيتك آتيا ... أيقنت انك شرّ آت

فالشاعر ،عندما رأى أباه مقبلا نحوه علم انه لم يأتِ الا لشر او فساد يريده وهذا الانطباع لا بدّ أنه كان عنده نتيجة لشعوره تجاهه ، فالروايات تقول أنه كان شديد البغض له ، لذا لم ير في اقباله نحوه سوى قدوم الشر، وبعد ذلك يهجوه هجاء ماديا اذ يركز على وصف شكله الخارجي.والذي يبدو من خلاله انه كان مسنا اذ ان علامات الشيخوخة من تجعد وتشقق في انحاء جسمه كانت بادية للعيان ، وكذلك شكل أنفه وفمه بما فيهما من جروح وتشققات ربما كانت من علامات الكبر وبصمة من بصمات الزمن المنقضي . ولعل هذا الهجاء مما يعبر عن ضيق الشاعر وتبرمه بوالده فهو يجسد الشر بالنسبة له يتبعه ويراه مقبلا في كل مكان يكون فيه .

ومن الذين عرفوا بكثرة هجائهم لآبائهم ابن بسام الذي يعد من العاقين لآبائهم ، فقد بلغ به كره والده أنه تمنى له الموت قال : -

---

(١) الأغاني ج ٢٠ ، ص : ٨ .
(٢) المصدر السابق ج ١٣ ،ص : ٣٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شدت دار فخلتها مكرمـــــة سلط الله عليها الفرقـــا
وأرانيك صريعا وسطهـــــا وأرانيها صعيدا زلقـــــا (١)

فهو يذكر تلك الدار التي بناها والده والتي اكثر من القول فيها ، وهو هنا يتمنى لها الخراب كما يتمنى أن يرى والده صريعا فيها . ومن اشعاره في هذه الدار قوله :

بني أبو جعفر دارا فشيدهـــا ومثله لخيار الدور بنـــاء
فالجوع داخلها والذل خارجها وفي جوانبه بؤس وضـــراء (٢)

فهو يعرّض بباني الدار - والده - ويوضح ما هي عليه بسببه ففي داخلهـــا جوع وفي خارجها ذل نتيجة لمواقفه وأعماله فهي بناء ممزوج بما يرى هـــو والده عليه من ذل وبؤس . ويبدو أن لكره ابن بسام هذا أسبابا ، قـــد ذكر بعضها الدكتور شوقي ضيف حيث قال أنها سياسية اذ ان أباه كان مواليـــا للعباسين في حين كان هو متشيعا مما دفعه الى هجائه حتى عد في العققه الذيـــن لا يبرون اباءهم بل يجحدون فضلهم وله فيه أهاج كثيرة .(٣)

وأيا كانت الأسباب وراء عقوق الابناء وهجائهم لآبائهم فهي حالات قليلة فهـــي وإن وجدت في نفوس بعض الأبناء فقلما يتظاهرون بابرازها للعيان ، ولكنها تبقى على أي حال ظاهرة موجودة لها اسبابها وأن السياسة هي إحـــد من هـــذه الأسباب مع أنه قد يتبادر الى الذهن ان أثر السياسة على العلاقة الأبويـــة ضعيف لانـــه من المتعارف عليه في نظام الخلافة العباسية أن الأب هـــو الخليفة وقد يعهد الى ابنه من بعده دون أي نزاع على الأقل بينهما اذ أن الأب يفضل أن يبقي الملك في ذريته .

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ، ص : ٦٧١ .
(٢) العصر العباسي الثاني ، ص : ٤٣٩ .
(٣) المصدر السابق ،ص ٤٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما من جهة الابن فقلما يتوقع المرء منه أن ينافس أباه في سلطانه خصوصا أن الاب أحق منك بذلك ، بالاضافة الى أن هذا الأمر سيؤول اليه عاجلا أم آجلا فاذا أضفنا هذا كله الى واجبات الابن تجاه أبيه فإنها تمنعه من الغدر به .ولكن كل ما ذكرت لم يمنع من التنافس بين الآباء والأبناء . ومن دلائل ذلك الصراع الذي نشأ بين المتوكل وابنه المنتصر، اذ ، رأى المتوكل أن يتخلص من الأتراك ولكن ابنه المنتصر كان يشايعهم " فعزم المتوكل ان يفتك بالمنتصر ويقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ووجوههم وعزموا على الفتك به "[(١)]. وانتهى الأمر بأن قام المنتصر وأعوانه بقتل المتوكل . وقد أكثر البحتري من وصف هذه الحادثة ، اذ أنه كان قد حضرها .ومن مظاهر أثر السياسة على العلاقة الأبوية ايضا فقد الثقة وإقامة الرقباء على بعضهم بعضا وقد شاعت مثل هذه المواقف في خلال الخلافة العباسية ، فقد كان الخليفة يقيم الجواسيس والرقباء على أولاده او اخوته ويقيم ولاة العهد على الرقباء على آبائهم ، كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد ، فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسرورا الخادم ، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب ... [(٢)] .

ولم تكن السياسة وحدها هي المؤثرة في اضعاف روابط العلاقة الأبوية بل قد يثور النزاع بين الأب وابنه بسبب جارية،كالذي كان بين ابي دلامة وابنه،فقد ذكر صاحب الأغاني ان الخيزران أرسلت احدى جواريها الى بيت أبي دلامة وأعلمتها بأنها أصبحت ملكه ، وعندما عرفت زوجة أبي دلامة بقصتها اقنعت ابنها بأن يدخل الى الجارية ويخبرها أنها أرسلت اليه ففعل ، وعندما علم أبو دلامة بالخبر غضب كثيرا وثار النزاع بينه وبين ابنه وشكاه الى الخليفة المهدي ، الذي عوضه بجارية أخرى بدلا منها [(٣)].

---

(١) ظهر الاسلام ، احمد امين ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ،ط ٣ ، ج ١ ، ١٠ . وقد اقاضت كتب التاريخ بذكر تورط المنتصر في مقتل ابيه المتوكل . انظر تاريخ الامم والملوك ج ٦ ، ٣٩٢ وما بعدها ،وتاريخ العلامة ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٧ ، مج ٣ ،٥٩١ - ٥٩٢.

(٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير مصر ، ١٣٠ هـ ج ٦ ، ٨٣ .

(٣) الأغاني ج / ١٠ ص ؛ ٢٦٣ وما بعدها ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الا أن النزاع بين الأب وابنه على الجواري لم يكن كله كنزاع أبي دلامة وابنه الذي فيه من الظرف والفكاهة أكثر ما فيه من الجد ، فهناك ما هو أكثر خطورة كما في قصة جعيفران الموسوس اذ يقال انه كان له قبل أن يختلط عقله أب يقال له علي بن أصفر ، وكان دهقان الكرخ ببغداد ، وكان يتشيع ، فظهر على ابنه أنه خالفه الى جارية سرية ، فطرده عن داره ، وحجّ فشكا ذلك الى موسى بن جعفر ، فقال له موسى : ان كنت صادقا عليه فليس يموت حتى يفقد عقله ، وان كنت قد تحققت ذلك عليه من فعله فلا تساكنه في منزلك ، ولا تطعمه شيئا من مالك في حياتك ، واخرجه عن ميراثك بعد وفاتك ، فقدم فطرده من منزله وسأل الفقهاء عن حيلة يشهد بها في ماله حتى يخرجه بها عن ميراثه ، فدلوه على السبيل الى ذلك ، فأشهد به وأوصى الى رجل ، فلما مات حاز الرجل ميراثه ومنع جعيفران ، فكان هذا سبب اختلاط عقله .(١)

ولا يهمني صحة هذه الرواية كثيرا ، وانما المهم هو خطورة الجواري في اثارة النزاع بين الابن وأبيه وما قد يؤدي ذلك من تصدع في العلاقة الأبوية خاصة والأسرية عامة .

---

(١) الأغاني جـ / ٢٠ ص : ١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : الأبوّة في شعر المناسبات

اتسع نطاق شعر المناسبات في العصر العباسي اتساعا كبيرا، اذ أن الشعراء شاركوا الخلفاء والوزراء والأصدقاء أحزانهم مثلما شاركوهم افراحهم ، فقد نظموا التعازي وانشدوها اياهم تعزية لهم عمن فقدوا، قال الدكتور شوقي ضيف ... " ولما جاء الاسلام ونشأت طبقات الخلفاء والولاة واخذت تتألف حول كل خليفة وأمير او حاكم كبير طبقة من الشعراء تقف نفسها على مديحه وتسليته .ان اراد التسلية رأينا هذه الطبقة تعمد حين تلم به مصيبة الى تعزيته فيها" (١) ويتابع فيقول : " ودار اكثر ما دار حول فقد الاولاد وفلذات الاكباد ، فكان الشاعر اذا مات ابن لخليفة يبادر الى تخفيف بلواه فيه بأبيات تحدّ من لوعته ، وتكسر من فجيعته "(٢) ومن هنا اتسع نطاق شعر التعازي . ولم يقتصر الشعراء في تعازيهم على أبناء الخلفاء والوزراء بل أصبح الشعراء يعزون كذلك أصدقاءهم إن فقدوا احد افراد أسرهم من أب او أم او أخ او احد الابناء ، وقد اخذت التعزية بالأبناء نصيبا كبيرا من اهتمام الشعراء ، وهذا أمر طبيعي اذ ان الحزن على الأبناء فاق كل حزن .

وقد تشابهت تعازي الشعراء في كثير من معانيها ، ومن أهمها حث المفجوع بابنه على الصبر والتأسي بحال الدنيا وحال أصحابها من تغير وتحوّل ،فالموت حق وواجب على جميع بني البشر ولن يسلم منه احد سواء كان ملكا أم سوقة ، غنيا أم فقيرا ، ذكرا أم أنثى لذا ما على الناس الا تقبل هذا الأمر بمزيد من الصبر فهو الأمر الوحيد الذي تحمد عاقبته .

وفي هذا قال ابن الرومي متحدثا عن تغير الدهر وانقلابه محاولا اقناع معزيه بأن وفاة ابنه ما هي الا لون من ألوان هذا التغير الذي يصيب بني البشر في حياتهم : -

ونحن بذور الدهر والدهر زارع ... ونحن زروع الدهر والدهر حاصد
وتالله ما مولى لمولاه خالد ... ولا الحزن من مولى لمولاه خالد
غدا الموت والسّلوان حتما على الورى ... كلا ذا وهذا للفريقين راصد
فلا تجعلنّ الموت نكرا فانما ... حياة الفتى سير الى الموت قاصد
ولا تحسبن الحزن يبقى فإنه ... شهاب حريق واقد ثم خامد (٣)

(١) الرثاء ، ص : ٨٨
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص : ٨٨
(٣) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص : ٨٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فما الناس الا بذور يزرعها الدهر متى شاء ويحصدها حينما يرى أن أوانها قد حان ، لذا فلن يخلد في هذه الحياة أحد ، وكما أن الناس لا يخلدون فكذلك الحزن عليهم لا يدوم ، فالموت والسلوان أمران متلازمان لا بد من حدوثهما ، يحدث الموت فيحزن الناس على المتوفى لفترة من الزمن تكون كشعلة الحريق ما تلبث أن تنطفىء ثم يأتي بعدها دور السلوان . لذا ما على الناس الا أن يتقبلوا حدث الموت بدون اي استنكار فحياة الانسان ما هي الا طريق مقصود اليه .

ويتابع ابن الرومي فلسفته لطبيعة الحياة قائلا : -

ستآلف فقدان الذي قد فقدته ... كالفك وحدان الذي انت واجد
على أنه لا بد من لذع لوعة ... تنهب احايينا كما هبّ راقد
ومن لم يزل يرعى الشدائد فكره ... على مهل هانت عليه الشدائد
وللشر افلاع ، وللهم فرجة ... وللخير بعد المؤيسات عوائد
وكم أعقبت بعد البلايا مواهب ؟ ... وكم اعقبت بعد الرزايا فوائد
وكم سيء يوما سيقفوه صالح ... وكم شامت يوما سيقفوه حاسد
تعزّ جحا قبل السّلوّ على المدى ... فمثلك للحسنى من الأمر عامد

وهكذا فان الانسان سيألف فقدان ما فقد كما يألف الأشياء الموجودة حوله ، وكل ما يلقاه في الحياة ما هو الا لذعة من لذعات الدهر تهب احيانا ولا تلبث أن تخمد ، لذا فان الذي يفكر فيما حوله من شدائد ومصائب ويحسب لها حسابا يكون أكثر صبرا واحتمالا . وهذه الحياة دائمة التغير فالشر يأتي ويقلع ، والهم يفرّج ، والخير بعد الشر يعود . وقد تتغير أحوال الدنيا تغيرا كبيرا فتنقلب بعد المصائب الى مباهج ، وقد تعقب الرزايا فوائد ، ومن أحوالها المتغيرة أيضا أن يحل الصالح محل السيء والحاسد محل الشامت (٢) والغاية من كل هذه الأمثلة التي ضربها ابن الرومي والتي أطال فيها وكرر بعضا منها أن يصل الى مراده في بيته الأخير والذي يطلب فيه مباشرة من معزيه التعزي بما سبق عن ابنه اذ أنه بما يملك من رجاحة عقل قادر على أن يفعل .

وابن الرومي واحد من أكثر الشعراء قدرة على الاسهاب في الحديث عن الحياة وانقلابها لطول نفسه في الشعر ... والأهم من ذلك - الى طبيعة حياته التي

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص ٨٠١

(٢) المقصود بالحاسد : حاسد النعمة او الشامت ، شامت النعمة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاشها اذ أنه من أكثر الناس قدرة على فهم طبيعة الحياة ومعالجة رزاياها فقد فقد أبناءه الثلاثة وزوجته بالاضافة الى أمه وأبيه مما الهب نفسه ثورة على الحياة ، ولكن ومع ثورته تلك لا يلبث ان يهدأ استسلاما . لهذا فاننا هنا وفي تعازيه الأخرى نجده أكثر هدوءا وتعقلا من تلك القصائد التي يرثي فيها ابناءه خاصة ، وبقية أهل بيته عامة . وبما أن مصير الانسان شاء أم أبى على هذا النحو ، وبما أن قضاء الله أمر لا رجعة فيه ، فما على المفجوع بابنه سوى الصبر الذي هو افضل ما يمكنه عمله : -

فصبرا ،فان الصبر خير مغبة وهل من محيد عنه ان حاد حائد؟(١)

وقد أكثر الشعراء من الحث على الصبر ، لأنه الأمر الذي لا بد منه ، ولوعد الله الصابرين والصابرات حسن الثواب ، لهذا وقف الشعراء في تعازيهم عند فكرة الاحتساب " ووقف الشعراء في مراثي الخلفاء بأبنائهم عند فكرة الاحتساب وطلب ما عند الله وأكثروا من ذلك "(٢) والحقيقة أن الوقوف عند فكرة الاحتساب لم يكن فقط في مراثي الخلفاء بأبنائهم . اذ أن الشعراء وقفوا عند هذه الفكرة في مراثيهم لأبنائهم وغير أبنائهم من أبناء خلفاء وغير خلفاء.

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن فوائد الصبر ابن الرومي الذي قال متابعا بيته السابق في الحث عليه : -

وقد فزت أن أصبحت عبدا مسلما لما أوجبته في الرقاب القلائد
لك الأجر تعويضا من الله وحده ومن خلقه حسن الثنا والمحامد
ولله لطف في العزاء لعبده وان مسه جهد من الحزن جاهد
هو الجارح الأسي ولا شك انه سيشفي الحشا المجروح مما يكابد(٣)

فهو يشير الى الأجر الذي أعده الله للصابرين في الآخرة على وفاة فلذات اكبادهم ألا وهو الدرء من النار . ولكنه ليس كغيره من الشعراء الذين يكتفون بهذا الأجر المعد لهم في الآخرة وإنما يشير الى أجر من نوع آخر وهو من الحمد والثناء من قبل الناس . وكذلك لطف العزاء من الله تعالى في الحياة الدنيا وحسن التعويض ، فان الله يعوّض الانسان مقابل ما يأخذه منه امورا كثيرة كطول العمر مثلا .

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص : ٨٠٠
(٢) الرثاء : ص : ٨٩
(٣) المصدر السابق نفسه ج ٢ ، ص : ٨٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الذين دعوا للصبر ووقفوا عند فكرة الاحتساب الشاعر أبو العبـــاس الذي قال في تعزية المعتضد بابنه هارون :-

صبرا ،فديناك إن الصبر عادتنـــا ... وإن طوينا على حزن وتهيـــام
فبادر الأجر نحو الصبر محتسبـــا ... إن الجزوع صبور بعد أيـــام (١)

فالخليفة وإن كان حزينا لموت ابنه لا بد له من الصبر حتى يكسب الأجر الـــذي أعده الله له ، خاصة وأن هذا الجزع لن يدوم .

ومن الذين تحدثوا عن الأجر المعد للمفجوع بابنه فأحسن ،الشاعر البحتري في تعزيته للمعتز بالله عن بعض ولده حيث قال : -

هو الذخر من دنياك قدمت فضلـــه ... ولا خير في الدنيا اذا لم يكن ذخر
نعزيك عن هذي الرزية انهـــــا ... على قدر ما في عظمها يعظم الأجـر
فصبرا- أمير المؤمنين - فربمـــا ... حمدت الذي ابلاك في عقبه الصبـــر (٢)

فهو قد قدم ابنه ذخرا له عند الله ليوم القيامة اذ لا تحسن الدنيا دون أن يقدم صاحبها فيها شيئا لأخرته وبما أن مصيبته في ابنه كانت عظيمة فكذلك سيكـــون أجره عليها . وما عليه لحين قبض ذاك الأجر الا الصبر فهو خير ما يحتاجـــه لتجاوز هذه المحنة الكبيرة .

ومن المعاني الأخرى في قصيدة التعزية بالابن الاشادة بالمتوفي وتعـــداد مناقبه " كأنهم يرون في ذلك ما ينفس بعض الشيء عن الأب الحزين "(٣) وذلـــك بتصويرهم مدى خسارته به فهم يشاركونه عمق جرحه وكبر مأساته . قال ابو تمام في تعزية عبد الله بن طاهر عن ولدين توأمين ماتا له :-

لهفي على تلك المشاهد منهمـــا ... لو أمهلت حتى تكون شمائـــلا
لفدا سكونهما حجى وصباهمـــا ... حكما وتلك الاريحية نائـــلا
إن الهلال اذا رأيت نمـــاءه ... أيقنت أن سيكون بدرا كامـــلا (٤)

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ، ص ٧٧٣
(٢) ديوان البحتري ج ٢ ، ص ١٠٠٣
(٣) الرثاء ، ص ٩٠
(٤) زهر الآداب ج ١ ، ص ٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يشيد بمناقب الفقيدين التوأمين التي لم تتح لها الفرصة لتكتمل وتظهر للناس ، وإنما بدا منها معالم وإشارات تدل على أنه لو مد في عمرهما حتى يكتمل نموهما لملكا كثيرا من صفات العقل والمنطق والكرم ، كالهلال الذي عندما يظهر نموه لرائيه يدرك أنه سيصبح بدرا كاملا .

وشبيه ذلك قول ابن الرومي معزيا أحدهم عن ابنه : -

مضى ابنك والآمال تكنف نعشه ... وتبكيه للمعروف وهي حواشد
ولو عاش عاشت في ذراه واورقت ... لها من عطاياه غصون موائد (١)

آمال كثيرة كانت معلقة عليه وعندما مات بكته هذه الآمال لما كانت ترجو من معروفه وعطائه ولكن القدر لم يشأ له أن يعيش ولو عاش لأمدّ بعطاياه ومعروفه أُناسا كثيرين .

وهكذا فقد شارك الشعراء الآباء في حمل عبء الفاجعة على أبنائهم بتعداد مناقبهم وبكائها ان كانوا اصابوا من العمر سنا كافيا لحملها ، وبكاء امانيهم الضائعة ان كانوا ما زالوا اطفالا او رضعا في المهد فقدموا للآباء خير مساعدة أهلتهم لحمل ثقل المصاب وتجاوز المحنة .

ولم يكتف الشعراء بتعداد مناقب الفقيد بل أشادوا بالأب وقاموا بمدحه وتعداد مناقبه ، ولعل ذلك راجع الى رغبة الشاعر بتخفيف حزن الأب بتذكيره بما هو عليه من صفات وأخلاق تؤهله بتجاوز مصابه ومن ذلك قول ابي العباس في الخليفة المعتضد في تعزيته اياه بابنه : -

يا ناصر الدين اذ هدّت قواعده ... وأصدق الناس في بؤس وانعام
وقائد الخيل مذ شدّت مآزره ... مذللات بإسراج والجام
وسائس الملك يرعاه ويكلؤه ... اذا حلا الغمض في اجفان نوام
لا يشتكي الدّهر ان خطب ألمّ به ... الا الى صمدة أو حد صمصام (٢)

فالشاعر ينوه في الأبيات السابقة بصفات الخليفة المعتضد فهو قد نصر الدين وأقام أركانه بعد أن هدت قواعده ، وكذلك فهو القائد المغوار الذي يقود الجيوش لمحاربة الاعداء . ومن صفاته كذلك حسن السياسة والتدبير لأمور الملك اذ لا تغمض له عين فهو دائم السهر والرعاية له لذا فإن أصابه القضاء بمصاب

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص : ٧٩٩
(٢) زهر الآداب ج ٢ ، ص : ٧٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يتجاوزه بقدرة الرجل الشجاع الذي لا يثنيه عن معاليه وأعماله العظيمة مهما كان مصابه عظيما كفقدانه ابنه .

فالمديح لوالد المتوفى اذن لم يكن خارجا عن موضوع قصيدة العزاء وإنما وظفه الشاعر توظيفا جيدا ، اذ استطاع أن يسترجع من خلال تعزيته بابنه ما وهبه الله من صفات وأخلاق عظيمة تؤهله لتجاوز المحن لذا فلا يجوز منه أن يتوانى او يضعف. ان هذا وسيلة من وسائل الشاعر يساعد فيها الأب على التماسك وعدم الانهيار .

ولم ينس الشعراء في قصيدة العزاء أن يدعو للأب بطول العمر فكأن طول عمره تعويض عما ضاع من عمر الابن : -

ويحبوك بالعمر الطويل متابعا لك الرفد والمبتز إن شاء رافد[١]

ومن دعائهم أيضا ان تكون قصيدة العزاء المرسلة آخر القصائد من نوعها ، ويحل مكانها قصائد المدح والثناء قال ابن الرومي : -

وزارتكم بالمدح كل قصيدة ولا قصدتكم بالمراثي القصائد[٢]

ولم تعد التعزية بالابنة عيبا ولا عارا عند كثيرين في هذا العصر ، بل شاع وكثر ، ولم يكن كذلك في العصور السابقة بل كان قليلا ونادرا ، قال ابن عبد ربه " ولم يكن العرب يعزون بالمرأة الا أن تكون أما "[٣] ولعل ذلك عائد الى تراجع قيمة الابنة أمام قيمة الابن ، اذ ان العرب كانت تكره أن تلد البنات وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك " واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون "[٤] ومن هنا فان موت الابنة لم يكن يشكل اهتماما في المجتمع فيقوم الشعراء بتعزية الأب فيها كما كانوا يفعلون عند موت الأبناء الذكور . اما في العصر العباسي فقد اختلف الأمر في مظهره وبقي كما هو في جوهره ، اذ أن التعزية بالابنة شاع وانتشر الا أن ما

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ / ٨٠٠

(٢) المصدر السابق ج ٢ / ص : ٨٠١

(٣) العقد الفريد ج ٢ ، ص ٢٦٤

(٤) سورة النحل الآية ٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان يأتي به الشعـــراء في قصائد التعزية تلك لم يكن في مجمله بأفضل ممـــا كان يقال فيها في الجاهلية بل وفي كثير من الأحيان كانت قصيدة التعزيـــة تتحول الى هجاء للمرأة بشكل عام وليس أدل على ذلك من قصيدة البحتـــري التي يعزي فيها أبا نهشل محمد بن حميد الطوسي عن ابنته ، التي قال فيها : -

أتبكيّ من لا ينازل بالسيـــ ـــف مشيحا ولا يهزّ اللـــواء ؟
والفتى من رأى القبور لما طـا ف به من بناته اكفـــاء
لسن من زينة الحياة كعدّ الـــ ـــنّ منها الأموال والأبنـاء
قد ولدن الأعداء قدما ، وورث ن التلاد الأقاصي البعـــداء
لم يشد كثرهن " قيس تميـم " عيلة بل حميّة وإبـــاء(١)

فالبحتري لا يرى ان البنت تستحق البكاء إن توفيت بل على العكس يجب أن يحمـد والدها وفاتها لأن القبر خير كفء لها ، ويحاول الشاعر أن يقنع الأب برأيـه هذا فلا يلبث أن يبدأ بتعداد مساوىء البنت خاصة والمرأة عامة مما يوقعـه في كثير من المغالطات ، فهو يرى أنهن لسن من زينة الحياة الدنيا اذ أن الله قد جعل الذكور من الأبناء فقط من زينة الحياة الدنيا مشيرا الى قوله تعالـى " المال والبنون زينة الحياة الدنيا "(٢) وقد فاته هنا أن الجمع جمـع تغليب يراد فيه البنون من الذكور والاناث على حد سواء ، اذ لا يمكن ان يكـون ما ذكره صحيحا ، مع علمنا بأن القرآن الكريم قد هاجم الجاهليين لموقفهـم من البنت .

ومن السيئات التي يراها البحتري في البنت أنها لا تحمل السيـف ولا تنازل الأبطال ، وأنها ولدت الأعداء ، وكذلك فانها تورّث مال ابيهـا الى ابنائها الاقاصي الغرباء ، ويضرب مثلا بقيس بن عاصم الذي كان يشـد بناته ويؤكد أنه لم يفعل ذلك عبثا وإنما حميّة وإباء ، ويستمر البحتـري في سرد سيئات الابنة الى ان يؤدي به الأمر الى هجاء المرأة عامة بقوله : -

واستزل " الشيطان " آدم "في الجـ ـ نة لمّا اغرى به حـواء
وتلفت الى القبائل ، فانظـر أمهات ينسبن أم آبـاء(٣)

---

(١) ديوان البحتري ج ١ ، ص : ٤٠
(٢) سورة الكهف الآية ، ٤٦
(٣) ديوان البحتري ، ج ١ ، ص : ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو هنا يعرض بالمرأة الزوجة والمرأة الأم ، اذ لم يكتف بالتعريض بالابنة . وهو كذلك يقع في مغالطات أخرى ، اذ ان الله سبحانه وتعالى قد برأ حواء من جرم اخراج آدم من الجنة وأشركهما في الذنب معا قال تعالى " فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى "(١) وكذلك فان كثيرا من القبائل والأشخاص ينسبون الى الأمهات وهذا شائع عند العرب منذ القديم ، ولكن حملة البحترى على البنات هي التي دفعته الى كل هذه المغالطات،ولعل الذي دفع البحتري الى كل هذا هو رغبته في تعزية ابن حميد عن ابنته وتسليته عنها ، فسلك طريقا فيه من الهجاء أكثر من التعزية مستمدا أفكاره من مفاهيم جاهلية .

أمّا ابن الرومي فقد ارتأى أن يدخل الى معزيه مدخلا آخر فيه شيء من منطق ابن الرومي فهو يرى أنه وإن كان الموت حقا لا بد للانسان منه فانّ من الغرابة بمكان أن يحزن الانسان لموت أبنائه في حين أنه لا يفعل مثل ذلك عند موت أحد أبويه مع أنّ تعويض الوالدين أمر مستحيل ، فقد قال معزيا عبدالله بن المسيب عن ابنته : -

أخا ثقتي أعزز علي بنوبه	مناك بها صرف القضاء المقدر
أصبت وما للعبد عن حكم ربه	محيص ،وأمر الله اعلى وأقهر
وما مات من قد يخلف الدهر مثله	عليك من الاسلاف والحق يبهر
أب عن أم برّة واقارب	مضوا سرحا في ظلمة الليل تزهر
فنمت ولم تهجر شرابك بعدهم	وكم تهجر النفس الزلال وتسهر
تعزيت عمن أثمرتك حياته	ووشك التعزي عن ثمارك اجدر
لأن احتيال الدهر في ابن وفي ابنة	يسير وكر الدهر شيخيك أعسر
تعذر ان نعتاض من أمهاتنا	وآباءنا ،والنسل لا يتعذر
الى أن يقيم الله يوم حسابه	فيلقون ،والأرواح تطوى وتنشر(١)

فالشاعر يرى أنّ الحزن يجب ان يكون بالدرجة الاولى على الوالدين ، خاصة وأنه لا يمكن تعويضهما في حين أن النسل يمكن تعويضه بسهولة ، لذا فمن باب أولى أن لا يتعزى بوفاتهم ، أمّا أن لا يتعزى بوفاة ابنته ويهجر شرابه ويحزن كل هذا الحزن عليها فلا يعقل منه ابدا .

---

(١) سورة طه آيه ١٢١

(٢) ديوان ابن الرومي ج ٣ ، ص : ٩٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن الرومي وان لم يكن في هذه الأبيات يفرق بين موت الأبناء ذكورا أو اناثا في الحزن عليهم والتعزي عنهم فإنه يقع في مغالطة كبيرة هو نفسه بدا غير مقنع فيها في بعض قصائده، فالوالدان رغم ما يكون لهما من مكانة عظيمة في النفس ورغم ما قد يكون حزن الانسان لفقدهم كبيرا فإن هذا لا يتعارض مع الحزن على الأبناء أبدا ، فالمكانة المتميزة للا بناء تجعل الحزن عليهم أكثر عمقا وأكثر ديمومة . أما قضية تعويض النسل فقضية غير مقنعة في هذا المجال أبدا اذ أن لكل من الأبناء ذكرا كان أم انثى مكانة خاصة لا يمكن أن يعوض أحد هذه المكانة ولو رزق بعشرات الأبناء. وابن الرومي كما ذكرت هو من أكثر الناس ايمانا بهذا او ليس هو القائل في رثاء ابنه محمد : -

وإني وان متعت بابني بعده ... لذاكره ما حنت الأين في نجد
واولادنا مثل الجوارح ايها ... فقدناه كان الفاجع الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله ... مكان أخيه في جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ... ام السمع بعد العين يهدي كما تهدي(١)

ولكن كانت هذه من الوسائل التي ارتاها ابن الرومي في تعزية معزيه عن ابنته ، ولعله لم يكن مقتنعا بها كثيرا لذلك لم يلبث ان استخدم الطريقة المعتادة في التعزية بالاناث من الأبناء ، اذ ربما رآها أجدر فأوضح أن موت الابنة ربما كان نعمة من نعم الله على عبده : -

فلا تهلكن حزنا على ابنة جنة ... غدت وهي عند الله تحبى وتحبر
لعل الذي اعطاك ستر حياتها ... كساها من اللحد الذي هو استر
وفي الماء طهر ليس في الظهر مثله ... وللترب احيانا من الماء أطهر
ولن تخبر الانثى طوال حياتها ... ولكنها بعد المنية تخبر
وليس بمأمون عليها عثارها ... مدى الدهر او يفضي عليها وتقبر
وكم من آخي حربة قد رأيته ... بنار ذوي الأصهار يكوى ويصهر
فلا تتهم الله فيها ولاية ... ولا نظرا، فالله للعبد انظر(٢)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ص : ٦٢٥ - ٦٢٦
(٢) المصدر السابق ج ٣ ، ص : ٩٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فموت الابنة نعمة من نعم الله التي أنعمها على معزيه اذ أن في الموت ستراً لها ، وفي التراب طهراً ، وموتها أفضل من تلك الحياة التي تعيشها في الدنيا ، فهي سوف تسر بما بعد الموت أكثر من سرورها في حياتها الدنيا . ومن الامور الاخرى التي رأى ان الموت يشكل ظاهرة حسنة بالنسبة لها ولأبيها لأن الموت يحميها من الخطيئة ، كما أنه يرحم أباها من متاعب الأعمار . ومن هنا كان الموت نعمة لها ولأهلها والذي قدر لها هذا القضاء أحكم من عباده في رؤية الأفضل .

ومما يشار اليه في نهاية الحديث عن التعزية بالبنات أنه وإن كانت هذه طريقة الشعراء في العزاء بهن فإنها لم تكن طريقة الآباء في الحزن عليهن ، اذ أن الآباء حزنوا كثيراً لوفاة بناتهم ولعل ذلك الحزن هو ذاته الذي دفع الشعراء الى تعزيتهم بهن وإن لم يحسنوا التعزية ، وهو الحزن ذاته الذي تحدث عنه الشعراء في قصائدهم والذي كان يدفع الآباء أحياناً الى هجر الشراب والنوم كما فعل عبدالله بن المسيّب .

وكما عزى الشعراء الخلفاء والأمراء والاصدقاء عن ابنائهم فقد عزوهم عن آبائهم ، وقد ساروا في قصيدة التعزية بالآباء على النهج ذاته الذي ساروا عليه في قصائد التعزية بالأبناء من حديث عن أحوال الدهر وتغيره واعادة القول في ان الموت حق لا بدّ ان يصيب جميع الناس كل ذلك للتخفيف من مصابه وتسليته عن بلواه ، مع قدر من التأبين للراحل ، ومدح للمعزى . فقد قال البحتري معزيا عبيدالله بن سليمان عن أبيه سليمان بن وهب :

أأخي نهنه دمعك المسفوكا ... ان الحوادث ينصرمن وشيكا
ما اذكرتك بمترح صرف الجوى ... الا ثنته بمفرح ينسيكا
الدهر أنصف منك في احكامه ... اذ كان يأخذ بعض ما يعطيكا (١)

فالشاعر يحاول تخفيف مصاب معزيه بتأكيده أن مصائب الانسان لا تلبث أن تخف حدتها بمرور الايام ، فهي عادلة في هذا المجال ، إن أصابت الانسان مصاب فلا تلبث أن تتبعه بما يخفف من شدة حزنه بما هو مفرح ، ثم يعرّج على الدهر كعادة الشعراء ليؤكد أنه منصف في أحكامه . فهو يعطي الانسان كثيراً وما يأخذه هو جزء من ذلك العطاء الذي هو حق له اصلا . ثم يتابع الشاعر الحديث عن تغير الحياة بما يمكن أن يخفف من مصاب معزيه من ذلك : -

---

(١) ديوان البحتري ج ٥ ص : ١٥٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نلقى المنون حقائقا ، وكأننا من غرّة نلقى بهنّ شكوكا
لا تركننّ الى الخطوب فانها لمع تسرك تارة وتسوكا (١)

فالانسان يلقى حتفه في غفلة منه ، فمع أننا نعلم أن الموت حق ولا بد من قدومه الا أننا لا نلبث نغفل عنه فترة من الزمن ولا نصحو عليه الا بعد حين، لذا لا يجوز ابدا ان نركن الى احوال الزمن فهي تأتي كلمح البصر مرة تسر الانسان ومرة تسيئه وما موت أبيه الا لمحة من هذه اللمح التي أساءته ومنيته هذه أوضح مثل على حال الدنيا :

هذا " سليمان بن وهب " بعد ما طالت مساعيه النجوم سموكا
وتنصف الدنيا يدبر أمرها سبعين حولا قد تمهن دكيكا
أغرت به الاقدار بغت ملمة ما كان رسّ حديثها مأفوكا (٢)

فالشاعر يخاطب معزيه بهذه الابيات قائلا : هذا والدك سليمان بن وهب بعد ما بلغت أعماله العظيمة ومساعيه الكبيرة مبلغا عظيما وبعدما قضى من العمر سبعين عاما أصابته الاقدار بما تصيب به الآخرين ، وهذا الأمر كفيل بأن يعزيك اذ ان هذه الحياة لا تبقي على أحد مهما بلغ من مجد وعظمة .

وللشاعر غاية من ضرب الأمثلة في هذا المجال ، واستخدامه جاء والد الشاعر مثلا يفيد في وجهين أولهما : أن الشاعر يعظّم المتوفى ويمدحه فيزيد في تعزية ابنه وتسليته ، وثانيهما : انه يستخدم صورة واقعية وقريبة من نفس معزيه فيفيده هذا بالتفكّر في حال الدنيا التي لا تبقى على احد،وهذا ما يزيد من تعزيته . ومن وسائل تسلية الشعراء الأخرى ليمعزيهم مدحهم اياهم وتعداد مناقبهم ، فكأنهم في ذلك يغوصون إلى اعماق المصاب بأبيه فيخففون من بلواه بتأكيدهم له أن ما عليه من صفات وأخلاق تجعله بديلا وعوضا عن أبيه المتوفى بالاضافة إلى ما يتوقعه الآخرون منه من بأس وشدة تجعله قادرا على تجاوز المصاب : -

---

(١) ديوان البحتري ج ٥ ، ص : ١٥٧٤ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٥ ص : ١٥٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل المصائب ما بقيت نعـــــدّه ... حرضا يزلّ عن النفوس ركيكـــا
انت الذي لو قيل للجود : اتخـذ ... خلاّ إ اشار اليك لا يعدوكـــــا
وكانما آليت ، والمعـــــروف لا ... تألوه مصطفيا ولا يألوكـــــا
ان الرزيّة في الفقيد فان هفـــا ... جزع بصبرك فالرزية فيكـــــا (١)

فالمصائب إن تجاوزته هو تكون هيّنة ، فهو خل للجود ، وهو والمعروف شـــيء واحد ومن كان بهذا الخلق ، فإن الرزية تصبح فيه لا في الفقيد ان اصابـــه الجزع وخانه الصبر . والعزاء بالآباء كثير ، وقد رأيت ان لا استزيد خوفـــا من الوقوع في التكرار خاصة وأنه يسير مع شعر العزاء بالأبناء على نفـــس النهج ، مع الاختلاف في ناحية التركيز على شـدة جزع الآباء على أبنائهـــم ، فقد كان الشعراء هنا يركزون على الأمور التي تخفف وقع المصاب علـــى الأب وتخفيف حزنه ولذلك حث الشعراء في معظم قصائد العزاء بالأبناء على الصبر ووقفوا كثيرا عند فكرة الاحتساب ليذكّروا الآباء بضرورة تخفيف الجـــزع حتى ينالوا ما وعدهم الله من أجر عظيم في الآخرة وهذا ما لم نجده بهـــذه الصورة في قصائد العزاء بالآباء .

وقبل الانتهاء من الحديث عن العزاء بالآباء ، لا بد من الاشارة الـــى نوع آخر من العزاء بالابناء وهو العزاء في الخلفاء الراحلين وتهنئة أبنائهم بتسلم مقاليد الخلافة بعدهم ، وهو موقف دقيق وصعب فالشاعر يجمع فيه بيـــن أمرين متناقضين هما التعزية بفقد الخليفة والتهنئة بتقليد الخلافـــة ومن هنا فإنـــه يخشى على الشاعر من الوقوع في المزالق ، الا أنّ الشعـــراء العباسيين استطاعوا تجاوز هذه الصعوبة ، وقد أكثروا منه ، ومن ذلك قول الشاعر مروان بـن أبـــي حفصة يعزي الهادي بوفاة المهدي ويهنئه بالخلافة : -

لقد اصبحت تختال في كل بلـــدة ... بقبر امير المؤمنين المقابـــر
أتته التي ابتزت سليمان ملكه ... والوت بذي القرنين منها الدوائر
أتته فغالته المنايا وعدّلـــه ... ومعروفه في الشرق والغرب ظاهـــر
ولو كان تجريد السيوف يردّهـــا ... ثنت حدّها عنه السيوف البواتـــر
بأيد بها تعطي الصوارم حقهـــا ... وتروي لدى الروع الرماح الشواجر
ولو لم تسكن بابنه بعد موتـــه ... لما برحت تبكي عليه المنابـــر (٢)

---

(١) ديوان البحتري ج ٥ ، ص : ١٥٧٦
(٢) ديوان مروان بن ابي حفصة ، ص : ٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يبدأ قصيدته برثاء الخليفة المتوفى ويتحدث عن المنايا التي غالته ويؤكد أن موته لم يكن هينا على الشاعر والآخرين من حوله ولو كانت السيوف والرماح تردها ما قصرت الأيدي الشجاعة القوية في ذلك ولكنه قدر الله الذي لا راد له ، وهو قضاء مفعول لا رجعة عنه ، والحزن عليه دائم لولا حلول ابنه مكانه وتسلمه لمقاليد الخلافة بعده فقد هدأ النفوس وطيبها لما يتوقع منه من متابعة ابيه في اعماله .

ومن الذين قالوا في هذا الموقفين موازنة دقيقة أبو الشيص اذ رثى الخليفة هارون الرشيد وعزى ابنه محمد الأمين فمما قال في ذلك : -

جرت جوار بالسعد والنحس ... فنحن في وحشة وفي أنس
العين تبكي والسن ضاحكة ... فنحن في مأتم وفي عرس
يضحكنا الغائم الأمين ويبـ ... ـكينا وفاة الامام بالأمس
بدران : بدر هذا ببغداد في الـ ... ـخلد وبدر بطوس في الرمس

فالشاعر في موقفين متناقضين وهو تناقض لأزم لانه يصور واقعا متناقضا فموت الخليفة هارون الرشيد أمر مثير للحزن والوحشة والبكاء وتسلم ابنه مقاليد الخلافة أمر آخر فيه تعز عن ذاك الراحل ،فالخليفة وابنه بدران واحد دفن في الطوس ، وآخر خليفة في قصر الخلد وبقدر ما حزن الشاعر لحال الأول فرح لحال الثاني .

---

(١) طبقات ابن المعتز ، ص : ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثر شعر التهاني كغيره من شعر المناسبات في هذا العصر ، فقد أصبح الشعراء يستغلون المناسبات السعيدة لدى الخلفاء وغيرهم من أمراء ووزراء وأصدقاء فينظمون القصائد لتهنئتهم بمناسباتهم تلك . وموضوع التهاني أحد المواضيع الجديدة التي تفرعت عن الموضوعات القديمة" وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة او تولد منها ، شعر التهاني الذي تحول اليه شعر المديح في بعض جوانبه "[1] . ومن التهاني التي شاعت وكثرت في هذا العصر والتي تقع ضمن اطار البحث هو التهنئة بالمواليد والتهنئة بعقد الخلفاء ولاية العهد للابناء من بعدهم .

أما التهنئة بالمواليد فقد كثر الشعر في هذا العصر فيها سواء أكان المهنأ به من أبناء الخلفاء أو الأمراء أم من أبناء الاصدقاء ، فقد كان الشاعر حين يسمع بولادة ابن لأحد الخلفاء أو الأصدقاء يرسل له قصيدة يهنئه بقدوم الفارس الجديد ، ويظهر مدى البهجة التي أصابته بقدومه ، قال عبدالرحمن العطوي مهنئا صديقه علي بن القاسم في مولود له .

أتيتك جذلان مستبشرا ... ببشراك لما أتاني الخبر
أتاني البشير فكم ساء ما ... أتاني به من أناس وسرّ
أتاني يذكر أن قد رزقت ... غلاما فأبهجني ما ذكر [2]

كان وقع خبر قدوم المولود الجديد على الشاعر مبهجا ومفرحا وما كان منه الا أن ذهب اليه مستبشرا ومادحا ، ولم يكن الشاعر هو الوحيد الذي سر بالخبر وانما هناك كثيرون ابتهجوا وسروا بالمولود الجديد وهم أحبته وأصدقاؤه ، ولكن الخبر في الوقت ذاته قد ساء آخرين من أعداء الأب وحساده الذين لم يبهجهم قدوم هذا المولود .

ويبدو أن هؤلاء الحساد موجودون في كل زمان ومكان لذا فقد أكثر الشعراء من الاشارة اليهم ، قال ابو العتاهية مهنئا الهادي بولادة مولود له : -

أكثر موسى غيظ حساده ... وزين الأرض بأولاده
وجاء من صلبه سيد ... أصيد في تقطيع اجداده [3]

---

(١) العصر العباسي الثاني ص : ٢٨
(٢) طبقات ابن المعتز . ٣٩٥
(٣) أبو العتاهية اشعاره وأخباره ،تحقيق الدكتور شكري فيصل مطبعة دمشق ١٩٦٥ تتمة الديوان ص ٥٣١ ، ٥٣٢ ،والاغاني ج ٤ ، ٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمجيء هذا الابن للخليفة موسى الهادي زاد في غيظ الحساد الذين لم يكونوا يريدون قدومه ، في حين أنه كباقي اخوانه زينة للأرض بالنسبة للأب ، وللآخرين الذين يأملون فيه كل خير . كل هذا الشعور لا يراه الحساد بل الأصدقاء والمحبون فقط . وقد تمتد هذه البهجة بقدوم المولود الجديد الى الأرض من حوله والى المنابر ، قال أبو العتاهية متابعا أبياته السابقة : -

فاكتست الأرض به بهجة ... واستبشر الملك بميلاده
وابتسم المنبر عن فرحة ... علت بها ذروة اعواده
كأنني بعد قليل به ... بين مواليه وقواده
في محفل تحقيق راياته ... قد طبق الأرض بأجناده (١)

فكل شيء ابتهج بقدوم هذا المولود بما في ذلك المنابر للمستقبل الذي ينتظره في مجال الحياة السياسية الذي هو من صلبها ، فهو سيكون حاميا لأرضه ودينه ومثبتا لقواعد ملكه ، ومن هنا يكاد يرى الشاعر ذلك المستقبل المشرق الذي ينتظره بين مواليه وقواده محتفلا بتحقيق انتصاراته وأعماله البطولية .

والحديث عن المستقبل الذي ينتظر المولود والأمنيات التي تراود الشاعر في ذلك المستقبل لم يكن خاصا بأبناء الخلافة فقد امتدح الشعراء مستقبل غيرهم من المواليد لأمانيهم فيما سيكونون عليه من علم وخلق وشجاعة ، كل ذلك مستمد مما يرونه في آباء المولود وأجداده .
قال ابن الرومي مهنئا القاسم بن عبيد الله بمولود له : -

وافد زار مستماحي وفود ... مرتجي منه مستماح وفود
سلّه الله للخطوب من الغيـ ... ـب كسلّ المهند المغمود
فيه عرف ، وفيه نكر معدّا ... ن لأهل النهى وأهل المرور
وكمين الحريق في العود مخفيّ ... وحقين الرحيق في العنقود (٢)

فالوافد الجديد أتى ليسير على نهج آبائه وأجداده ، وقد جاء الله به ليجلو به الأمور العظيمة تماما كسل الفارس لسيفه لمواجهة أمر عظيم ، ففيه فائدة وخير لأهل العقل والصواب ،وفيه شر للعصاة والجاحدين ، وهذان أمران اكيدان فيه - كما يقول - يلحظهما الانسان وان كان ما يزال وليدا تماما كالحريق

---

(١) أبو العتاهية اشعاره واخباره ٥٣٢ والاغاني ج ٤ ، ٥٥ .
(٢) ديوان ابن الرومي ج ٢ / ص : ٦١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكبير الذي يكمن في العود وهو كذلك كوعاء الرحيق الذي يكمن في العنقود وهذه بلا شك أمان مستقبلية يتوقعها المولود الجديد في ضوء ما يرى من مجد آبائه وأجداده، وكثيرا ما كان يصاحب مدح الأماني المستقبلية للمولود دعاء للأب ليعمّر طويلا حتى يرى ذلك المستقبل الرائع الذي ينتظر المولود واخوته ، قال العطوي في تهنئة صديقه بمولود أتاه : -

فعمرك الله حتى تراه ... وقد قارب الخطو منه الكبر
وحتى يرى حوله من بنيه ... ويرجى لخير ويخشى لشر
فأوزعك الله شكر العطاء ... فان المزيد لعبد شكر (١)

فهو يدعو له بالعمر الطويل حتى يرى ابنه قد كبر ومن حوله أبناؤه واخوته وأبناؤهم وقد حقق ذلك المستقبل المشرق بما فيه من اعمال عظيمة منتظرة منه ، لذا فانه يتمنى على صاحبه أن يشكر الله على عطائه. ويدعو الله أن يزيد في عمره حتى يكبر اولاده ويطمئن على مستقبلهم ، وقد أصبحوا كما يأمل ويحب .

وقال ابن الرومي في مهنئه : -

زادك الله فوق صالح ما اعـ ... ـطاك شكرا وغبطة في خلود
وأراك ابنك السعيد كثيرا ... ببنيه في المحفل المشهود (٢)

فالشاعر يدعو للأب أن يزيد من عطائه ، وأن يريه ابنه المولود وقد أصبح قويا باحفاده وهو ، يشير الى مفهوم اجتماعي شائع منذ القديم مفاده ان الانسان يكون كثيرا وقويا بما لديه من أولاد ، يساعدونه في حياته سواء كان في شبابه ، بما يقدمون له من دعم ومساعدة ، ام في شيخوخته حيث يكون بحاجة الى العناية والرعاية .

وبما أن شعر التهاني تولّد من شعر المديح ، فقد بقيت قصيدة التهنئة محافظة على كثير من مظاهر قصيدة المدح الاصلية اذ أنها تحوي كثيرا من عناصر المدح ، وكذلك فإنها تكرر الصفات والفضائل التي كان يرددها المادحون في قصائدهم المدحية كالشجاعة والجود والعفة ... وهذا دليل

---

(١) طبقات ابن المعتز ، ص: ٣٩٦
(٢) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٦٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على أن هذه الصفات التي كان يمتدح بها الرجل آنذاك هي ذاتها التي كانت العرب تأمل أن تراها في مواليدها مستقبلا .

ومن أهم الممدوحين في قصيدة التهنئة والد المولود ، قال علي بن الخليل مهنئا يزيد بن مزيد في ولادة ابن له : -

يزيد يا ابن القيد من وائل ... أهل الرياسات وأهل المعال
يا خير من انجبه والد ... ليهنك الفارس ليث النزال(١)

فالشاعر يشير الى منزلة يزيد بن مزيد القيادية والحربية فيمدحه بها ، ويشير الى أنه ليس وحيدا في هذا المجال بل هو من قوم كانوا دائما كذلك وبالتالي فهذا ما يتوقعه الشاعر للمولود .

وقد يكون للوالدة نصيب من المدح ، قال ابن الرومي في تهنئة ابي العباس بن بشر المرثدي بمولود : -

بدر وشمس ولدا كوكباً ... أقسمت بالله : لقد انجبا
ثلاثة تشرق أنوارها ... لا بدّلت من مشرق مغربا
بدر وشمس ابوا مشتر ... ما نازعت شرواه أم أبا(٢)

فالبدر (الوالد) والشمس (الوالدة) انجبا (نجما) (المولود) وهو جميل مفرد في جماله لذا فهما يتنازعان فيه كل يقول هو لي لحسنه .

وامتدادا لمدح الوالد والمولود يقوم الشاعر بمدح ابائهما وأجدادهما ويعدد فضائلهما التي حرص العرب على وجودها فيهم وفي أولادهم ، قال ابن الرومي في مدح آل بشر : -

يا آل بشر ابشروا فلكم ... فقد ولدتم مطلبا مهربا
تبارك الله وسبحانه ... اي شهاب منكم اثقبا
ان طاب او طبتم فما ابعدت ... فروع مجد اشبهت منصبا

---

(١) الأغاني ج ١٤ / ١٨٠
(٢) ديوان ابن الرومي ج ١ /٢٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا عجيب ، لا ، ولا منكـــــــر أن تلدوا الأطيب فالأطيبـــــا
اصبحتم ،والله يبقيكـــــم، منتجع الحرّ اذا أجدبـــــا
مهما انتقصناه اذ زدتـــــم من نعم الله فلن يحسبـــــا
أنتم اناس بأياديكـــــــم يستغفر الدهر اذا أذنبـــــا
فليشكر الدهر لكم ، إنـــــه أرضى بكم من بعد ما أغضبـــا (١)

فالشاعر يشير إلى أن الفرحة بالمولود لم تكن خاصة بوالديه فقط ، وإنمـــــا كانت بشرى لآل مرثد الذين ما فتئوا ينجبون الأخيار والفضلاء من الأولاد لـــــذا فإن هذا المولود الذي زكوا به لم يخرج عن شجرة الأصل بما فيهـــــا من خيـــــر وبما لها من مكانة ، فهم منتجع الحر ، نعمهم وأياديهم على الناس دائمـــــة بها تغفر ذنوب الدهر مهما عظمت .

وفي نهاية الحديث عن شعر التهنئة بالمواليد اذكر أن شعراء هذا العصر وإن كانوا قد عزوا الخلفاء والولاة وغيرهم بموت بناتهم ، فانهم لم يهنئوهـــم بولادتهن . وهذا ليس غريبا في ضوء المعرفة بعدم الرغبة بولادتهن ، وهـــــذه نظرة وان كانت فيها جاهلية بعيدة عن روح الاسلام الذي ساد هذا العصـــر، الا أنها تظل من القضايا التي تعمقت نفوس كثيرين وبقيت موجودة فيهم .

والتهنئة بعقد ولاية العهد للأبناء من شعر المناسبات الذي برز فيهـــا الحديث عن الأبوّة والبنوة معا ، اذ اسهب الشعراء فيها بمدح كل مـــــن الآباء والأبناء مشيرين الى الأحوال التي كانت تغلف علاقة كل من الآبـــــاء والأبناء تجاه بعضهم بعضا . قال ابو العتاهية في الخليفة هارون الرشيـــــد لما عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن : -

رحلت عن الربع المحيل قعـــودي الى ذي رحوفة جمة وجنـــود
وراع براعي الليل في حفظ أمـــة يدافع عنها الشرّ غير رقود
بألوية جبريل يقدم أهلهـــا ورايات نصر حوله وبنـــود (٢)

فأبو العتاهية يمدح الرشيد بما كان يقوم به من سهر الليل لرعاية امتـــــه وحفظها ، فهو يدافع عنها بكل ما يمكنه من محاربة أعدائها وحماية ثغورهـــا ،

---

(١) ديوان ابن الرومـــي ج ١ ، ٣٣٣
(٢) الأغاني ج-٤ / ١٠٤ - الديوان ٥٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو لم يكتف بهذه الرعاية في حياته فأراد الاطمئنان عليها بعد موته - كما يقول الشاعر - اذ أحسّ بأن الحياة الدنيا ليست دار خلود له ولا بدّ أنه مفارقها في يوم : -

تجافى عن الدنيا وأيقن أنهما ... مفارقة ليست بدار خلود
وشدّ عرى الاسلام منه بفتية ... ثلاثة أملاك ولاة عهود (١)

لقد عقد انطلاقا من احساسه بأن الدنيا " ليست بدار خلود " لبنيه من بعده فوثق بهم عرى الاسلام - كما يقول الشاعر - وهنا يشير الى أمر مهم في مجال العلاقة بين الأب وابنائه ، الا وهو حرص الأب على ابنائه من بعده حرصا يساوي حرصه على نفسه ،فبقاؤه ممثل في بقاء ابنائه وتحويل كل ما يملك من الدنيا اليهم بعد رحيله عنها . وهذا ما فعله الخليفة هارون الرشيد اذ عندما أحسّ أنه لا بد مفارق الدنيا عقد لبنيه الخلافة ، وهي افضل ما يملك من الدنيا حتى يضمن استمرارها في ذريته وقد قال الشاعر في مدحهم : -

هم خير اولاد ، لهم خير والد ... له خير اباء مفت وجدود
بنو المصطفى هارون حول سريره ... فخير قيام حوله وقعود
تقلب الحاظ المهابة بينهم ... عيون ظباء في قلوب اسود
جدودهم شمس أنت في أهله ... تبدت لراء في نجوم سعود (٢)

فلعلّ خير ما رأى الشاعر ان يمدحهم به هو نسبهم ، فهم أفضل اولاد لافضل أب وهو ابن لأفضل آباء وجدود،فهم جميعا نسل المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام ، ويؤكد أفضلية هذا النسب مرة أخرى بقوله ان جدودهم كانوا كالشمس التي انجبت أقمارا اظهرت للناس كنجوم سعد بما قاموا به من أعمال جليلة تسّر الناس وتفيدهم . ولم يكتف الشاعر بمدحهم بذاك النسب الذي يتخذون منه زادهم من صفات الهيبة والوقار بالاضافة الى الحسن والشجاعة ، فهم ، وإن كانوا يملكون عيون الظباء حسنا ، فانهم يملكون قلوب الأسود شجاعة وثباتا . والشاعر يشير بأبياته السابقة الى صورة من صور الأبوة والبنوة

---

(١) الأغاني ج ٤ ص : ١٠٤
(٢) المصدر السابق ج٤ ص : ١٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بتحلقهم حوله يحيطونه بالرعاية ويسمعون لنصحه وارشاده .

وتشبيه الأب وأبنائه بالكواكب يبدو انه شائع في هذا العصر . قال ابراهيم بن العباس في المتوكل وولاة العهود : -

ولما بدا جعفر في الخميس بين المطل وبين العروس
بدا لابسا بهما حلة ازيلت بها طالعات النحوس
ولما بدا بين احبابه ولاة العهود وعز النفوس
غدا قمرا بين اقماره وشمسا مكللة بالشموس
لايقاد نار واطفائها ويوم أنيسق ويوم عبوس (١)

فالشاعر بتشبيهه الخليفة بين ولاة العهود بالقمر بين أقماره او بالشمس المكللة بالشموس ، يشير الى ناحية مهمة في العلاقة التي تربط الأب بأبنائه فهو بوجودهم كأنه يلبس بها حلة جميلة : تسره اولا ويفاخر بها ثانيا ، ولعل كلمة اللباس تشير اكثر ما تشير هنا الى ذاك التلاصق والترابط الذي يكون بين الأب وابنائه في كل حال من احوال الحياة بأنسها وكدرها .

ومن هنا اقول وان كان الشعراء في شعر المناسبات يصفون علاقة الابوة والبنوة وصفا خارجيا فانهم وضعوا ايديهم على كثير من مكامن هذه العلاقة التي تربط الطرفين بعضهما ببعض . ولكن بقي هذا الشعر ذا طبيعة مختلفة عن طبيعة الشعر الذي قاله الاباء في الابناء أو الأبناء في الآباء من حيث الاحساس بقوة الترابط والتلاحم بينهما من حيث التركيز والصدق العاطفي الذي يغلف هذه العلاقات في اغلبها .

---

(١) الأغاني ج ١٩ / ٦٤ - ٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الأخوة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الأخوة

نالت الأخوة قدرا جيدا من اهتمام شعراء العصر العباسي فقد كثر الشعر الذي يتحدث عن الاخوان ويصف علاقة الاخوة ، وما يكتنفها من روابط وعلاقات.كما تنوعت المجالات التي طرقها هؤلاء الشعراء في حديثهم عن هذه العلاقة من مديح ورثاء وعتاب وهجاء وغير ذلك ، بالاضافة الى تعدد أنواع الاخوّة التي تحدث عنها شعراء هذا العصر . ومن خلال استعراض شعر الاخوّة يلاحظ الدارس أن هناك انواعا للاخوّة تحدث عنها الشعراء وهي : -

أولا : الاخوة الحقيقية (الاشقاء)

وهذا النوع من الأخوّة هو المقدم في الدراسة فأخوة الاشقاء تقع ضمن الأسرة الصغيرة التي يقوم البحث بدراستها وقد اهتم الشعراء بهذا النوع من الاخوّة وعرضوا من خلاله معاني وأغراضا كثيرة منها حب الأخوّة وعتابهم ورثاؤهم وغير ذلك من معان .

فحب الاخوة بعضهم بعضا يعد من المظاهر المهمة للارتباط الأسري، ويكمن حب الأخوة في مساعدتهم وايثارهم والخوف عليهم ومدحهم ، وكذلك في الجزع عليهم ورثائهم .

وقد تمتد مساعدة الاخوة لتشمل أولادهم ، من ذلك ماذكره صاحب الأغاني في ترجمته لأشجع السلمي انه كان يحب الثياب وكان يكتري الخلعة كل يوم بدرهمين فيلبسها أياما ثم يكتري غيرها قال :فابتعت أثوابا كثيرة بباب الكرخ فكسوت عيالي وعيال اخوتي حتى انفقتها (١).

ومثل هذه المساعدة المادية كانت شائعة بين الاخوان اذ إن الأخ قد يساعد أخاه إن كان مقلا،وقد يؤثره على نفسه في بعض الحالات .

ومن إيثار الاخوان ما روي عن بشار بن برد انه كان يحافظ على هندامه كثيرا ، وفي ذات يوم خرج وعليه لباس قذر وعندما سئل عن السبب قال : هذه ثمرة صلة الرحم (٢) وتفسير ذلك أنه كان له اخوان قصابان ، ومعروف

---

(١) الاغاني ج ١٨ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .
(٢) نفسه ج ٣ ، ص ٢٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما قد يلحق لباس القصابين من قذارة ، وكانا يسطوان على لباس بشار النظيف فيلبسانه . وعندما لا يجد لباسا نظيفا يلبسه يضطر الى لبس ملابسهما القذرة ، كل ذلك بدون غضب أو سخط عليهما رغم ما عرف عنه من سوء الخلق .

والخوف مما يقع كان أيضا مظهرا من حب الاخ لأخيه فقد ذكر المرزوقي أن أحمد بن يزيد قال : " لما عزم المعتمد الخروج الى الشام والموفق اذ ذاك يحارب الخائن بالبصرة والدنيا مضطربة ، أشار عليه أبو عيسى أخوه ألا يفعل وحرّض به ، فأبى عليه ، فقال أبو عيسى وعمل لحنا فيه :

أقول له عند تودبعه ... وكل لعبرته مبلس
لئن قعدت عنك اجسادنا ... لقد رحلت معك الانفس(١)

ومديح الأخ لأخيه تعبير عن نوع خاص عن الحب والاجلال والتقدير له وقد يكون ايضا تعبيرا عن اعجاب بشخص الأخ او خلقه ، وقد تناثرت بعض المقطوعات في مديح الاخوان في طيات الشعر العباسي ، وغالبا ما كانت مثل هذه المقطوعات ترتبط بمناسبة معينة ، من ذلك مديح عُلية بنت المهدي لأخيها الرشيد اذ قالت :-

تفديك اختك قد حبوت بنعمة ... لسنا نعد لها الزمان عديلا
الا الخلود ، وذاك قربك سيدي ... لا زال قربك والبقاء طويلا
وحمدت ربي في إجابة دعوتي ... فرأيت حمدي عند ذاك قليلا(٢)

فالشاعرة تقدم أخاها على نفسها حبا واجلالا له ، وتشيد بمكانته الرفيعة بصفته خليفة للمسلمين وتعد هذه نعمة من النعم العظيمة التي تشكر الله عليها . ومن معالم حبها له الدعاء له بطول العمر والبقاء ، فهذا هو من هو أفضل أمانيها وأهمهما .

ومن مجالات المدح مدح الأخ أخاه بالكرم ، قال ابراهيم الصولي في أخيه عبدالله :-

ولكن عبدالله لمّا حوى الغنى ... وصار له من بين اخوانه مال
رأى خلة منهم تسد بماله ... فساهمهم حتى استوت بهم الحال(٣)

---

(١) مروج الذهب ج ٥/ ص : ١٠٥
(٢) الاغاني ج ١٠/ ص ١٨١ ، شاعرات العرب ، ٢٦٣.
(٣) معجم الأدباء مج ١ ، ص : ١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يمدح صفة الكرم في أخيه ، وهي صفة طالما امتدح صاحبها بها لقيمتها وأهميتها في ذلك الزمان ،ان لم تكن في كل زمان . فقد كان أخوه يتمتع بقسط من الغنى ، وعندما رأى فقر اخوانه وحاجتهم الى المال قاسمهم ما يملك حتى استوى الجميع في الحال . وقد اكبر الشاعر هذا الخلق في اخيه فمدحه به .

ويمثل التعاطف مع الاخوان والاستعطاف لهم صورة اخرى من صور المحبة بينهم ، فهم من خلاله يوضحون شدة الحب لهم والحرص عليهم ، وكذلك مشاركتهم في مشاكلهم وهمومهم ، ومن هنا أجد مثل هذا الشعر ، مؤشرا على وثوق العلاقة الأخوية في المجتمع العباسي ، قال ابن الرومي يستعطف لأخيه : -

أبا اسحاق ، لا تغضب فأرضى ... بعفوك دون مأمول الثواب
أعيذك أن يقول لك المرجى ... (رضيت من الغنيمة بالاياب)
أسوءُ الرأي في ابن ابي وأمي ... نصيبي من عطاياك الرغاب ؟(١)

فالشاعر يدخل هذا المدخل لمخاطبة مستعطَفِه ، حتى يمهد لما يريدهُ منه الا وهو العفو عن أخيه والرضى عنه ، فيصرّ على جعله راضيا ، حتى يستطيع أن يخاطبه بما يريد.ومن هنا فهو يطلب اليه الا يغضب مما سيقوله حتى يبقى له أمل يحقق به مراده الذي وفد عليه من أجله وهو العفو عن أخيه وحتى ، لا يكون مثل من رضي من سفره بالرجوع سالما فقط ، ثم يحاول بعدها محاولة اخرى لاستمالة المستعطف بالتنويه بكرمه وكثرة عطاياه ولكنها كانت لغير الشاعر الذي يرى أن مستعطفه لم يحقق له شيئا من عطاء او كرم بل على العكس من ذلك كان منه الغضب على أخيه ابن أمه وأبيه وذكر النسبة الى الأم والأب دلالة على زيادة في قوة الرابطة الأخوية بينهما . وبعد ذلك يتطرق لموضوعه الذي جاءه من أجله ، فيدافع عن أخيه ويبرر ما كان منه : -

على أن الفتى لم يجن ذنبا ... اليك ولم يجر سنن الصواب
أعره منك إصغاء وفهما ... يضيء لك عذره ضوء الشهاب
وَهَبْهُ جنى ذنوب القوم طرا ... ألم يك عن عقاب في حجاب
فهبك حتمت أن له عقابا ... ألم يك دون عتبك من عقاب(٢)

فهو يؤكد لمستعطفه أنّ أخاه لم يجن ذنبا ، ولو أصغى لكلامه لاتضح له عذره ، وحتى إن كان أذنب فعلا فإنه من الممكن أن يمنع عنه العقاب وإن اصرّ عليه

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ١ ، ص : ٣٢٩ .
(٢) المصدر السابق والصفحة ذاتها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيرى الشاعر أن يختار له نوعا من العقاب السهل المحتمل .

ثم يعود إلى وسيلته في التأثير ، وذلك باكبار المستعطف : -

أترضى ان يكون هفو هـــاف يزعزع طود حلمك ذا الهضاب (١)

فهذا المستعطف ذو حلم كبير كالجبل العظيم ، لذا فإن مثله لا يجوز أن يجعل لزلة مخطىء تأثيرا على حلمه هذا ، ومن هنا فقد كان أجدر به أن يسامح أخا الشاعر على هفوته وأن يقبل عذره ويبطل ما أضمره من عقاب له ، ويأتي بعد ذلك البيت الذي تبرز فيه عاطفة الاخوة فيقول : -

تجاوز عن اخي وشقيق نفسي فجنبي مذ عتبت عليه نـاب (٢)

فالشاعر يطلب من مستعطفة أن يتجاوز عن خطأ أخيه : شقيق روحه وأعز الناس لديه . لعل ذلك يريحه ويخلصه من همه وقلقه الذي أصابه من جراء حزنه على أخيه ، وفي ذلك ما يوضح قدر التعاطف مع الأخ ، فهو يشاركه حمل الهم والقلق والخوف مما يمكن أن يحدث . ثم يعود مرة أخرى ليؤكد أمله وآمال أخيه في المستعطف . لعل ذلك يفيد في تخفيف ما طلبه منه في بيته السابق الا وهو التجاوز عن الخطأ ومسامحته عليه : -

عجبت له ولي أنا رجونـا سماء منك صائبة السحاب
فأخلفت الذي نرجو وصبت علينا منك صاعقة العذاب
على أنا نؤمل منك عودا بفضلك وارعواء للعتاب (٣)

فقد كان أملهما به كأملهما بالسماء الممطرة ، ولكنه قد أخلف هذا الأمل بما فعل بل زاد عليه ما أنزل بهما من عقاب ، ومع ذلك ما زالا يأملان بأنه سيعود عما فرض من عقاب وينعم عليهما بالعفو . وهو في استعماله الضمير نحن دليل على قمة التعاطف بين الشاعر وأخيه ، فالعقاب كان لأخيه ولكن لأنهما شيء واحد جعله لهما الاثنين تأكيدا لفكرته السابقة بأنه شقيق نفسه وما يصيبه يصيب الشاعر .

وقد أكد الشاعر كثيرا من المعاني السابقة في ابيات اخرى قالها في الاستعطاف لأخيه وهي : -

---

(١) ديوان ابن الرومي ج١ ،ص: ٣٢٩
(٢) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها
(٣) نفسه ص ج١ ، ٣٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا ليت شعري والحوادث جمة ... هل اشتكي دهري وأنت صديقي
وشكايتي الأيام دون شكايتي ... إن خانني عند النهوض فريقي
إني أعوذ بما تأكد عقده ... بيني وبينك أن تضيع شقيقي
أو أن يجوز به الزمان عن الفتى ... أو بي وأنت طريقه وطريقي (١)

فالشاعر يحاول أن يقدم لمطلبه من مستعطفه بالتنويه بالعلاقة الطيبة التي تربطه به ، ثم يوضح بعدها أثر ما حصل منه لأخيه على نفسه ، فيخشى أن يوقع به العقاب ، ومثل هذا أورثه الهم والقلق ، لذا فهو يطلب له العفو ويأمل من مستعطفه أن يسامحه ويقبل عذره .

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٤ ، ص : ١٦٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما مراثي الاخوان فزخر الشعر العباسي بها اذ أصيب عدد من الشعراء في اخوانهم فرثوهم رثاء حارا صوروا فيه عمق المأساة وشدة وقع المصاب كما أنهم صوروا أنفسهم الحزينة ازاء هذه الفاجعة وذلك لما للأخ من مكانة عزيزة في النفس وخصوصا اذا كانت تجمعهما رابطة الحب والمودة فقد ورد أن المأمون جزع لوفاة آخيه أبي عيسى جزعا عظيما فبكاه بكاء حارا . ذكر صاحب الاغاني أنه لما مات ابو عيسى بن الرشيد وجد عليه المأمون وجدا شديدا وكان له محبا واليه مائلا .....[1] وهم ، بالاضافة الى بيان أحزانهم وغزارة دموعهم ، ابنوهم تابينا حارا وذلك بذكرهم مناقبهم وفضائلهم كما سيتضح في الصفحات التالية : -

لقد كان للمصاب الذي اصيب به عدد من الشعراء بفقدهم اخوانهم اثر كبير ووقع مؤثر ، وقد وصف هؤلاء الشعراء حالهم إزاء هذا المصاب فصوروا حزنهم الشديد المختلط بالتفجع والتحسر على الراحل العزيز .

قال المرار[2] في رثاء أخيه بدر :

تذكرت بدرا بعد ما قيل عارف لما نابه يا لهف نفسي على بدر[3]

فالشاعر يتذكر أخاه وأحاديث الناس من حوله بأنه صابر على فقده ، فكان ذلك يزيد من لهيب حرقته على أخيه الراحل ، فما الصبر الذي يلحظه الناس عنده ما هو الا مظهر خارجي يتظاهر به ليحافظ على تماسكه أمام الآخرين، في حين كان - على الحقيقة - يخفي قلبا متصدعا ونفسا حزينة تتحرقان لفقده .

ومن الشعراء من كان يئن حزنا على أخيه الذي رحل قال علي بن عبيد الله بن محمد في رثاء أخيه : -

لي يا أخي أبدا عليك أنين والى خيالك رنة وحنين
ومدامعي مشفولة بك كلها وخيال وجهك للضمير يبين[4]

---

(١) الأغاني ج ١ ، ١٩١
(٢) هو المرار بن سعيد ، شاعر من مخضرمي الدولتين
(٣) الأغاني ج ١٠ ، ٣١٩
(٤) معجم الشعراء ،ص ٢٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يصف حاله بعد فقده أخاه فهو يئن حزنا لفقده وللحال التي اصبح عليها فيقفي وقته باكيا عليه وذكراه ماثلة امامه .

ومن الشعراء من رأى أن حزنه الشديد وحده لا يفي حق أخيه الراحل، لذا راح يستحث ما حوله أن يشاركه الحزن عليه. قالت خولة بنت طريف في رثاء اختها : -

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تحزن على ابن طريف[٢]

فالشاعرة تريد من كل ما حولها أن يحزن ويجزع على أخيها ، بما في ذلك عناصر الطبيعة لذا فهي تبدو عاتبة على شجر الخابور الذي لم يسقط أوراقه ويجف حزنا على أخيها الذي يستحق مثل هذا الموقف لشجاعته وحسن بلائه وأخلاقه الحميدة الأخرى .

ومما كان يزيد من حزن الشاعر وآلامه الحال التي أصبح عليها أخوه ، فقد وصف القاسم بن يوسف [٣] هذه الحال - قال مخاطبا نفسه : -

أترجو سلوة وأخوك ثاو ببطن الأرض تحت ثرى مهيل
تبوأ منزلا في دار قفر بمدرجة السوافي والسيول
رأيت السفر غابوا ثم آبوا وغبت فلا إياب لذي الفضول
وبات الركب او قالوا فراحوا وكم لك من مبيت او مقيل
تحلة نازح شطت نواه وأوطن للاقامة والحلول[٤]

فشواء أخيه تحت التراب كان يؤلمه ويحزنه ، ويزيد من لهيب هذا الحزن سفر أخيه الذي لا رجعة منه ، اذ ان المسافرين وإن طالت غيبتهم، يعودون يوما إلى أهلهم وأصحابهم ، أما أخوه فغيابه أبدي اذ طال مقيله فأصبح مثل نازح عن داره ابتعد كثيرا عنها وتوطن غيرها حتى صارت داره الجديدة موطنا دائما له .

---

(١) معجم الشعراء ، ص ٢٨٤

(٢) الاغاني ج ١٢ ، ص : ٩٢ - ٩٣ ،والعقد الفريد ج٣ /٢٦٩ وشاعرات العرب ص : ٣٧٥

(٣) القاسم بن يوسف من شعراء العصر العباسي الأول اشتهر برثائه للبهاشم (معجم الشعراء ، ٣٣٥) .

(٤) الاوراق ، ١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأمور الأخرى التي كانت تزيد من جزع الشاعر احساسه بعظم الخسارة التي لحقته بوفاة شقيقه ، فقد أكدّ كثير من الشعراء أن اخوانهم كانوا سندهم وعضدهم في الحياة وبموتهم خسروا المعين والصاحب : - قال السيد الحميري في رثاء أخيه : -

يابن أمي فدتك نفسي ومالي كنت ركني ومفزعي وحمالي(١)

وقال أشجع السلمي في رثاء اخيه : -

كان يميني يوم فارقت أحمدا أخي وشقيقي فارقتها شماليا(٢)

فالسيد الحميري يؤكد مكانة الأخ الشقيق فهو يمثل السند والعضد لأخيه والملجأ الذي يلجأ اليه الأخ ان دارت عليه عوادي الزمن ، ويؤكد أن أخاه هذا كان اخاه لأمه ، وهذا النوع هو أرفع درجات الاخوّة وأكثرها قوة وترابطا حسبما توضح النصوص . أما اشجع السلمي فيرى أن أخاه كان يمثل له كل عون ومشاركة فهو بالنسبة له كشماله بالنسبة ليمينه في معاونتها ومشاركتها في كل أعمالها .

وأكد غيرهما من الشعراء أنّ أخاه كان يمثل الأمل والمدخّر له . قال محمد بن الأشعث في رثاء أخيه : -

مات من كنت آمله ومضى من قد كنت أدخر
ما أبالي بعد مصرعه أي نفس خانها العمر(٣)

فقد كان يرى في أخيه الأمل الذي يتطلع اليه في تحقيق ما يحب ويتمنى كما أنه كان يدخره لوقت حاجته سواء كانت هذه الحاجة مادية أم غيرها ، ولكن بموته خسر الشاعر كثيرا فقد مات الأمل وضاع الادخار لذا لم يبق من يرتجيه أو يخاف عليه ، اذ أن الآخرين لا يمثلون له شيئا وسواء بقاؤهم أم موتهم ولم تكن الخسارة دائما تخص الشاعر وحده ، ولكن قد تتعداه لتشمل قومه وكثيرا ممن هم حوله ، فقد ذكر القاسم بن يوسف أنّ المصاب بأخيه قد عمّ كثيرا من الناس منهم الأباعد والأداني ومنهم الأرامل واليتامى وغيرهم : -

---

(١) العقد الفريد ج٢ ، ٤٠٧
(٢) طبقات ابن المعتز ٢٥٣.
(٣) معجم الشعراء ٤٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأضحوا بعده أسفا عليـــــه كموجعة مفجعة ثكـــــول(١)

فقد كانت خسارتهم به عظيمة لذا أسفوا عليه أسفا شديدا وكان حزنهم كحـــــزن ثكلى أصيبت في ولدها . أمّا خولة بن طريف فقد شاركها جميع قومها فـــــــي الحزن على أخيها :

بكت تغلب الغلباء يوم وفـاته وأبرز منها كل ذات نصيـــف
بقلن وقد أبرزن بعدك للـورى معـاتد حلي من برى وشنـــوف
كأنك لم تشهد مصاعا ولم تقم مقاما على الأعداء غير خفيف
ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبة ولم تبد في خضراء ذات رفيف (٢)

فالشاعرة تؤكد حزن قبيلتها جميعها على أخيها وبكاء نسائها وقد كشفن عـــن محاسنهن جزعا وهلعا لعظم المصاب الذي حلّ بهن ، وقد كنّ يندبن ويذكـــــرن صفاته الكثيرة التي أهّلته لأن يحقق مثل هذه المكانة والأهمية مما جعلهـــن يدركن مدى الخسارة به وعمق الفاجعة .

ومن مظاهر الحزن المهمة الأخرى بكاء الأخ أخاه الراحل ، فقـــــد حثّ الشعراء أنفسهم على البكاء وذرف الدموع لما لذلك من فائدة فـــــــي تخفيف آلامهم وشفاء أنفسهم مما تجد ، قال القاسم بن يوسف :-

ألا ابك أخاك بالدمع الهمـــول لعلّ الدمع يبرد من غليـــل
يروّح عنك من كمد ووجـــــد كثكلى تستريح الى العويـــل
ومثل أخيك فلتبك البواكـــي لمهمهة تلبّس بالعقـــول
فيفرج لبسها حتى تجلـــــى برحب الذرع والرأي الأصيـــل(٣)

فالشاعر يحث نفسه على بكاء أخيه على أمل أن الدمع يشفي غليله ويريحهـــا مما بها من ألم ووجد ، فحاله كحال ثكلى استسلمت الى العويل والصـــــراخ ليخففا ما بها من ألم وحرقة على فقد ابنها ، وهو لا يكتفي بحث نفســـــه على البكاء فحسب وإنما يريد من الآخرين ممن هم حوله أن يبكوا كبكائـــــه لأن موت أخيه مصيبة عظيمة طفت على العقول ، وخسارة الجميع به لا تعـــــوض اذ لم يبق لهم جميعا من منجىً سوى الدموع يلجؤون اليها لعلها تخفـــــف

---

(١) الاوراق ، ١٨٧ .
(٢) شاعرات العرب ، ص ٣٧٦ ، المصالح : القتال والجلاد .
(٣) الاوراق ، ١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ألمهم وحزنهم جميعا .

وقد يزيد حزن الشاعر كثيرا عندما لا يندب أخاه النداب وتنوح عليه النائحات لسبب ما ، فيبحث عمن يقوم بهذه المهمة وليس أفضل من الحمام ليقوم بها . فقد قال أبوعيينة في رثاء أخيه الذي مات في الطريق اليه : -

أنائحة الحمام قفي فنوحي ... على داود رهنا في ضريح
لدى الاجيال من همذات راحت ... به الأيام للموت المريح
ولم يشهد جنازته البواكي ... فتبكيه بمنهل سفوح (١)

فقد عرف عن الحمام صفة الوفاء ، ولاحساس الشاعر أن النوح من خصائص النساء اللواتي لم يشهدن جنازة اخيه حتى يوفينه حقه من البكاء والدموع فقد رأى الشاعر أن يبحث عمن يقوم بهذه المهمة بدلا منهن فوجد أن الحمام لخلته السابقة مؤهل لذلك فطلب من نائحة الحمام أن تبكيه بدموع غزيرة بعد أن توفي وأصبح ساكن قبر موحش . عبر الشاعر بطلبه هذا عن مكنونات نفسه ، ورغبته في ذرف الدموع الغزيرة على أخيه الراحل .

وقد أمرّ الشعراء على ديمومة البكاء على اخوانهم وإصرارهم هذا دليل على استمرار ذكراهم حيّة في نفوسهم ومؤشر على وفائهم لهم. قال أشجع السلمي في رثاء أخيه :

ولا زلت أبكي ما تغنت حمامة ... عليك وما هبت صبا وجنوب
وما حملت عين من الماء قطرة ... وما اخضر في دوح الأراك قضيب
بكائي كثير والدموع قليلة ... وأنت بعيد والمزار قريب (٢)

فالشاعر يشير الى استمرارية بكائه على أخيه الراحل ويربط هذه الاستمرارية بأمور لا تنتهي أبدا الى نهاية الحياة كهديل الحمام ، وهبوب الرياح ووجود الماء في العيون وإخضرار شجر الأراك .

---

(١) الاغاني ج ٢٠ ، ص : ١٠٢
(٢) الاوراق : ١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما محمد بن الأشعث فلن يترك البكاء على أخيه الى أن يصيب العمى عينيه :-

ما لعيني منجدا أبـــــدا دون أن تلقى العمى عـــــذر
أوذوت من بعد نضرتهـــــا وحماها الترب والمـــــدر (١)

فالشاعر يبكي اخاه ما دامت عيناه تقدران على ذلك فإن أصابهما العمى او التلف فانّ ذلك فقط سيكون مبررا لتوقفه عن البكاء .

وقد صور بعض الشعراء علاقتهم بالدموع بأنها علاقة عداء، لا بد له من أن يأخذ ثأره منه بوفاة أخيه ، قال اشجع السلمي في قصيدة اخرى له يرثي بها أخاه : -

لئن أنا لم أدرك من الدمع ثاريا ولم أشف قرحا داخلا في فؤاديا
لتخترمنني الحادثات وحسرتـــي بأحمد في سوداء قلبي كما هيا (٢)

فبكاؤه هو الوسيلة لتحقيق ثأره من الدموع وإلا فان حسرته ستبقى كما هـــي، ولعل مثل هذا الرأي وهذا الاصرار يؤكدان ما للدموع من دور في تخفيف وقـــع الحدث على المصاب بأخيه ، لذا فإنه يحس براحة كبيرة إن هو فعل وبكـــى أخاه بغزارة ،ولذا ما يلبث الشعراء أن يشكروا عيونهم على ما اسعفتهـــم به من دموع قال المرار في رثاء أخيه : -

إذا خطرت منه على النفس خطرة مرّت دمع عيني فاستهل على نحري
وما كنت بكاء ولكن يهيج لـــي على ذكره طيب الخلائق والخبـــر
أعيني إني شاكر ما فعلتمـــا وحقّ لما أبليتماني بالشكـــر
سألتكما أن تسعداني فجدتمـــا عوانين بالتسجام باقيتـــي قطر (٣)

فالشاعر الذي لم يكن يبكي من قبل أصبح بكّاء على أخيه ، دموعه حاضرة كلمـــا تذكر من أخيه خلقا او فعلا وهو يبدو في هذا كله مرتاحا راضيا ، لذا فهـــو يشكر عينيه اللتين ساعدتاه على هذه الراحة بما وفرتا له من دموع كلمـــا سألهما ذلك .

وقد صاحب الدموع وديمومتها السهاد، فقد فارق النوم جفن الأخ المفجوع بل لقد قاوم هو بارادته أحيانا هذا النوم وأبى على عينيه أن ترتاحا مـــن

---

(١) معجم الشعراء ، ٤٤٢
(٢) الاوراق ، ١٣٣
(٣) الاغاني ج ١٠ ، ص ، ٣٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البكاء وتركنا الى النوم ، وهناك نماذج اخرى أذهبت فيها النوم من أصحابها حزنهم وقلقهم حتى غدوا لا يكترثون بما تأتي به الأيام قالت ثمامة بنت عبدالله ترثي اخاها سوّار القاضي : -

جفا حفني الكرى بعد ... دك وانهلت مآقيه
أمنت الدهر لما مت ... ت فلنطرق دواهيه (١)

فالنوم قد فارق جفونها قلقا وحزنا على أخيها الراحل اذ اصبح تحت رمس وتراب، ولحالها بعده وقد كان عضدها ومعينها ، أما وقد توفي فلم تعد تخشى من الدهر شيئا اذ هو الذي كان يهمها من الناس وبما أنها أصيبت به فقد أمنت من مصائب الدهر جميعها .

وليس البكاء والسهاد هما فقط مظاهر الحزن على الأخ الراحل وإنما هناك مظاهر اخرى ، فبعضهم حرّم على نفسه أنواع الزينة ، واعتزل حياة اللهو كما فعل أشجع السلمي : -

أأدهن رأسي او تضاعف كسوتي ... ورأسك معفور وأنت سليب
فأقسم لا اصبوا الى عيش لذة ... وقد ضم لحييه عليك قليب (٢)

تبين الأبيات أنه قد عزم على الا يدهن شعره ، والا يضاعف كسوة بدنه لأنه يتذكر ما فيه أخوه من تعفير تراب واستلاب لباس ، كما حرّم على نفسه التمتع بأية لذة في الحياة لأن أخاه لا ينال في قبره من متع الدنيا شيئا بعد أن غيب في قبر موحش يعلو جثته فيه التراب والحجارة .

ويبدو أن مصابه بأخيه كان كبيرا حتى لقد ترك هذا المصاب علامات بارزة على جسده أهمها الشيب في شعره : -

تعجب سلمى من مشيب ذؤابتي ... وعمر أبيها إنه لعجيب
ومثل الذي لو تعلمين أصابني ... به الدهر يبلى رمتي ويشيب
رزئت أخا لا ينتجي القوم دونه ... اذا ضمهم يوم أصم عصيب (٣)

---

(١) نزهة الجلساء في اشعار النساء ، ٢٩ .
(٢) الاوراق ١٣٢
(٣) المصدر السابق ١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمصابه بأخيه الذي يبدو واحدا في قومه ليس مثله أحد كان سبب ظهور شيبه المبكر،والذي كان ظهوره عجيبا في ذلك الوقت كما أن احساسه هذا بالنسبة لمصابه وحزنه على أخيه أفسد حياته كلها ، قال :

لقد أفسد الدنيا عليّ فراقه وكدر منها كلّ ما كان صافيا (١)

لقد حال موت أخيه بينه وبين كل ما كان يرغب ويحب وذلك لاحساسه بالذنب إن هو أراد الركون الى حياة هانئة او لاهية : -

ويمنعني من لذة العيش انني أراك اذا فارقت لهوا ترائيا (٢)

فهو يحس أن صورة أخيه تراقبه وتلاحقه من مكان إلى آخر ، لذا فهو إن أراد اقتراف لذة او مقاربة لهو يخشاها ويتراجع سريعا عما نواه، وهذا كله مما يزيد في حزنه وشقائه .

وأفاض الشعراء في ذكر مناقب الاخوة الراحلين إفاضة واضحة في أشعارهم ، اذ ندر من الشعراء من لم يعدد مناقب أخيه الراحل او لم يلمح لها ، بل لقد قصر بعضهم القصيدة كلها على ذلك وقد أجمع عدد منهم على عدد من الصفات والمناقب هي ذاتها التي ذكرها الآباء في أبنائهم سواء كانت موجودة على الحقيقة أم في مخيلة كأماني ضائعة . وهي ذاتها التي تعارف العرب على مدح صاحبها بها ،والتي عملوا على رؤيتها في أبنائهم وأملوها في إخوانهم وعلى رأسها الكرم والشجاعة ومساعدة المحتاج والحلم وحسن الجوار .

ومن الشعراء الذين أفاضوا في ذكر اخوانهم الشاعرة خولة بنت طريف في رثاء اخيها الوليد والذي أرداه يزيد بن مزيد في حرب الخوارج فقالت فيه : -

بتل نباتي رسم قبر كأنه على جبل فوق الجبال منيف
تضمن جودا حاتميا ونائلا وسورة ضرغام ورأي حصيف
الا قاتل الله الجثا كيف اضمرت فتى كان للمعروف غير عيوف (٣)

---

(١) الاوراق ١٣٣
(٢) المصدر السابق ١٣٣
(٣) شاعرات العرب ٣٧٤ - ٣٧٥ ، وقد وردت القصيدة كذلك في الاغاني ج١٢/٩٢-٩٣، والعقد الفريد ج ٣ /٢٦٩ مع اختلاف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا القبر موجود في مكان عال كعلو همة صاحبه ، وهو يحوي الكرم والشجاعة والحكمة باحتوائه أخاها كناية عن أخلاق صاحبه التي كان يتمتع بها في حياته. لقد كان - إضافة الى هذا - صاحب معروف عظيم يصعب على القبر بعمقه ووحشته أن يخفيه ويتابع تعداد مناقبه فيقول :

فتى لا يحب الزاد الا من التقى ولا المال الا من قنا وسيوف
ولا الخيل الا كل جرداء شطبة واجرد ضخم المنكبين عطوف (١)

فمن مناقبه ، الجرأة ورباطة الجأش ، وكذلك التقوى اذ هي الزاد المحبب لديه ، وهو لا يجمع من المال الا السيوف والرماح فهي الذخر المقدم عنده ، ولا يملك من الخيل الا كل قوية سريعة يعتمد عليها في القتال ، لذا فقد كان كالربيع لأهله ومعارفه : -

فقدانه فقدان الربيع وليتنا فديناه من ساداتنا بآلوف(٢)

فهو مشرق معطاء كالربيع ، عزّ على أهله وقومه رحيله ولو أمكنهم فداءه لفدوه بآلاف من ساداتهم .

وهذا الشعور ليس غريبا مع ما تصفه به اذ تابعت قائلة : -

وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجا لعدو اولجا لضعيف
حليف الندى ان عاش يرض بعد الندى وإن مات لا يرض الندى بحليف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فيا رب خيل فضها وصفوف(٣)

فقد عاش حياته محاربا لأعدائه ، ومعينا لغيرهم من ضعفاء او محتاجين ، وهو والكرم حليفان متلازمان . كان في الحرب قائدا مغوارا يقود الجيوش ويحقق النصر بشجاعته وإقدامه ، ومن هنا فإن خسارة قومه به عظيمة لا تعوض .

ولا تزال الشاعرة في قصيدتها هذه تعدد مناقب أخيها الراحل، وتؤكد على الصفات المرغوبة في الرجل العظيم ، ولعل هذا كله دليل على ان الغرض

---

(١) شاعرات العرب ٣٧٥ (٢) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها .
(٣) الأغاني ج ١٢ ، ص : ٩٣ وشاعرات العرب ، ٣٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من تعداد مناقب الفقيد هو بيان مدى الخسارة فيه . لذا كانت الشاعرة لا تلبث بين حين وآخر توجه حديثها الى قوم الشاعر التي كانت ترى أن لهم يدا في ضياعه ، قالت : -

أضاعك قومك فليطلبوا إفادة مثل الذي ضيعوا(١)

لذا فقد أكثرت من التأكيد على مناقبه الحميدة التي خسرها قومه بموته ولو دافعوا عنه ومنعوه من الموت لأفادوا منه كثيرا .

ولعل من أكثر الاخلاق التي ركز الشعراء على وصف اخوانهم الراحلين بها الكرم ومساعدة الآخرين . قال ابو عيينة في رثاء اخيه داود يخاطب نائحة الحمام : -

وكوني مثله اذ كان حيا جوادا بالغبوق وبالصبوح
انائحة الحمام فلا تشحي عليه فليس بالرجل الشحيح
ولا بمشمر فلا تشحي ولا فيها بمفمار طموح
يبيع كثير ما فيها بباق ثمين من عواقبه ربيح(٢)

فلقد كان اخوه في حياته كريما في كل وقت يحتاج الى كرمه وعطائه ولم يكن بخيلا أبدا ، كما انه ليس ممن يحبون جمع المال وادخاره بل كان يقدمه ليكسب به مدحا ويحقق لنفسه مكاسب تفيده في حياته الآخرة . وهو على قدر عطائه وسماحة خلقه يتوقع من نائحته بكاء ودموعا فالحزن والجزع لفقده يجب أن يكون على مستوى أخلاقه ، وقال العطوي في رثاء أخيه : -

كأن أبا العباس لم يلق ضيفه ببشر ولم يدخل بجدواه راحل(٣)

فهو كريم ومعطاء ، يلقى أضيافه بترحيب كبير ، ويقدم لزائره المحتاج ما يطلب.وأحسن الكرم ما يكون في وقت الحاجة الماسة اليه حين يندر وجود الكرماء ، وقد ذكر الشعراء هذا في تأبين اخوانهم . قال القاسم بن يوسف في رثاء أخيه : -

فتى سهل الخليقة والمحيّا يعاف ويجتوي خلق البخيل
اذا استمطرت راحته فدفق سواكبها بغيثٍ حيا هطول

---

(١) الاغاني ج ١٢ ، ص : ٩٣ ،وشاعرات العرب ، ٣٧٧
(٢) الاغاني ج ٢٠ ، ص : ١٠٢
(٣) الامالي ج ١ ، ص : ٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الحالين من يسر وعسر ... اذا ظن الخليل عن الخليل
ربيع المعنفين اذا استهلت ... شهور القرّ في الزمن القحول
ثمال للأرامل واليتامى ... وللجار المجاور والدّخيل(١)

فالشر يؤكد على صفة الكرم في اخيه فهو يكره البخل ويعافه وهو معطاء كالغيث الهطول سواء كان في حالة عسر او يسر ، يساعد المحتاجين في سنين القحط والشدة اي في الوقت الذي يقل فيه الكرماء. وللأرامل والجيران نصيب وافر من كرمه وعطائه .

ومثله بدر أخو الشاعر المدرار اذ قال في تابينه : -

تذكرني بدرا زعازع حجرة ... اذا عصفت احدى عشياتها الغبر
اذا شولنا لم يوت منها بمحلب ... قرى الضيف منها بالمهند ذي الاثر
وأضيافنا ان نبّهونا ذكرته ... فكيف اذا انساه غابرة الدهر
اذا سلّم الساري تهلل وجهه ... على كل حال من يسار ومن عسر(٢)

فهو في ذكرياته لأخيه يذكر كرمه وعطاءه الذي كان حاضرا لديه دائما في يسره وعسره وحتى في السنين الماحلة التي كان الناس لا يملكون شيئا كان هو يقري الضيف بأغلى ما لديه الا وهي ناقته فيذبحها له . وهو كذلك دائما يرحب بأضيافه ويبرهم ويكرمهم لا يهمه في ذلك إن كان مقلا او موسرا .

ولعل الاصرار على اثبات صفة الكرم عند الأخ المرثي دليل كبير على قيمة هذه الصفة في المجتمع العربي القديم الذي كان فيه كثير من الناس سواء أكانوا محتاجين أم غير محتاجين يعتمدون على عطاء الكرماء في حياتهم ، بالاضافة الى كونها عادة من العادات العربية الاصيلة التي يفتخر العربي بها ، لذا فقد امتدح الشعراء الكرماء في حياتهم واعتبر الكرم مما يميز الرجل الأصيل لدى الناس جميعا ، وإذا ما توفي لا يلبث الشعراء من اخوان وغير اخوان أن ينوهوا بهذا الخلق عنده. وهم بهذا كله يوضحون مدى ما خسره الناس بموته خصوصا ممن كانوا يعتمدون على عطائه في سد حاجاتهم.

وليست صفة الكرم وحدها هي التي ذكرها الشعراء في اخوانهم الراحلين بل هناك صفات اخرى مهمة وإن لم تكن في مستوى الكرم ، منها السيادة والبر والعفو . قال القاسم بن يوسف في اخيه : -

---

(١) الاوراق ، ١٨٦ - ١٨٧
(٢) الاغاني ج ١٠ ، ص ، ٣١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زعيم القوم في جدّوهـــــزل ... بحسن فكاهـة وصواب قيـــــل
حفي بـالأقارب والأدانـــــي ... كفعل الوالد البر الوصـــول
يضمهم الى كنف رحيـــــب ... ويؤويهم الى ظل ظليـــــل
ويقبل منهم الحسنى ويعفـو ... عن السوأى لدى جهل الجهـــول
ويحمل كلّهم والثقل عنهـم ... فتى غير السئوم ولا الملـــول(١)

فمن صفات الأخ المرثي السيادة اذ كان زعيم قومه - كما يقول - وهـــو زعيم من نوع خاص يحسن الجدّ في وقته والفكاهة في وقتها ، وهو عطوف بـــار بالأقارب والأباعد يرفق بهم ويبرهم برّ الأب بأولاده ، وهو يعاملهم بحلـــم ويشاركهم همومهم واهتمامهم ولا يبخل على من يحتاج الى مساعدة . وقـــد أكثر القاسم بن يوسف من ذكر مناقب أخيه فجعله يتمتع بصفات مثالية فـــي كثير من الاحيان ، وكأني به يريد اقناع نفسه والآخرين ممن حوله بـــأن شدة حزنه وكثرة بكائه على أخيه ليس كثيرا بل هو أقل ما يكون ازاء أخ عظيم مثل أخيه خصوصا وأن تعداد هذه المناقب أتى بعد مقدمة طويلة نسبيـــا في الحديث عن أحزانه ودموعه وقلة صبره وعدم مقدرته على التعزي عن مصابـــه العظيم .

ومن الصفات الأخرى التي أوردها بعض الشعراء في اخوانهم حســـن الجيرة والوفاء ، قال أبو عبدالرحمن بن أبي أعطية في رثاء أخيه : -

فاذهب كما ذهب الشباب فإنـــه ... (قد كان خير مجاور ومجيـــر)
(واذهب كما ذهب الوفاء فإنـــه ... عصفت به ريحا صبا ودبـــور(٢)

فبالاضافة الى أنه كان وفيا فقد كان حسن الجيرة يفيد مجاوره ويريحـــه ، وكذلك إن اجاره الناس فهو يقدم لهم كل عون ويكون لهم على أفضل ما يكـــون المجير لمجيره .

ومن المناقب الأخرى التي اهتم الشعراء بها في تأبين اخوانهم قـــوة الكلمة وصواب القول : - قال العطوي : -

كان لم يكن لي خير خل وصاحـــب ... وخير خطيب تتقيه المقـــاول (٣)

---

(١) الاوراق ، ١٨٦ -- ١٨٧
(٢) زهر الآداب ،ج٢ ، ص : ٦٦٥
(٣) الأمالي ج ١ ، ص : ٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فبالاضافة الى أن اخاه كان له خير صديق وصاحب ، فقد كان خطيبا بليغا يحسن الرد ويفهم من يحتاج الى ذلك .

وأخيرا رفعة النسب وشرفه من الصفات التي أبّن بعض الشعراء اخوانهم بها ، قال أبو عيينة في رثاء أخيه داود : -

ومن آل المهلب في لباب الخالص المحض الصريح
همو أبناء آخرة ودنيا وأهداف المراثي والمديح(١)

فهو من آل المهلب المعروفين برفعة النسب ، والذين يمدحون بأعمالهم في حياتهم الدنيا ويثابون في حياتهم الآخرة . وهم هدف للمدائح في حياتهم الدنيا وللمراثي عندما يرحلون عن الحياة الدنيا.

لعل هذه الصفات هي أهم ما طرق الشعراء في تأبين اخوانهم فيما بين يدي من نصوص ، ومن الملاحظ تركيزهم على الصفات التي تعد مثالية في رجال ذلك العصر والتي تجعل منهم رجال سيادة، وقلما تطرق الشعراء للصفات الجسمية للأخ المرثي . وليس بينهم من بكى أماني ضائعة في أخيه كما وجدنا في تأبين الآباء لأبنائهم ، وذلك راجع فيما أرى الى اختلاف العلاقة بين الطرفين من نواح كثيرة أهمها أنّ علاقة الأخوّة تكون في طور من الاهتمام الكافي لأن يصبح دافعا لحزن الأخ وجزعه في سن الرجولة . وهذا الاهتمام يكون أكثر بكثير من الاهتمام بالأخ الطفل بعكس علاقة الأب بابنه التي تتوطد منذ قدومه للحياة ، كما أن جمال الهيئة ليس مثيرا للأخ ولا يحرز عنده أدنى اهتمام بعكس الأب الذي يبحث في ابنه عن كل معاني الحب ودوافعه ، والجمال أحد هذه الدوافع وإن كان أقلها اهتماما كما رأينا في رثاء الآباء لأبنائهم .

لم يبن موقف الشعراء من حدث وفاة الأخ في رثائه اياه مثلما بان في رثاء الأب لابنه، ولعل مرد ذلك الى أن حدث وفاة الأخ على أخيه أيسر وأسهل مما هي عليه وفاة الابن بالنسبة لأبيه لذا فقد تقبل الأخ الأمر بهدوء أكثر.هذا بالاضافة الى أن الأخ قد شغل بذكر صفات أخيه عن شغله بأي أمر آخر ، ومع هذا لا نعدم ان نجد من الشعراء من اهتم بالحديث

---

(٣) الأغاني ج ٢ ، ص : ١٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن موقفه من الحدث ومحاولته الصبر والتعزي عن هول المصاب.ومن الشعراء من ضعف ازاء الحدث ضعفا كبيرا وخانه الصبر فلم يقدر عليه. مثال ذلك ما قاله الشاعر العطوي في رثاء أخيه : -

لقد باكرته بالملام العواذل ... فما رقأت منه الدموع الهواطل
أيقن جميل الصبر من هدّ ركنه ... وهيض جناحاه وجدّ الأنامل
أمن بعد ما ذاق المنية أحمد ... تطيب لنا الدنيا وتصفو المناهل(١)

فالعطوي يعاني من لوم العواذل ولكنه لا يستطيع أن يمتنع عما يلام عليه من كثرة البكاء على أخيه لأن الصبر الذي ينصح به قد تهدم بضياع أخيه الذي كان معوانا وصديقا له . ولاصابته البليغة به لم يستطع أن يتذوق من الدنيا حلوا ولا أن يعيش حياة صفاء بعده أبدا .

من الذين بلغ الحزن منهم أشد مبلغ وفقدوا الصبر فبدا ضعفهم واضحا في تمنيهم الموت الشاعر عماره بن عقيل اذ قال :-

أخي يوم أحجار الثمام بكيته ... ولو حمّ يومي قبله لبكاني
تداعت له آيامه فاخترمته ... وأبقين لي شجوا بكل مكاني
فليت الذي يبكي بعثمان فدوة ... دعا عند قبر مثلها فنعاني(٢)

فعمارة في ضوء أحزانه ودموعه يقول : لو أنه هو الذي نعي بدل أخيه ، لكان ذلك أهون عليه وأسهل .

ومن المواقف الايجابية التي تبناها بعض الشعراء الصبر ، فقد حاولوا التجلد إزاء الموقف ما وسعهم. ذلك ومنهم المرار اذ قال في رثاء أخيه : -

الا يا لقومي للتجلد والصبر ... وللقدر الساري اليك وما تدري
وللشيء تنساه وتذكر غيره ... وللشيء لا تنساه الا على ذكر(٣)

---

(١) الأمالي ج ١ ، ص : ٣٣
(٢) طبقات الشعراء ، ص ٣١٨ - ٣١٩
(٣) الاغاني ج ١٠ ، ص : ٣١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر سواء قصد التجلد أمام الآخرين أم التصبر على النكبات لعلمه بحسن الجزاء عليه فإنه حاول الصبر وتمنى لو يستطيع تحقيقه .

ومن الذين تبنوا موقفا شبيها ودعوا الآخرين للصبر القاسم بن يوسف الذي قال : -

رماك الدهر بالخطب الجليل فعزّ النفس بالصبر الجميل(١)

فلا شيء يفيد في مواجهة هذا الحدث على عظمه سوى الصبر ، فهو الأمر الوحيد الذي يحمد عليه الانسان في مثل هذه الحال .

ويبدو من خلال ما بين يدي من شعر أن الشعراء قد تقبلوا حدث وفاة الأخ بصفته أمرا واقعا لا سبيل الى رده . ومن الأمور التي ساعدت على ذلك الفكر الديني الذي كان لدى شعراء ذلك العصر اذ كان اللقاء مع الأخ المتوفى فيما بعد الموت وسيلة من الوسائل التي تخفف وقع الحدث على الشاعر خاصة وأن الشاعر أصبح أكثر اطمئنانا على من يفقده وقد عرف حقيقة ما يحدث بعد الموت بعكس الشاعر الجاهلي الذي كان جهله لحقيقة ما بعد الموت ، وكذلك جهله لطبيعة الموت نفسه يزيد من جزعه وحزنه على من يفقد من أهله ومعارفه. ومن الذين طرقوا مثل هذا الأمر السيد الحميري اذ قال في رثاء اخيه :

يا ابن امي فدتك نفسي ومالي كنت ركني ومفزعي وجمالي
ولعمري لئن تركتك ميتا رهن رمس فنك عليك مهال
لوشيكا ألقاك حيا صحيحا سامعا مبصرا على خير حال
قد بعثتم من القبور فأبتم بعد ما رمّت العظام البوالي(٢)

فالشاعر الذي يقدم نفسه وماله فداء لأخيه يظهر ماله من محبة ومكانة في نفسه ، لما كان للأخ الراحل من مواقف له مع أخيه حيث أنه كان المساعد الحامي له وكان بالنسبة له الملجأ الذي يفزع اليه إن أصابه هم او لحقه ضرر ولم يكن ليفعل ذلك لولا ما يتوقعه من عون ومساعدة ، لذا فإن مصابه به عظيم وقد ترك في نفسه تقرحات وأحزانا . ولكن ما كان يخفف من وقع ذلك كله توقعه اللحاق به واللقاء معه سريعا وأمله في أن يجده على أحسن حال قد بعث من القبر فعاد لحاله الاول قبل نزوله فيه .

---

(١) الاوراق ، ١٨٦
(٢) العقد الفريد ج ٢ ، ص : ٤٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتضح من الشعر السابق أثر الفكر الديني في معاني الشاعر وفي لغته ، وقد كان مثل هذا الفكر مخففا للمصاب في أهله وباعثا للأمل عندهم ، فهو أولا يطمئن على مصير المتوفى وثانيا فهو يأمل اللقاء معه في الحياة الأخرى . وهذا كله قد ساعدهم على الصبر والتجلد .

وحتى يحققوا هذا الصبر الذي وطنوا نفوسهم عليه لجؤوا الى التعزي والتاسي بأحوال الزمان وأهله من حولهم ، فحكموا عقولهم وفكروا في حقيقة الموت والحياة لعلهم يجدون ما يعزيهم عمن فقدوا من اخوانهم .

ومن الذين استفادوا من هذه الحقيقة ، فكانت من وسائل تعزيتهم عن اخوتهم اشجع السلمي ، قال : —

ندب ونسى أننا بمضيعة ... وليل فينا والنهار دبيب
وكل فتى يوما وإن طال عمره ... سيدعي الى ما ساءه فيجيب (١)

فهو يصف حال الناس الذين يحيون حياتهم وكأن الموت لن يصل اليهم يوما ، فيؤكد أن الموت يدب الينا ولا بد أن يصل كلا منا عندما يدعونا وسنجيب دعوته حتى لو كان ذلك بعد عمر طويل. وقد جعل الشاعر في قصيدة اخرى من قضية تتابع الليل والنهار دليلا آخر على موت البشر وذهابهم واحدا تلو الآخر . قال : —

خليليّ لا تستبعدا ما انتظرتما ... فإن قريبا كل ماكان آتيا
الا تريان الليل يطوي نهاره ... وضوء النهار كيف يطوي اللياليا
هما الفتيان المترفان اذا انقضت ... شبيبة يوم عاد آخر ناشيا (٢)

فالموت قادم بلا شك حتى لو ظنه الانسان بعيدا، وما حياة الانسان الا كدورة الليل والنهار يأتي الليل فيطوي النهار ، ثم يطلع النهار فيطوي الليل وكذلك الحياة يموت أناس ويولد آخرون ، ثم يموت هؤلاء ويولد غيرهم ، وهكذا يذهب جيل ويأتي آخر وما دامت الحال هكذا فالكل لا محالة ذاهب في يوم من الأيام وما على الانسان سوى التفكير فيما حوله والتاسي ، اذ لا ينفع حزن ولا جزع بل الصبر والتعزي .

---

(١) الأوراق ، ١٣٢ — ١٣٣

(٢) الشعر والشعراء ، ابو مسلم محمد بن قتيبة الدينيوري ، تحقيق مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية بيروت — لبنان ط ١٩٨١ ، ص ٤٦٣ والأوراق ، ١٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الشعراء من يحاول التفكير ويقنع بما يوصله اليه تفكيره الا أن ذلك لا يعزيه عن أخيه الذي لا يستطيع بعده سلوا ولا تعزيا ، قال : -

فإن الدهر بالحدثان رهن ... وكل سالك قصد السبيل
وإن الدهر طلاب دروك ... وساق بأوتار الذحول
وان الدهر لا يبقي عزيزا ... ولا تنبو يداه من الذليل
فإن الدهر لا عتبى عليه ... وليس يقيل عثرة مستقيل (١)

فالشاعر يعلم أن الموت حقيقة لا بد أن يدركها كل انسان مهما طال به العمر لأن الدهر يتابعه ويدركه فيحقق ما يريد منه . وهو لا يدخر في ذلك عزيزا ولا ذليلا ، لذا فلا يفيد عتب او سخط عليه . وفي تكرار الشاعر لكلمة الدهر بشكف عما يعتمل في داخل الشاعر من ضيق وتبرم به بالاضافة الى تأكيد قدرته وسطوته ولكن ومع قناعة الشاعر بهذا الأمر وتأكيده له الا أنه لم يستطع أن يعزيه عن أخيه قال : -

عزاءك قد حدا بأخيك حاد ... وناداه المنادي بالرحيل
ومالك بعد أحمد من عزاء ... ومالك بعد أحمد من ذهول
فكيف عزاء ذي قلب قريح ... من الفجعات والحزن الطويل
أترجو سلوة وأخوك ثاو ... ببطن الارض تحت ثرى مهيل (٢)

فلا عزاء له عن أخيه وإن حاوله ، لأن الحال التي أصبح عليها شاقة على النفس ، اذ كيف يسلو أخاه وقد رحل رحيلا أبديا لا رجعة منه ، وأصبح نتيجة له تحت ردم من التراب والحجارة ، ولهذا كله يعيش حاله دائمة من التفجع والحزن ،ولا قدرة له هنا على السلو والعزاء .

ولكنه ، ولعلمه بأن هذا لن يفيد أبدا ، يعود مرة اخرى الى تفكره الأول ، ويطرق ناحية اخرى قد تفيد في مثل حاله مع أخيه الذي كان واحدا بين قومه مجدا وخلقا فقال : -

أرى الدنيا تطلع نجم سعد ... وينحسه بمهبطه الأفول
فكم قرن أبادت بعد قرن ... وجيل أهلكت من بعد جيل
وإما اخطأتك يد المنايا ... فمخطيها مصيبك عن قليل (٣)

---

(١) الاوراق ، ١٨٦
(٢) المصدر السابق ، ١٨٦
(٣) نفسه ، ١٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فحال الدنيا هكذا دائما لا يطلع نجم الا ويأتي يوم يهبط فيه ، ولا يبرز شخص في مجتمع الا وتخطفه يد المنايا ، وهو عندما يعيد نظره ويتأمل الماضي يتبين كم من العظماء رحلوا عن الدنيا رغم كل ما حققوه من مجد وعظمة وكم من الأجيال أبيد . لذا والحال هكذا فلا غرابة من خطف المنايا لأخيه حتى وإن كان مثالا فردا في مجتمعه . فالموت لا يخطئ أحدا وإن أخطأه يوما سيصيبه في يوم آخر .

وسواء كان تعزي الشعراء عن اخوتهم اقتناعا ام استسلاما ، فإنهم قد أفادوا من حقيقة الموت والحياة والتي كان للاسلام يد طولى في كشف الغموض الذي كان يغلفها فحققوا بذلك أوجها للتعزي الذي بدا لهم أن لا بد منه .

وقد نال الأخت نصيب من الرثاء ، فقال ابو عبدالرحمن العتبي يرثي اخته :

لقد خانني صبري بأم محمد ... فلم يبق لي إلا التأسف من جهدي
سوى أن صدري تحته مستكنة ... من الحزن ما تبقى على الرجل الجلد
وإني من اليوم الذي لم اطق به ... عن ابنة امي مدفعا لعلى وعد (١)

فالشاعر يصف في أبياته عجزه عن الصبر على فقد اخته ، فهو يعيش حالة من الحزن والتأسف لفقدها لذا فقد خانه الصبر على مصابه الكبير حتى أنه يحس أن أجله قد اقترب لا لشدة حزنه فقط ، وإنما لأنه بدا عاجزا أمام موت أخته فلم يستطع دفع الموت عنها وبالتالي فإن من تكون هذه حاله لن يستطيع دفعه عن نفسه .

---

(١) التعازي والمراثي ، ١٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التعزية بالاخـــــوان

عزى شعراء العصر العباسي بالاخوان مثلما عزوا بغيرهم مـــــن أفراد الأسرة وقد أكثروا فيه من الحث على الصبر ، ومدح المعزى . قـــال أبو تمام يعزي مالك بن طوق عن أخيه القاســـم : -

أمالك أن الحزن أحلام حالـــــم ومهما يدم فالوجد ليس بدائـــم
أمالك افراط الصبابة تـــــارك جنا وإعوجاجا في قناة المكارم
متى ترع هذا الموت عين بصيـــرة تجد عادلا منه شبيها بظالـــم

يحث الشاعر معزيه على عدم الركون لأحزانه ووجده على أخيه لأن الحزن يأتـــي سريعا ويذهب كحلم نائم ، كما أن ركون الانسان للآمـــــه ، يؤثر فيـــه فيضعفه ويثنيه عن الأعمال العظيمة ، وهذا ما لا يريده الشاعر منه لـــــذا فإنه يدعوه لتأمل أحوال الموت الذي لا يترك واحدا يخلد في الدنيا بالاضافـــة الى عدله في انتقاء الناس والذي قد يجهل الانسان وجه حكمته في هذا ، فهـــو يأخذ الاخيار والذين هم أحق بالموت من الحياة اذ الموت أصلح لهم وأولـــى بهم عند الله تعالى .

ويعرج على مناقب الاخ الراحل فيؤكـــد ما ذهب اليه في الأبيـــات السابقة فيقـــول : -

وإن تك مفجوعا بأبيض لم يكسن يشدّ على جدواه عقد التمائـــم
بفارس دعمي وهضبة وائـــل وكوكب عنّاب وجمرة هاشـــم
شجا الريح فازدادت حنينا لفقده وأحدث شجوا في بكاء التمائـــم

فهو نقي لم يرتكب اثما أو خطيئة ، وهو فارس متفوق ونجم عظيم من نجومهـــم، ومن كانت هذه صفاته ، فلا شك أن موته سيؤثر فيمن حوله ، لا في الاشخـــاص فقط بل في كل ما حوله فيحزنون لموته ويبكون لفقده .
ويحثه على الصبر والتعزي فيجعل له من الرسول الكريم مثالا يحتذيـــه : -

فمن قبله ما قد أصيب نبيّنـــا أبو القاسم النور المبين بقاسم
وقال علي في التعازي لأشعـــث وخاف عليه بعض تلك المآثـــم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبـــة فتؤجر أم تسلو سلو البهائـــم (٣)

---

(١) ديوان ابي تمام ج ٣ ، ٢٥٧
(٢) المصدر السابق ج ٣ ، ٢٥٨ (٣) نفسه ج ٣ ، ٢٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن عظمته تلك ومكانته لم تمنعه من الموت ، بل ربما جعلته أحق به أكثر من غيره كما قال في الابيات الأولى ، لذا فلن يفيده البكاء والحزن ، وما على أخيه الا الصبر والعزاء وليكن الرسول الكريم أسوة فقد فقد ابنه القاسم ولم يجزع او يضعف لذلك ، وليكن له كذلك في أقوال علي ابن أبي طالب،وحثه أشعث المذكور على الصبر لكسب الأجر،دافعا آخر للتعزية والتزام الصبر .

ويلجأ الى وسيلة اخرى في حثه على الصبر فيقول : -

خلقنا رجالاللتصبر والأسى ... وتلك الفواني للبكا والمآتم
وأيّ فتى في الناس أحرص من فتى ... غدا في خفارات الدموع السواجم
وهل من حكيم ضيّع الصبر بعدما ... رأى الحكماء الصبر ضربة لازم
ولم يحمدوا من عالم غير عامل ... خلافا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات العجز عوجا قطيعة ... وأقطع عجز عندهم عجز حازم (١)

فالشاعر يذكرمعزيه أن البكاء للنساء للرجال وذلك لانه علامة الضعف والخور كما يقول: وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يجوز لانسان مثله أن يضيع حكمته بالبكاء والجزع فخطاؤه أكبر من خطأ غيره لرجاحة عقله وحزمه المعروفين عنه ، ومن كانت هذه صفاته لا يتوقع منه الجزع . ويزيد على مدحه السابق له فيقول فيه وفي أخويه الباقين : -

فلا برحت تسطو ربيعة منكم ... بأرقم عطّاف وراء الأراقم
فأنت وصنواه النصيران اخوة ... خلفتم سعوطا للأنوف الرواغم
ثلاثة أركان وما انهد سؤدد ... إذا ثبتت فيه ثلاث دعائم (٢)

فهو يأمل أن يبقيهم الله ذخرا لقومهم يقودونهم للمكارم وللأعمال الكبيرة وللسيادة ، وهو يرى فيه وفي أخوين آخرين له أركانا ثلاثة ستظل ثابتة ترغم أنوف الأعداء . وستظل أيضا ثلاث دعائم لسؤدد ثابت لم تهده النوائب على عظمتها .

---

(١) ديوان ابي تمام ، ج ٣ ، ٢٥٩
(٢) المصدر السابق ج ٣ ، ٢٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تسير علاقة الاخوان دائما على طريق واحد ممهد بالحب والتكافل والتراحم ، فقد تصاب العلاقة الاخوية بشيء من الفتور ونحوه لسبب او لآخر، وبالتالي قد يكون هذا دافعا لعتاب الأخ أخاه عندما يبدو من خلال العتاب سبب ذلك الفتور .

ومن أسباب العتاب بينهم عدم العيادة في حالة المرض . فقد مرض محمد بن عبدالله بن طاهر فلم يعده أخوه فكتب اليه يقول : -

إني وجدت على جفاك من فعالك شاهدا
إني اعتللت فما فقدت سوى رسولك عائدا
ولو اعتللت فلم أجد سببا اليك مساعدا
لاستشعرت عيني الكرى حتى أعودك راقدا (١)

فالشاعر يتهم أخاه بالجفاء ودليل ذلك ما كان منه عندما مرض اذ لم يبادره في حين أنه كان بحاجة لزيارته أكثر من أي وقت مضى . ويؤكد له أنه لو مرض هو قبله لم يغمض له جفن حتى يزوره ويطمئن عليه . ويأتي جواب أخيه موضحا عذره ، قال .

كحلت مقلتي بشوك القنا لم اذق مذ حممت طعم الرقاد
يا أخي الباذل المودة والنا زل من مقلتي مكان السواد
منعتني عليك رقة قلبي من دخولي اليك في العواد
لو بأذني سمعت منك أنينا لتفرى مع الأنين فؤادي (٢)

فلم يكن عدم عيادته له تقصيرا ولا اهمالا كما ظن ، وإنما كان عن قصد وتعمد وقد يبرر ذلك لكونه محبا له حريصا عليه ، وقد بدا الحب والحرص في عدم قدرته على رؤيته اياه يتألم او سماع صوته يئن ، وكذلك في قلقه وسهاده إثر سماعه خبر مرضه ، ولعل في تصويره مكانة أخيه من نفسه وبجعله إياه مكان السواد من عينيه دليلا على حبه العميق له ، وهذا الحب نفسه هو الذي جعل قلبه (يتفرى) كلما شكا أخوه او تألم .

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ، ص : ٤٥١
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص : ٤٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس كل العتاب على هذا المستوى من الهدوء ، اذ قد يشتد فيصبح في بعض الاحيان نوعا من الهجاء . من ذلك العتاب الطويل بين أشجع السّلمي وأخيه ، اذ يبدو أن التنافس حول أيهما أشعر وصل درجة كبيرة مما أدى الى وقوع تصادم حاد في بعض المناسبات ، قد بدا هذا واضحا من خلال أشعارهما . قال أشجع في أخيه :

أبت غفلات قلبك أن تريحا ... لكأس ما تفارقها صبوحا
فغضّ عن المكارم طرف عين ... الى اللذات ذا شوق طموحا
كأنك لا ترى حسنا جميلا ... بعينك يا أخي الا قبيحا
دعتك الى محاسنها المعالي ... فلم تجد المعالي فيك روحا
أمجنون فليس عليك عتب ... ولست معاتبا الا صحيحا (١)

فالشاعر يتهم أخاه بالانكباب على الشراب وأنه ليس له طموح سوى السير وراء لذته ومتعه. ومن هنا عليه أن يبتعد عن طلب المكارم والمعالي ويهتم بمتعه ولذائذه فهو أجدر بها . والشاعر يوضح بعض الصفات الأخرى التي كانت لأخيه والتي جعلت منه انسانا صعبا لا يلبي دعوة المعالي عندما تدعوه اليها ومنها أنه لا يقدّر الأشياء حق قدرها وهو لا يرى شيئا حسنا او جميلا، وهذا كله يثبط من همته ويبث فيه روح التراجع بدل الطموح . ولعل هذا هو الذي أثار حفيظة أخيه فراح يسأله : أمجنون أنت حتى لا يجوز لي أن أعتب عليك ؟

ويجيبه أخوه قائلا : -

أعرك أن قولك لي قبيح ... وإني لا أقول لك القبيحا
وقد نبئت أنك عبت شعري ... فخذ بيديك هل تسطيع ريحا
ولاوالله ما أحسنت شعرا ... هجاء مذ خلقت ولا مديحا
سأعرض عنك أذ أعرضت عني ... وأسكن صدرك القلب القريحا (٢)

فهو يشير الى تلك النظرة المثالية التي يتبناها بعض الاخوة ومجملها التسامح وعدم الرد على اساءة الأخ بمثلها ، وأخو أشجع يبدو في الأبيات متسامحا معه ففي حين أن أخاه كان يقول فيه القول القبيح ، كان هو يبتعد عنه دون أن يصفه بمثل هذا القول . ولكن المثالية غالبا لا تدوم اذا أصرّ الأخ على السير في طريق الاساءة ، وهذا ما كان منه فقد رأى ان في

---

(١) الاوراق ، ١٢٨

(٢) المصدر السابق والصفحة ذاتها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقابلة الهجاء بمثله الحديث الذي قد يردع اخاه بعض الردع بالاضافة الى تنويهه بنظرة المساواة التي يرى كثير من الناس ضرورة توافرها في العلاقة الأخوية والتي رأى هو أن يتبناها ويعمل بها مع أخيه ، اذ انه سيعرض عنه طالما هو يفعل ذلك . ويبدو ان سبب التنافس بينه وبين أخيه كان الشعر فكان كل واحد منهما كان يرى ان شعره أفضل من شعر اخيه ،وعليه يجب ان يكون مقدما عند المسؤولين وغيرهم من الناس ، لذا لا يلبث احدهما ان يعيب شعر الآخر ويرفع من قيمة شعره ، والشاعر في الأبيات السابقة يشير الى ان اخاه قد عاب شعره ، ولكن يبقى شعره هو المفضل وهو المقدم ولن يستطيع هو ان يلحق بمركبه ، وشعره ردىء لا يحسن فيه مدحا ولا هجاء فما عليه، والحال هكذا ،الا التواضع وعدم الطعن بشعر الاخرين والأولى به اذن اصلاح نفسه وتجويد شعره .

وقد يشتد هذا النوع من العتاب فيقرب من الهجاء كما ذكرت من قبل وهكذا كان العتاب بين أشجع السلمي وأخيه ، ومن خلال اشعارهما تبدو القناعة بضرورة توافر التكافوء في المعاملة بين الأخوين . قال اشجع مخاطبا اخاه :-

اذا خفت عتبي من سوءة ... سبقت عتابي بالغضبة
وما كنت الا كريش السهام ... م البسه الريش والقطبة
أيطلب شاوي وما زال لي ... عتاد المقدم في الحلبة
وما زلت مذ حركتني الأمو ... ر أرفعكم رتبة رتبة
أقدم شعرك عند الملو ... ك وأكشف عن وجهك الكربة (١)

فلقد اشتد الشاعر في عتابه أكثر من قبل ،ولعل ما اثاره ، تهمه اخيه اياه بعدم اجادة قول الشعر ، لذا سرعان ما بدأ يذكر اخاه بمكانته في هذا المجال ، فهو المقدم دائما ليس هذا فحسب وانما يذكره أيضا بأن له فضلا كبيرا عليه اذ كان يساعده ويقدمه حتى يحقق مكانة جيدة سواء في هذا المجال ام في غيره . ويبدو ان تذكير الأخ اخاه بما قدمه له كان شائعا بين الاخوة خاصة في اوقات العتاب أو الغضب ، ولكن مثل هذا التذكير غير محبب ولا مفيد في استرجاع العلاقات بين الاخوان بل ربما كان سببا في زيادة الغضب والقطيعة كما كان من اخي اشجع السلمي حيث رد على ابياته السابقة قائلا :-

---

(١) الاوراق ، ١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خطبت بيفكك لي خطبـــــــــــة فدونك فاسمع بها خطبـــــــــه
زعمت بأنك لي مفخـــــــــــر وأنت فلاتنعل - لي سبـــــــــه
فليتك عني بعيد الـــــــــودا د ولم تك مني ذا نسبـــــــه
وأني اشكلت من قد ولـــــــــد ت فصار التأهل لي عزبـــــه
أتخضم في الماء خضـــــــــم البعير وأطعم من مالي الوجبـــــه
ولي منك إن جئت مستعتبـــــــا وإن عصف الظلم بي غضبـــــه
فدونك فاشرب على بغضتـــــــي كما قد شربت بها نخبـــــــه (١)

فالشاعر يؤكد منذ البيت الأول مبدأ المساواة الذي تبناه في أبياته السابقة، وقد اعتمده هنا اذ كانت هذه الابيات ردا على أبيات أخيه التي قالها فيه. وهو يرد فيها على دعواه بأنه كان له مفخرا ، فيرفض ذلك ويؤكد عكسه تماما بأنه كان سبة له . ومن هنا فلم يفده في شيء كما ادعى بل أساء له حتى تمنى أنه بعيد لا تربطه به صلة القرابة او غيرها . ولا ينسى الشاعر أن ينوه بأخلاقه الحسنة مقابل أخلاق أخيه السيئة .

وفي ختام الحديث عن العتاب بين الاخوان لا بدّ من الاشارة إلى أن العتاب بين الاخوان ومثله الهجاء، قد يكون في مرحلة معينة من حياة الاخوان وفي بعض المناسبات وقد لا يطول كثيرا اذ سرعان ما تعود العلاقة الطيبة فتربط بينهما ومن ذلك ما ذكرته الروايات من أن أخا أشجع السلمي قد توفي قبله فرثاه أشجع بمراث حارة كثيرة (٢)، فقد تقدم بعضها في الحديث عن الفجيعة بالاخوان .

وقد يتطور ذلك العتاب الذي رأيناه سابقا عند الاخوان ومن أجلهما فيتحول الى هجاء خالص ، وقد لا يكون هناك عتاب بل قد يصيب العلاقة الاخوية توتر شديد يتحول في بعض الاحيان الى القطيعة والهجران ، وقد يتخلله هجاء وشتم . ولعل من أهم أسباب ذلك كله التنافس المعنوي والمادي ورغبة كل منهما في تحقيق التفوق والمكانة لنفسه مما يؤدي الى صراع بينهما يتضح من خلال القول والعمل ، ومن ذلك الصراع الذي كان بين منصور الأصبهاني وأخيه خشنام وفيه يقول منصور : -

---

(١) الاوراق ، ١٣٩
(٢) المصدر السابق ، ١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقول غداة العيد والناس شهّد ... ومنبرنا العالي البناء رفيع
لعمري لئن أضحى رفيعا فإنه ... بمن يرتقي أعوداه لوضيع
أقول اذا ما قام ينهق فوقه ... أتبلغ هذا المرتقى وأضيع
ومن عجب الدنيا صعودك منبرا ... وحولك ألف سامع ومطيع
وما كنت أخشى مثلها اليوم نكبة ... اذل لها ، والمسلمون جميع (١)

فالشاعر لم يرق له رؤية أخيه يعلو المنبر ليخطب في الناس خطبة العيد والناس مجتمعون من حوله ، فهذه مكانة يبدو أنها عزيزة عليه وقد كان يتمناها هو لنفسه ، ولكن عندما لم يستطع تحقيقها ورأى أخاه يحققها بدلا منه أشار هذا حفيظته بل سخطه عليه ودفعه الى حسده ومن ثمّ الى نعته بصفات غير لائقة؛ فصوته كصوت الحمار ، وقد جلب بوضاعته الوضاعة الى المنبر الذي اعتلاه مع أن الناس اعتادوا أن يروا المنبر رفيعا، وهو بهذا كله قد عبّر عما يخفي في داخله من رغبة وطموح للوصول الى هذا المرتقى الذي بلغه أخوه بدلا منه ، مما جعله يحس بالضياع من جهة والسخط على أخيه الذي لا يراه لائقا لهذا المنصب من جهة أخرى وهو يرى أن ارتقاءه هذا المنبر نكبة ستلحق الذل به وبالمسلمين جميعا .

ومن الهجاء ما يكون لأخلاق الأخ المهجو ، اذ قد يهجو الأخ أخاه لبخله قال منصور الاصبهاني في أخيه : -

قلت لخشنام على بخله ... يا بأبي يا ذا القرون الطوال
لو تملك الارض بأقطارها ... لكنت كشخانا على كل حمال
فهمة الانذال في بخله ... وهم من في البيت جمش الرجال (٢)

مثلما كانت صفة الكرم هدفا للمديح عند الاخوان كانت بالمقابل صفة البخل هدفا للهجاء فالشاعر يذكر أخاه ببخله وينعته بنعوت كثيرة قد لا تليق بانسان ويذهب الى أكثر من ذلك فينعت أهل بيته بسوء الخلق . ويؤكد أن بخل أخيه لازم في حالي الفقر والغنى لذا فلا عذر له إن لم يجد ما يقدمه في حالة الفقر.

---

(١) طبقات الشعراء ٣٤٩ - ٣٥٠
(٢) المصدر السابق ٣٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن العلاقة المتوترة تطورت بين الأخوين فوصلت الى مستوى عال من الصراع الذي لا يعرف حدا لامتداده ولا وقفا ، حتى اذا أصيب الأخ بمصيبة في ماله سارع أخوه الى الشماتة العلنية به ، وهذا مستوى كبير من الجفاء والقطيعة قال : -

دلّس لي خشنام برذونه ... وكان دهرا طالما دلّسا
كان يناوي دهره موسرا ... فكيف بالياس اذا أفلسا
لما فشا في الناس افلاسه ... ولم يجز بموبهة غطسا
فلا تغرنك قعاقيعه ... ما عنده شيء وإن دخمسا
لم يبق الا شبح ماشل ... يا ويحه في الفقر ما أفرسا
قرطس في الافلاس من غلوة ... ولو رمى من فرخ قرطسا (١)

فالشاعر يتهم أخاه بالتدليس ومحاولة اخفاء فقره وإفلاسه ، ويقول أن هذه من صفاته الدائمة ، ثم يوضح أثر افلاسه والحال التي أصبح عليها من يأس أدى الى محاولة خداع الناس وتزوير الحقائق ، وكذلك ضيقه وتبرمه الذي كان يدفعه للصراخ أحيانا وقد أثرت هذه الأمور مجتمعة عليه فأصبح ضعيفا كالشبح يعاني الهمّ والضياع ، وموقف الشاعر الأخ من هذا كله الشماتة والسخرية وكأنه كان يأمل وينتظر ليراه على هذه الحال ، ولم يكن يفعل ذلك الا لضعف الرابطة الاخوية بينهما الى حد كبير جعله لا يعرف معه سوى الشماتة والسخرية مما أصابه في دنياه من فقر أو غيره .

ومن الذين اشتهروا بهجاء الاخوان الشاعر عبد الصمد بن المعذل فقد كثر هجاؤه لأخيه أحمد. وفي سبب هذا الهجاء يقول صاحب الاغاني " وكان أخوه أحمد أيضا شاعرا الا أنه كان عفيفا ، ذا مروءة ودين وتقدم في المعتزلة وله جاه واسع في بلده وعند سلطانه ، لا يقاربه عبدالصمد فيه ، فكان يحسده ويهجوه فيحلم عنه " (٢) وقد أشار عبدالصمد الى هذا في هجائه اياه اذ قال :-

أطاع الفريضة والسنة ... فنناه على الأنس والجنة
كأن لنا النار من دونه ... وإفراده الله بالجنة
وينظر نحوي اذا زرته ... بعين حماة الى كنة (٣)

(١) طبقات الشعراء ، ٣٤٧ ، غطسا : تكبر ، دخمسا : خدع ، قرطسا : أصاب الغرض .
(٢) الأغاني ج ١٣ ، ٢٢٦
(٣) ديوان عبدالصمد بن المعذل ، ١٨٣ - ١٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يشير الى أن أخاه يقوم بأداء فرائضه تامة ويتبعها بإقامة السنة وهو بذلك يشعر بالتيه على الناس جميعا وكأنهم جميعا سيدخلون النار وستكون الجنة له وحده من دونهم ، كما يقول ، ومثل هذا الشعر عنده جعله يحس بعدم الرضى عن أخيه ولم يجد خيرا من نظرة الحماة الى الكنة التي تتصف غالبا بعدم الرضا مثالا صالحا على تجسيد نظرة أخيه اليه .

ويبدو أنه كان دائم التعرض له والهجوم عليه فقد قال يهجوه في قصيدة أخرى يصفه : -

لي أخ لا يرى له ... سائل غير عائب
أجمع الناس كلهم ... للئيم المذاهب
دون معروف كفه ... لمس بعض الكواكب
وتراخي مصيبتي ... فيه أحد المصائب
ليت لي منك يا أخي ... جارة من محارب
نارها كل شتوة ... مثل نار الحباحب (١)

فهو يوضح أن أخاه هذا لا يحبه أحد للؤمه وقلة ندى كفيه ، لذا فإنه يعد أخوته مصيبة لحقته ويتمنى الخلاص منها .
ولعل المكانة التي كانت لأخيه ، واختلاف أخلاقهما ، هي التي جعلته حاسدا له يتعرض له ويهجوه ، فقد بدا هذا السبب واضحا في هجاء الأخوان كما هو في النماذج السابقة .

وبالاضافة الى ذلك فقد كان للمادة دور في هجاء الاخوات هجاء فاحشا من ذلك ما هجا به أبو نخيلة أخته ، فقد روى صاحب الأغاني عن بعضهم قال : " تزوجت أخت أبي نخيلة رجلا يدعى سيارا وكان أبو نخيلة يقوم بمالها مع ماله ويرعى سوامها مع سوامه ويستبد عليها بأكثر منافعها ، فخاصمته يوما من وراء خدرها فقال في ذلك يهجوها بأبيات فيها فحش وبذاءة (٢)

ومن المؤثرات الاخرى المهمة في اضعاف روابط الاخوة ، السياسة وقد كنت عرضت لأثر السياسة على الروابط الاسرية المختلفة في الفصول السابقة الا أنني لم افصل الحديث عنها واكتفيت بمرور سريع بها مع بعض الامثلة

---

(١) ديوان عبد الصمد ، ٦٩ ، ٧٠
(٢) الاغاني ج ٢ ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وآثرت تفصيل الحديث هنا ، لان علاقة الأخوة هي اكثر العلاقات الأسرية تأثرا بالسياسة. والمقصود بالسياسة هنا النزاع على الحكم أو الاستئثار بالسلطة والسيادة دون صاحبها ، لذا فان الحديث عن أثرها السياسة على الأسرة سيكون حديثا عن الخلفاء وأسرهم بشكل خاص وبعد ذلك الانحدار الى العامة وملاحظة أثر اختلافهم في الوجهات السياسية على روابطهم الأسرية .

ومن استعراض لأحوال التاريخ يلاحظ أن التنافس على السلطة والزعامة أمر بارز عند بني البشر مهما كان حجم هذه السلطة وأهميتها إذ أن الانسان بطبعه يحب الجاه والمال ، ويحب التكلم من عل ، وإذا وجد فرصة في تحقيق ذلك فلن يتوانى ، وان حقق بغيته يشعر بالفخر والاعتزاز بالاضافة الى القوة والمجد. وكلها امور يسعى الانسان دائما لتحقيقها . وقد يبذل في سبيلها الكثير ومتى ما حققها يصعب عليه التخلي عنها ، واذا أحسّ ان هناك من ينافسه عليها يتمنى الخلاص منه وإذا جوبه بتلك المنافسة فانه يستخدم القوة ، وأما اذا احسّ بزعزعة مكانه وخاف على نفسه من تلك المنافسة فانه قد يستخدم القوة دفاعا عن مكانته ومنزلته . وقد يلجأ الى اعنف السبل للخلاص من منافسيه مهما تكن الروابط التي تربطه بهم، بما في ذلك رابطة الرحم ومثال هذا ما ورد على لسان الخليفة الأمين - ان صحت الرواية -[1] ذكره المسعودي برواية احمد بن سلام أنه "قال له في معرض حديثه في البيت المظلم الذي سجنا فيه بعد القاء القبض على الخليفة الأمين ما أشك انهم سيحملونني الى أخي أترى اخي قاتلي ؟ فرد عليه احمد بقوله كلا ان الرحم ستعطفه عليك ، فقال " هيهات ان الملك عظيم لا رحم له " والحقيقة أن الاحداث التاريخية في كثير منها تؤكد هذا القول ، وقد رأينا أثرها في كل من علاقة الأمومة والأبوة فلا غرابة اذن أن تؤثر على علاقة الاخوة . ان غريزة التنافس الموجودة بين الاخوة تحقق شيئا من حب الذات والعمل على تحقيق التفوق حتى لو كان احيانا على حساب العلاقة الاخوية ، وأحداث التاريخ العباسي توضح مثل هذا ، ولعل أوضح مثل لما يمكن أن يكون للسياسة من

---

(١) لقد اورد غير المسعودي الخبر دون ذكر قول الخليفة الامين ، انظر تاريخ الامم والملوك ج ٧ ، ٨٣. والقول في مروج الذهب (ذكره المسعودي برواية أحمد بن سلام).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دور في تصدع العلاقة الأخوية وانهيارها ، قصة الصراع بين الامين والمأمون، فقد ادى التنافس بينهما على الخلافة الى قتل الخليفة الامين بعد حرب طويلة ، وامتد ذلك الى غيرهما فقد جاء انه " قاتل الأخ أخاه والابن أباه ، هؤلاء مأمونية " وهؤلاء محمديه (١).

وقد شاع مثل هذا الخلاف على السلطة في النصف الثاني من القرن الثالث وزاد القتل بين الاصول وكان من أسباب انهيار الخلافة العباسية فيما بعد .

كما شاع حبس الاخوة وتعذيبهم ، فقد ذكر المرزوقي حادثة قتل المؤيد ولي عهد المعتز فقال : " ونمى الى المعتز أن المؤيد يدبر عليه وأنه قد استمال جماعة من الموالي فحبس المؤيد وأبا احمد - وهما لأب وأم - وطولب المؤيد أن يخلع نفسه من ولاية العهد فضرب اربعين عصا حتى أجاب وأشهد على نفسه بذلك ، ثم اتصل بالمعتز أن جماعة من الاتراك اجتمع رأيهم على اخراج المؤيد من حبسه فلما كان الخميس لثمان من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد ميتا وأحضر القضاة والفقهاء حتى رأوه ولا أثر فيه فقال انه أدرج في لحاف سمور(٢) وشد طرفاه حتى مات فيه (٣).

---

(١) راجع في ذلك مروج الذهب ج ٤ ، ٢٧٦

(٢) ورد في هامش الصفحة بأنها قد تكون مسموم وأرجح ان تكون هي الصحيحة .

(٣) مروج الذهب ج٥ ، ٨٦ ، وتاريخ الامم والملوك ج ٧ ، ٥٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخوة العامـــــة

لقد ترخص الناس في اطلاق الأخوة انطلاقا من المبدأ الذي يجعـــل الناس اخوة في الله قال تعالى : " إنما المؤمنون أخوة فاصلحوا بيـــن أخويكم " (١) . وقد أطلق الشعراء هذه الاخوة العامة في الشعر لتعني الصداقة او ما شابهها وقد أوجدوها في رثاء أصدقائهم وعتابهم ونصحهم وسلكـــوا في ذلك كله سلوكهم في الاخوة الحقة .

قال أبو العتاهية يرثي صديقه علي بن ثابت الأنصاري : -

ألا من لي بأنسك يا أخيـــا ... ومن لي أن أبثك ما لديّـــا
طوتك خطوب دهرك بعد نشـــر ... كذاك خطوبه نشرا وطيـــا
فلو نشرت قواك لي المنايـــا ... شكوت اليك ما صنعت اليـــا
بكيتك يا عليّ بدمع عينـــي ... فما أغنى البكاء عليك شيـــا
كفى حزنا بدفنك ثم أنـــي ... نفضت تراب قبرك من يديـــا (٢)

فالشاعر في رثائه لصديقه علي هذا يوضح مكانته منه ، ومدى خسارته بوفاتـــه ولكن هذا هو حال الدهر فلا يبقي أحدا ليتمتع بعلاقاته ولا غير ذلك من أحـــد . والشاعر يبدو حزينا لوفاة صديقه كثيرا فقد بكاه وإن لم يفد البكاء شيئـــا ولكن أكثر ما كان يثير أحزانه ويلهبها أنه بيديه دفنه ونفض يديه من تيـــراب قبره ، مع أنه كان يفن عليه بكل ما يمكن أن يسيء له في حياته . ولكـــن هذا هو حال الموت تتحول فيه الأشياء ، وتتغير فيه الغايات .

ومن العتاب قول ابن الرومي يعاتب أبا القاسم التوزي في قصيـــدة طويلة منها : -

يا أخي أين ربع ذاك اللقـــاء ... أين ما كان بيننا من صفـــاء
أين مصداق شاهد كان يحكســـي ... أنك المخلص الصحيح الاخـــاء
شاهد ما رأيت فعلـــك الا ... غير ما شاهد له بالذكـــاء
كشفت منك حاجتي هنـــوات ... غطيت برهة بحسن اللقـــاء
تركتني ولم أكن سيء الظـــن ... أسيء الظنون بالأصدقـــاء (٣)

---

(١) سورة الحجرات آية ٤٩
(٢) أبو العتاهية أشعاره واخباره ٦٧٥- ٦٧٩ .
(٣) ديوان ابن الرومي ، ج١ / ٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر في عتابه لصديقه هذا يذكره بتلك الأيام التي عاشاها في ظل الاخاء والمحبة ، اذ كان كل ما فيهما ينبىء بمقدار الحب والاخلاص الذي يكنه كل منهما للآخر ، ولكن عندما احتاجه في شيء ما بدت منه امور لم يتوقعها جعلته يتعرف الى وهن الرابطة وقد جعله هذا يسيء الظن به وبالاصدقاء جميعا ، اذ انهم يحسنون الصداقة عند الحاجة ، واذا احتيج احدهم فان هذه الرابطة تهتز وقد تنمحي .

ذم الاخوان :

ذم الاخوان غرض آخر من الأغراض التي طرقها الشعراء في الأخوّة غير الحقيقية ، وقد ذكر بعض الشعراء الأسباب التي دفعته لذلك ، ولعل من أكثرهم ايضاحا لها البحتري في أبياته التالية : -

كم من أخ لك لست تنكره ... ما دمت من دنياك في يسر
متصنع لك في مودته ... يلقاك بالترحيب والبشر
يطري الوفاء وذا الوفاء ... ويلحى الغدر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عدا - والدهر ذو غير - ... دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض بإجمال أخوّة من ... يقلى المقلّ ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحدة ... في اليسر - امّا كنت - والعسر
لا تخلطنهم بغيرهم ، ... من يخلط العقبان بالصقر (١)

فالشاعر في أبياته الأولى يقدم وصفا لنموذج من الأصدقاء الذين يقدرون رابطة الأخوة في حالة يسر أصدقائهم واخوانهم فقط . وقد يتصنع هذا الصديق المودة ويفتعل المحبة ويؤكد على صفة الوفاء وحسن المعاملة ، كل ذلك عندما يكون صديقه في حالة يسر قد يفيد منها او على الأقل لن يحتاجه في شيء ، لكن اختلاف الأمور نتيجة لتغير الدهر يجعله يتغير معه ولا يعود يعرف معنى الحب والوفاء . ومثل هذا النوع نموذج سيء للاخوان لذا ينصح الشاعر بأن يبتعد عنه وعن معاشرته فقد لا يعرف سوى وصل الأغنياء وترك المقلين . كما ينصح الشاعر مقابل ذلك بالبحث عن نموذج آخر للأخوان يكون صاحب مبدأ واحد لا يتغير ولا يتصنع المودة ، بل هو محب حقيقي معوان على كل عوادي الزمن مثلما هو مشارك في فوائده ، وليس

---

(١) ديوان البحتري ، ج ٢ ، ص : ١١٠٢ . والعقبان : الذهب ، والصفر : النحاس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا فحسب بل يجب اصطفاء مثل هؤلاء الاخوان وعدم اشراك النموذج الأول معهم في العلاقة الأخوية حتى لا يكون الجمع بينهم كخلط الذهب بالنحاس وشتان بين المعدنين .

ومن خلال ما عرضت له من نصوص فإن الشعراء وإن خصوا بعض الاخوان بشعرهم كرثاء بعضهم او عتاب بعضهم الآخر ، فانهم غالبا ما كانوا يقومون بوصف العلاقة وصفا خارجيا موضحين فلسفتهم في طبيعة هذه العلاقة ، وما يجب أن تكون عليه ، مقدمين بعض النصح والارشاد في هذا المجال كما رأينا عند البحتري في مقطوعته السابقة . ومن الذين أوضحوا طريقتهم في معاملة الصديق محمد بن آبان فقال :

اذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ ... وكنت أجازيه فأين التفاضل
اذا ما دهاني مفصل فقطعته ... بقيت ومالي للنهوض مفاصل
ولكن أداويه فإن صح سرني ... وإن هو أعيا كان فيه تحامل (١)

فالشاعر يرى ضرورة الصبر على الاخوان وغض النظر عن عيوبهم ، لأنها كثيرة ولو أراد المعاتبة عليها كلها لما بقي حوله من أحد لذا فإنه يستخدم علاجا بدا له ناجعا ومفيدا فهو يحاول معالجة كلّ ما يبدو من أصدقائه حتى يصلحوا فإن فعلوا فقد حقق السرور والرضى لنفسه والاصلاح لهم وإن أعيوا يكون قدم ما عليه تجاههم ولكنهم كانوا مثل مريض لا يرتجى شفاؤه أبدا مهما قدم له من علاج .

ومن الذين قالوا في مثل هذا المعنى محمود الوراق : -

لا بر أعظم من مساعدة ... فاشكر أخاك على مساعدته
واذا هفا فأقله هفوته ... حتى يعود أخا كعادته
فالصفح عن زلل الصديق وإن ... أعياك خير من معاندته (٢)

فالشاعر يرى في مساعدة أخيه له امر عظيم وبر كبير يستحق الشكر عليه لذا فإن أخطأ في أمر ما فيجب ايجاد العذر له والعفو عنه حتى يعود الى ما كان عليه من حسن الاخاء ، لأن الصفح والعفو عنه وإن كان صعبا

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ،ص :٣١٠
(٢) المصدر السابق ج ٢ ، ص : ٣١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحيانـــا - أفضل من معاندته والاصرار على عقابه والسخط عليه .

وقد رسم بعض الشعراء نموذجا مثاليا للصديق الحقيقي الذي يجـــب أن يكون عليه ، فقال البحتري : -

أخي عند جد الحادثات ، وإنمـــا أخوك الذي يأتي الرضا حين تغضب
يؤمل في لين اللبوس ،ويرتجـــى لطول ، ويخشى في السلاح ويرهـــب (١)

فالأخ الذي يراه الشاعر مثالا حقا هو ذاك الذي يركن اليه في كل زمان مهمـا كان عصيبا فيؤمل للمصاعب والشدائد ، وكذلك هو الذي يحتمل العثرات والأخطـار من أخيه فيسامحه ويتقبل العذر منه .

وقد قال الشافعي في هذا المعنى فبين صفات الأخ المحبب لديه فقال :-

أحبّ من الاخوان كل موات ـــي وكل غضيض الطرف عن عثراتـــي
يوافقني في كل أمر أريـــده ويحفظني حيّا وبعد مماتـــي (٢)

فالشاعر يحب من أصدقائه من يوافقه فيما يحب ويريد ، ومن يغضّ عن عيوبـــه ويسامحه على أخطائه ويحفظه في غيبته مثلما يفعل في حضرته ، فمثل هـــذا الأخ يعتمد عليه ويركن إلى صداقته .

وقد رفع كثير من الشعراء من قيمة هذه الأخوة ، وقدمها بعضهـــم على الاخوة الحقة فقال أحدهـــم : -

أميل مع الصديق على ابن عمـــي وأقضي للصديق على الشقيـــق
وأفرق بين معروفي ومنـــي وأجمع بين مالي والحقـــوق
فإن ألفيتني حرا مطاعـــا فإنك واجدي عبد الصديـــق (٣)

فالشاعر يميل مع صديقه على أخيه الحقيقي ، لما يرى لهذا النوع من الأخـــوة من قيمة وأهمية يجعله يقدر الصداقة حق قدرها ويتعاطف مع صديقه حتـــى لو كان تعاطفه هذا ضد أخيه الحقيقي ، وصفة تقدير الصديق وحبه له هـــي واحدة من صفاته الكثيرة الجيدة التي يذكرها هو .

---

(١) ديوان البحتري ، ١٣٧
(٢) ديوان الشافعي ، ٢٩ ، وقد نسبت الابيات لابي العتاهية في زهدياته ص : ٥٥
(٣) نسبت الأبيات في معجم الأدباء لابراهيم الصولي مج ١ ص ١٧٤ ، وفي العقـــد الفريد لعبدالله بن طاهر الخرساني ج ٢ ، ص : ٣١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والملاحظ على شعر الاخوة العامة من خلال النصوص السابقة، على كثرته وتنوع مواضيعه، اهتمام الشعراء بعرض فلسفتهم ورأيهم في العلاقة لذا فإنهم يقومون بشرحها وما يكتنفها من لواحق بالاضافة الى عرض لصفات النموذج الحسن من الاخوان والنموذج السيء لهم مع ايضاح لطبيعة تصرف النموذجين. وهم يركزون على قضية تكاد تكون واحدة ألا وهي الصدق والوفاء ، الصدق في المحبة والعمل بمفهومه ، والوفاء للصديق في كل حال .

ومما يذكر في هذا المجال أنّ الأخوّة العامة لم ترتفع في المستوى العاطفي وفي قوة التلاحم الى مستوى الأخوة الحقيقية ، بل بقي بينهما بون شاسع سواء كان ذلك في طبيعة العلاقة نفسها أو في الوصف الذي قدمه الشعراء لكل من العلاقتين. ففي حين نجد حديث الشعراء حول الأخوة العامة وصفا خارجيا لطبيعة العلاقة ورسما لمثاليتها نجد أن الشاعر في الاخوة الحقيقية جزء لا ينفصل عنها بل هو متمم لها سواء كان أخا محبا أم لا، فهو آخ على كل حال وعلاقته بأخيه لازمة لا تنفصل عنه سواء أكان ذلك في حياته أم بعد مماته لذا فالحديث أكثر عمقا وأكثر تداخلا وأكثر دافعية. أما الحديث عن العلاقة العامة فهو في غالبه حديث عام عن طبيعة العلاقة أو عن مجموعة الاخوان ، وهذا أمر غالب رغم وجود بعض من لمحات الصدق العاطفي وشيء من العمق التلاحمي في بعضها خاصة في أشعار الرثاء ولعل طبيعة الموقف هي التي تسمو بعواطف الصديق تجاه صديقه فتدفعه إلى شيء من الصدق والعمق في حديثه عن علاقته به ومودته له .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

الخصائص الفنية

انقسم شعر الأسرة في العصر العباسي الى قسمين ، القسم الأول المقطعات الشعرية وهي التي قيلت في مناسبة ما او نتيجة لحادثة عارضة فجاء بعضها على شكل خاطرة ، وهذا النوع من الشعر لا تتجاوز أبياته في المناسبة الواحدة عدة أبيات هذا بالاضافة الى الابيات المفردة . وقد تناثر هذا الشعر في بطون الكتب ، خصوصا كتب الاخبار ، فقيل معظمه في في مناسبات وأحداث مختلفة افترضت مثل هذا النوع من الشعر الذي كان الشاعر يعبر فيه عما يختلج في نفسه ازاء الحدث مباشرة ودونما تخطيط مسبق أو تحكيك ويمتاز هذا النوع بالسهولة ، فالشاعر كثيرا ما كان يقول الأبيات المنشدة في موقف ما يصفه او يعبر عن شعوره ازاءه ، كالموت المفاجئ الذي قد يستدعي مثل هذا النوع من الشعر ، وهناك مناسبات اخرى كثيرة توجب مثل هذا الشعر ، قال أبو دلامة في ابنته التي بالت عليه عندما حملها على عاتقه : -

بللت علي - لا حييت - ثوبي ... فبال عليك شيطان رجيم
فما ولدتك مريم امّ عيسى ... ولا ربّاك لقمان الحكيم (١)

ومنه كذلك قول علي بن الجهم يشكو لأمه فظاظة والده الجهم ويقال أنه أول شعر قاله : -

يا أمتا أفديك من أم ... أشكو اليك فظاظة الجهم
قد سرّح الصبيان كلهم ... وبقيت محصورا بلا جرم (٢)

ويمتاز هذا الشعر في أغلبه بالعفوية وبساطة اللغة التي قد تصل في بعضها الى مستوى الكلام الشعبي العادي ، وقلما نجد فيه وعورة في الالفاظ أو التراكيب ولعل السبب وراء كثرة وجود هذه المقطعات هو طبيعة الحدث نفسه وعدم تخطيط الشاعر للقول فيه من قبل ، هذا بالاضافة الى طبيعة العصر العباسي الذي مال فيه الشعراء الى الاكثار من المقطعات الشعرية لكونها تتناسب وطبيعة العصر الحضارية .

---

(١) الاغاني ج ١٠ ، ٢٤٠
(٢) ديوان علي بن الجهم ، ١٨٠، والأغاني ج ١٠ ، ٢١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقسم الثاني : هو القصائد المكتملة وهي التي عبر فيها الشاعر عن تجربة ناضجة فامتازت بارتقاء مستوى اللغة من ألفاظ وتراكيب ، وأتت كذلك مكتملة البناء فعبر الشاعر من خلالها عن جوانب عديدة للموضوع الذي كان يطرقه ، أما في طولها فتختلف من شاعر لآخر ومن قصيدة لأخرى عند الشاعر الواحد.

وقد انقسم هذا النوع من الشعر إلى قسمين ، القسم الأول : - قصائد ذاتية ، والقسم الثاني قصائد مناسبات.

وقد تشابه القسمان في المستوى الاسلوبي واللغوي وفي كثير من جوانب البناء ، واختلفا في التركيز العاطفي والانفعالي ، ففي قصيدة المناسبة يتوجه الشاعر لشخص ما لمكانته السياسية او للعلاقة الطيبة التي تربطه به كالصداقة او غيرها فيهنئه او يعزيه . وفيها ينصب اهتمامه على الذي توجه اليه في القصيدة فتنتظم فيه ابيات كثيرة اما صاحب الحدث سواء كان مولودا يهنأ أبوه او ميتا يعزى ذووه ، فإن أبياتا قليلة تذكره . اما قصيدة الذات فعلى العكس من ذلك تماما فصاحب الحدث فيها هو المقدم .

وقد يتضح مثل هذا القول في كثير من الشعر ، ومن ذلك شعر ابن الرومي في قصيدتين له الاولى يتحدث فيها عن فقده لفلذة كبده والثانية يعزي فيها شخصا آخر عن ابنه ، فقال من الأولى :-

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ... ولو أنه اقسى من الحجر الصّلد
بودي اني كنت قدّمت قبله ... وأن المنايا دونه صمدت صمدي
ولكن ربي شاء غير مشيئتي ... وللرب امضاء المشيئة لا العبد
وما سرني أني بعته بثوابه ... ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معدي (١)

وقال من القصيدة ذاتها :

لعمري لقد حالت بي الحال بعده ... فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي
ثكلت سروري كله اذ ثكلته ... واصبحت في لذات عيشي اخا زهد
وأنت وان افردت في دار وحشة ... فإني بدار الانس في وحشة الفرد
أودّ اذا ما الموت أوفد معشرا ... الى عسكر الأموات أني من الوفد (٢)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٦٢٥
(٢) المصدر السابق ، ٦٢٦ - ٦٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال من قصيدته الثانية :

لقد دافع المفقود عنك بنفسه ... عراما ، فلا يحزنك أنك فاقد
ومن قبلت منه الليالي فداءه ... فحق أن يلقينه وهو حامد
على أنّ من قدّمت عال مكانه ... بحيث الثريا أو بحيث الفراقد
وما مات منه أسوة الناس ميت ... بل انغضّ منه المشتري او عطارد (١)

وقال من القصيدة ذاتها

وما ابنك الا مستعار رددته ... وكلّ عواديّ الزمان رد ائد
وما ابنك الا وافد نحو ربه ... ومن أوفدته عزمه الله وافد
فامّا اشتراه الله منك،فما اشترى ... ضنين بارغاب ، ولا باع زاهد
فصبرا،فإن الصبر خير مغبة ... وهل من محيد عنه إن حاد حائد ؟
وقد فزت ان اصبحت عبدا مسلما ... لما أوجبته في الرقاب القلائد
لك الأجر تعويضا من الله وحده ... ومن خلقه حسن الثنا والمحامد (٢)

فالشاعر يختلف اختلافا كبيرا في معالجته للحدث الواحد ، وهو موت الابن ، ففي حين يرى موت ابنه في القصيدة الاولى كارثة كبيرة حلت به فحولت حياته الى شقاء وعذاب جعلته يتمنى الموت اما خلاصا من الحياة ذاتها وإما فداء لابنه الحبيب ، نراه في القصيدة الثانية يخفف من وقع المصاب على معزيه ويحاول اقناعه بأن لموت ابنه فائدة له فقد كان موته فداءله وهو يمّر على ان هذا مما يجب ان يخفف حزنه وجزعه عليه. وليس هذا فحسب بل يحثه على أن يتقبل الأمر بحمد وشكر ، وإن كان يحب ابنه وله مكانة عالية في نفسه ونفوس من حوله .

وأما من حيث الصبر والتعزي ، فإننا نرى الشاعر في قصيدته الاولى يرفض كل عزاء ويعلن عن عجزه عن الصبر بل ويخرج عن صوابه فيرفض الأجر الذي أعده الله سبحانه وتعالى للمصابين بأبنائهم إن صبروا ، لاحساسه بأن فقده ابنه ، لا يعادله جزاء ولا ثواب ، وأما في قصيدته الثانية فنراه يتمتع بقدر كبير من الهدوء والتعقل بل يتحول الى حكيم عميق الايمان فيؤكد

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٧٩٩
(٢) المصدر السابق ج ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لمعزيه ان ابنه كغيره من الأشياء معار ولا بد لمن أعاره ان يستعيده، وأن الناس جميعا على هذا الحال بالاضافة الى أن رحيل ابنه الى الدار الآخرة فيه خير وفضل لا يوجدان في الحياة الدنيا لذا يحثه على الصبر ويذكره بما أعد الله تعالى له من أجر في الآخرة وبما سيلاقيه من حمد الناس وثنائهم في الدنيا إن هو تحلى بالصبر وقدر عليه . ومما لا شك فيه أن موضع الشاعر من الحدثين هو الذي فرض عليه هذا الاختلاف في المشاعر . ففي القصيدةالاولى يتحدث عن آلامه ازاء فقد ابنه وفي الثانية يحاول أن يساعد المنكوب على تجاوز المحنة وشتان ما بين الموقفين . ففي قصيدة العزاء يقف موقف الذي يراقب الامور من الخارج فيصفها ويتحدث عنها بينما يعالج في القصيدة الذاتية آهات نفسه وخسارة عمره. هذا بالاضافة الى أن الشاعر كثيرا ما يتجاهل صاحب الحدث الأصلي في قصيدة العزاء ويفرد القصيدة لمن يعزي ، ولا يكون هذا في القصيدة الذاتية ففيها ينصب كل اهتمامه على صاحب الحدث نفسه او الميت بمعنى آخر قال ديك الجن يرثي زوجته : -

أساكن حفرة وقرار لحد ... مفارق خلة من بعد عهد
أجبني ان قدرت على جوابي ... بحق الود كيف ظللت بعدي
وأين حللت بعد حلول قلبي ... وأحشائي واضلاعي وكبدي
أما والله لو عاينت وجدي ... إذا استعبرت في الظلمات وحدي
وجدّ تنفسي وعلا زفيري ... وفاضت عبرتي في صحن خدي
إذا لعلمت أنني عن قريب ... ستحفر حفرتي ويشق لحدي (١)

وأنشد قصيدة يعزي فيها جعفر بن علي الهاشمي عن زوجته فأغفل ذكرها الا في أبيات قليلة وأنفذ الباقي في مدح المعزّى وتصويره بصورة الرجل القوي الذي يستطيع تجاوز المصاب وقد استخدم في كل هذا وسائل كثيرة منها ما هو مقلل لشأن الزوجة . والأبيات التي ذكرها فيها هي :

جاد على قبرك من ميّت ... بالرّوح رب لك لا يبخل
وحنّت المزن على قبرها ... بعارض نجوته محفل
غيث ترى الأرض على وبله ... تضحك ، الا أنّه يهمل
يصلّ والأرض تصلّى له ... من صلوات معه تسأل (٢)

---

(١) ديوان ديك الجن ، ٩٤ - ٩٥ ، والاغاني ج ١٤ ، ٥٨
(٢) المصدر السابق ، ٦٩ - ٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقـــال فيهـا ايضا : -

اذا عفا عنك واودى بهـــــا ذا الدهر فهو المحسن المجمـــل (١)

فأبيات الشاعر في زوجته تفيض حبا لها وحزنا لفقدها ، وهذه الحال أورثتـــه الضعف مما جعله يحس بدنو أجله ، وهي تفيض عاطفة وتعبر عمّا يعاني الشاعـــر من ألم ودموع . أما في قصيدة التعزية فلم تنل المرأة الزوجة سوى الدعـــاء لها بالسقيا والرحمة واختتمها ببيان حسنات رحيلها اذ فيه فداء لزوجهـــا ، وهو يمدح الدهر الذي افتدى المعزى بزوجته .

ويقاس على هذا ان أغلب شعر المناسبات يبتعد عن المعاناة الحقيقية ، ويدور حول العواطف الخارجية فيصورها بتكلف فتأتي باهته لا حياة فيها .ولعل هذا يتطابق وطبيعة البشر في المواقف الانسانية المختلفة فالمصاب ليـــس كالمعزي وصاحب الأمر ليس كالمتفرج .

أما بناء القصيدة الأسرية ، فيجدر بنا بعد استعراض العلاقات الأسرية المختلفة في الشعر العباسي أن ندرس بناء هذه العلاقات في القصائد المتكاملة للتعرف الى بنائها وأثر العلاقات الأسرية فيهـــا .

لذا سأدرس ثلاث قصائد اثنتان من شعر الرثاء - وهو الغرض الغالـــب على شعر الأسرة كما لاحظنا في الفصول السابقة وواحدة من شعر المناسبات.

أما قصيدة الرثاء الاولى التي اخترتها لهذه الدراسة فقصيـــدة تمتاز بصعوبة الفصل بين أقسامها اذ كلها تتحدث عن مشاعر الأبوة ، وجـــزع الأب الذي فقد ابنه الحبيب والحق أن قصيدة الأسرة في العصر العباســـي تمتاز بوحدة الموضوع مما يصعب الفصل بين أجزائها وإنما أفعل ذلك لتسهيـــل دراستها فقط ، وهذه القصيدة هي من أعقدها في هذا المجال ، اذ نرى الشاعـــر يتحدث عن أمر ثم يتركه وسرعان ما يعود اليه في منتصف القصيدة او آخرهـــا ، ومن هنا أجد صعوبة في تقسيمها الى أقسام منفصلة أو متراكبة ، لذا سأعـــرض لأقسامهـــا الرئيسية ، مراعية تداخل هذه الأقســـام على أساس أنها تشكـــل أقسام القصيدة المهمة ، وهي :

---

(١) ديوان ديك الجن ، ٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١. الدمـــــع
٢. تعداد مناقب الابن الراحل
٣. انعكاس الموت على الأب

ابتدأ الشاعر قصيدته بوصف دمعه المستفيض على ابنه ، فقال : -

نأى آخر الايام عنك حبيـــب فللعين سحّ دائم وغـــــروب

فالشاعر يصف أثر رحيل ابنه على عينيه مما جعلهما تبكيانه بغزارة. والبكـــاء وحث العيون على سكب الدموع هو من مبتدءات كثير من القصائد التي رثـــــى فيها الآباء أبناءهم ، فمن خلال هذه المقدمة يصور الشاعر نفسه الحزينة الباكية كما يصور رغبته الاكيدة في استمرار البكاء وديمومته على ابنه وتعد هذه الرغبة مؤشرا على استمرار ذكراه لابنه وحبه اياه . ومن هنا وصف هذه الدموع بانهـــا غزيرة ودائمة كما سيأتي لتفي حق ابنه عليه من الحب والوفاء. قال : - في مكان آخر من القصيـــدة : -

سابكيك ما أبقت دموعي والبكـا بعينيّ ماء يا بنيّ يجيـــب
وما لاح نجم او تغنت حمامـــة او اخضرّ في فرع الأراك قضيب
وأضمر ان انفدت دمعي لوعـــة عليك لها تحت الضلوع وجيـــب (٢)

هذا وقد يكون لذكر الدموع هذه غاية اخرى في نفس الشاعر تتمثل في رغبتـــه بالتخفيف مما يجد على ابنه فتشفي من غليله او تجلب له راحة. وأيا مـــا كان السبب أو الغاية من وراء بكاء الشاعر وحث عينيه على اهدار الدمـــع الغزير فإنه يصور حاله وواقعه الذي يعيش من حزن ووجد على الابن الـــذي رحل فرحلت معه كل لذة وسعادة .

ويبدو أن مثل هذه المقدمة كانت اتجاها عاما ، فقد قدم غير ابراهيم ابن المهدي لقصيدة رثاء ابنه بمثل مقدمة ابراهيم. قال ابن الرومي في رثـــاء ابنه الاوسط : -

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجـــدي فجودا فقد اودى نظيركما عندي (٣)

---

(١) التعازي والمراثي ، ١٥٣
(٢) المصدر السابـــق ، ١٥٥
(٣) ديوان ابن الرومي ، ج٢ ، ٦٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يرى انه بالبكاء يرضي ابنه الميت وإن كان يعرف ان انسكاب الدمع لا يجدي مع الموت شيئا،لهذا حث عينيه على أن يجودا بالبكاء وأن يسعداه به فإن فعلا فالحمد بانتظارهما .

والحديث عن البكاء والدموع من الأقسام المهمة في قصائد رثاء الأبناء ، اذ أكثر الشعراء من ذكرهم هذا البكاء سواء بإفرادهم اياه بحديث خاص متميز أم بالحديث عنه من خلال حديثهم عن أحزانهم وآلامهم نتيجة لفقدهم فلذات أكبادهم . ولم يكتف كثيرون منهم بالحديث عنها في مقدمات قصائدهم وإنما كرروا هذا الحديث في طياتها وزادوا عليه معاني اخرى ، كما ورد في الفصل الثاني .

وقد استغنى بعض الشعراء في مطلع القصيدة عن حديث البكاء والدموع واستبدل به الحديث عن هول الفاجعة ومحاولة التعزي : قال القاسم بن محمد في رثائه ابنه :-

كان الذي خفت أن يكونا ... انا الى الله راجعونا
أمسى المرجى أبو علي ... موسّدا في الثرى يمينا
حين استوى وانتهى شبابا ... وصدّق الرأي والظنونا (١)

والابتداء بوصف هول الفاجعة مما هو معبر عن واقع الشاعر الأب الذي فجعه موت ابنه فقال هذه القصيدة او تلك في رثائه اياه مصورا عظم المصاب وشدة الجزع ، وقد يعرض الى موقفه هو من الحدث كما فعل القاسم بن محمد الذي اتضح تقبله الضمني للحدث من خلال قوله " انا الى الله راجعونا " وهذا القول هو الذي يطالب الانسان المؤمن بالتمثل فيه ان أصابه مصاب في أهله أو ماله .

وقد ارتأى بعض الشعراء أن يبدأ قصيدة رثاء ابنه بالحديث مباشرة عن التعزي ولعله أراد من وراء ذلك أن يوضح لمن هم حوله ، ولمن يعذلونه ويلومونه على كثرة بكائه وشدة حزنه على ابنه : إنه يعلم أن موت ابنه قدر معرض لأن يصيب جميع الناس ، وأن الدهر متغير متقلب ، وهو لا يترك انسانا إلا ويصيبه بمكروه في نفسه أو في أهله وما السعادة التي يقدمها للناس والهناءة الا شذرات تتسع هنا وهناك ثم لا تلبث أن تنطفىء ويحل محلها

---

(١) الأوراق ، ٢٠٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظلمات الشقاء ووخزات الألم ، ولكنه يعلم أيضا أن كل هذا لا يعزيه عن ابنه ولا يصبره على البكاء والجزع . وكأنما مصابه أقوى من كل فاجعة محتملة . قال ابن الرومي في قصيدة اخرى له يرثي فيها ابنه هبة الله : -

يا هل يخلّد منظر حسن ... لممتّع او مخبر حسن ؟
أم هل يطيب لمقلة وسن ... فيقر فيها ذلك الوسن ؟
أم هل يبيت لذاهب قرن ... فيوصل ذلك القرن ؟
كم منة للدهر كدرها ... لم نصف منه ولا له المنن
ما زال يكسونا ويسلبنا ... حتى تظلّ وشكرنا احن
فمتى اراك بصرفه زينا ... فهي الزخارف منه لا الزين (١)

أما القسم الثاني من القصيدة فقد انفذه الشاعر في تعداد مناقب الفقيد وذكر صفاته التي ضاعت بموته .

قال : -

تولى وأبقى بيننا طيب ذكره ... بقلبي على طول الزمان قشيب
كان لم يكن كالدّر يلمع نوره ... بأصدافه لمّا تشنه ثقوب
كان لم يكن كالغصن في ميعة الضحى ... سقاه الندى فاهتز وهو رطيب
كأن لم يكن زين الفناء ومعقل النساء اذا يوم يكون عصيب
وريحان قلبي كان حين أشمّه ... ومؤنس قصري كان حين أغيب (٢)

وتعداد مناقب الابن الراحل هي من الأمور التي قلما خلت القصائد الرثائية للأبناء منها ، بل لقد أكثر الشعراء من تعداد مناقب أبنائهم الراحلين وانقسموا في ذلك الى فئتين ، الفئة الأولى هي فئة الشعراء الذين فقدوا أبناءهم وهم صغار في المهد او في ريعان الصبا ولم يكن قد حازوا مجدا بعد ولم يحققوا مناقبا ، لذا فقد لجأ الشاعر منهم الى بكاء آماله وأمانيه التي كان يتوقعها منه ويأملها فيه .

ومن الذين بكوا الأماني الضائعة في أبنائهم بشار بن برد حيث قال :-

وقد كنت أرجو ان يكون محمد ... لنا كافيا من فارس وخطيب (٣)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٦ ، ٢٥١٤ - ٢٥١٥
(٢) التعازي والمراثي ، ١٥٣ - ١٥٤
(٣) ديوان بشار بن برد ج ١ ، ٢٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنهم كذلك ابن الرومي ، قـــال : -

توخى حمام الموت أوسط صبيتـــي فلله كيف اختار واسطة العقـــد
على حين شمّت الخير من لمحاتـــه وآنست من أفعاله آية الرشـــد (١)

وأما الفئة الثانية فهي فئة الشعراء الذين فقدوا أبناءهم الذين كانوا فـــي في سن تؤهلهم لأنْ يحوزوا مجدا ويحفظوا مناقب ، فقام الشاعر الأب بتعـــداد هذه المناقب وبكاء هذا المجد الذي ذهب مع الابن . قال القاسم بن يوســـف في رثاء ابنه : -

وفتى يزين لبـــه أدب ورأي محصـــد
وعفافة وسماحـــة وطلاقة وتـــودد
ومهذب محض الضـــرا ئب للصواب مســـدد
لقن بحجتـــه اذا جمع الرجال المشهـــد (٢)

والصفات التي تداولها الشعراء وأكثروا منها هي ذاتها التي كان يطمـــع كل أب أن يراها في ابنه وهي تجعل من صاحبها انسانا عظيما أو مثاليا كمـــا أنها هي ذاتها التي تؤهله لأن يكون هدفا للمدح ولأنْ يشـــار اليه بالبنـــان كالكرم والعفو والسماحة والعفاف والتهذيب والبلاغة والمنطق ...

وقد ركز الشعراء في تعدادهم لمناقب أبنائهم بالدرجة الاولى علـــى المناقب الخلقية وقلة أولئك الذين تعرضوا لمناقب خلقية كالتي تحدث عنهـــا ابراهيم بن المهدي في ابنه في وصفه السابـــق ، او تحدثوا عن جمـــال الوجه كحال القاسم بن يوسف الذي قال في رثاء ابنه ايضـــا : -

كالبدر فارقة النحـــو س وقارنته الأسعـــد
وكان غرّته رقيـــق الشفرتين مهنـــد

ومن المناقب الخلقية التي أبرزها ابراهيم بن المهدي في ابنه رصانة الرجال وبلاغة القول

---

(١) الاوراق ، ٢٠٥
(٢) المصدر السابق ، ٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان قد آزى الرجال بعقله ... فإن قال قولاً كان وهو مصيب
بما تتهاداه الركاب لحسنه ... ويفحم منه الكهل وهو أريب (١)

أما القسم الثالث فقد جعله الشاعر لوصف مواجهته للحدث أو انعكاس موت ابنه على نفسه . لقد عبر الشاعر في هذا القسم عن ألمه وحزنه ويأسه من عودة ابنه فقال : -

دعته نوى لا يرتجى أوبة لها ... فقلبك مسلوب وأنت كئيب
يؤوب الى أوطانه كلّ غائب ... وأحمد في الغيّاب ليس يؤوب
تبدل دارا غير داري وجيرة ... سواي وأحداث الزمان تنوب
أقام بها مستوطنا غير أنه ... على طول ايام المقام غريب (٢)

إن احساسه بعدم عودة ابنه اليه مع تذكره عودة الغائبين ليعبر تعبيرا قويا عن حزن عميق ويأس كبير .
ومما يزيد من حزن الشاعر وأساه الموازنة بين حالين هما حياة ابنه وموته : -

وكان نصيب العين من كل لذة ... فأضحى وما للعين منه نصيب
وكانت يدي ملأى به ثم أصبحت ... بعدل الهي وهي منه سليب
وكنت به في النائبات اذا عدت ... وظهري ممتد القناة صليب
بحال الذي يجتاحه السيل بغتة ... فيفتقد الأدنين وهو حريب (٣)

فهذه الخسارة التي لحقت الأب بموت ابنه مقرونة الى تذكر الحال التي كان عليها وابنه حوله يشد أزره ويملأ حياته سعادة وطمأنينة جعلت نفسه حزينة وحياته سقيمة لا بهجة فيها . وليس هذا فحسب مصدر حزن الاب الشاعر وألمه ، وإنما كان يلهب نفسه حزنا وحرقة المآل الذي آل اليه ابنه قال :

يعز عليّ ان تنالك ذرة ... بمسّك منها في الممر دبيب
وما زال اشفاقي عليك عشية ... حواك بها بعد النعيم قليب
وما زال اشفاقي عليك عشية ... وسادك فيها جندل وجنوب (٤)

---

(١) التعازي والمراثي ، ١٥٤
(٢) المصدر السابق ، ١٥٣
(٣) نفسه ، ١٥٤ - ١٥٥
(٤) نفسه ، ١٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فبعد أن كان يحيا فوق أرض فسيحة أصبح يضمه ممر ضيّق . وقد أشار هذا شفقة الأب وأساه. ومما ضاعف حزنه وألمه اصابته بأكثر من ابن قال :

قصمت جناحي بعدما هدّ منكبي ... أخوك ، ورأسي قد علاه مشيب
فأصبحت في الهلّاك الا حشاشة ... تذاب بنار الشوق فهي تذوب
توليتما في حجة فتركتما ... صدًى يتولى ناره وينوب (١)

وقد أصابته من جراء هذا كله حالة من الضعف الشديد حتى لقد تمنى الموت وجعله الغاية التي يرجو تحقيقها حتى يلقى ابنه الحبيب : -

فمالي الا الموت بعدك راحة ... وليس لنا في العيش بعدك طيب
وإني وإن قدّمت قبلي لعالم ... بأني وإن أبطأت منك قريب
وإن صباحا نلتقي في مسائه ... صباح الى قلبي الغداة حبيب (٢)

ومن الذين بلغ بهم الحال حد تمني الموت ابن الرومي اذ يقول : -

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ... ولو أنه اقسى من الحجر الصلد
بودي أني كنت قدمت قبله ... وأن المنايا صمدت صمدي (٣)

وقال :

أود اذا ما الموت اوفد معشرا ... الى عسكر الاموات أني من الوفد (٤)

أما عبدالرحمن العتبي فقد عجز عن وصف حاله فقال :

كلّ لساني عن وصف ما أجد ... وذقت ثكلا ما ذاقه احد
وأوطنت حرقة حشاي فقد ... ذاب عليها الفؤاد والكبد
ما عالج الحزن والحرارة في الاحشاء من لم يمت له ولد (٥)

---

(١) التعازي والمراثي ١٥٥ - ١٥٦
(٢) المصدر السابق ١٥٥ - ١٥٦
(٣) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٦٢٥
(٤) المصدر السابق ج٢ - ٦٢٧
(٥) الكامل ، ٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القصيدة الثانية المختارة هي قصيدة القاسم بن يوسف في رثاء أخيه احمد وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة : -

أولها : محاولة للتعزي عن المصاب
وثانيها : بكاء أخيه وتعداد مناقبه
ثالثها : خاتمة تحدث فيها عن الدنيا وجبروتها

ابتدأ الشاعر قصيدته بحث نفسه على الصبر ، فقال : -

رماك الدهر بالخطب الجليل ... فعزّ النفس بالصبر الجميل (١)

فالحدث الذي اصيب به هو حدث جلل ، لا يفيد معه أمر لذا عليه التزام الصبر في مواجهة الدهر الذي يراه الشاعر أكبر عدو له وللناس جميعا ، ومن هنا فقد ركز عليه ، وكرر لفظه أربع مرات قال : -

فإنّ الدهر بالحدثان رهن ... وكل سالك قصد السبيل
وإن الدهر طلاّب دروك ... وسبّاق بأوتار الذحول
وإن الدهر لا يبقي عزيزا ... ولا تنبو يداه من الذليل
فإن الدهر لا عتبى عليه ... وليس يقبل عثرة مستقيل (٢)

فالشاعر يرى في سطوة الزمان قوة كبيرة يصعب الوقوف في وجهها ، فهو لا يبقي على انسان مهما بلغ من القوة والمنعة ورغم أن اخاه واحد من هؤلاء الذين ذهب بهم الزمن فإن هذا كله لم يعزّه ولم يقنعه بضرورة الصبر، قال : -

عزاءك قد حدا بأخيك حاد ... وناداه المنادي بالرحيل
ومالك بعد أحمد من عزاء ... ومالك بعد أحمد من ذهول
فكيف عزاء ذي قلب قريح ... من الفجعات والحزن الطويل (٣)

ولعل الذي دفع الشاعر الى مثل هذه المقدمة هو احساسه بالعجز امام قوة الدهر وجبروته الذي أخذ أخاه وأفناه كما أفنى كثيرين قبله والناس حوله

---

(١) الاوراق ، ١٨٦
(٢) المصدر السابق ، ١٨٦
(٣) نفسه ، ١٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاجزون عن رده او محاربته ، وكأني به يريد اقناع نفسه والآخرين أنه لم يقصر بحق أخيه ولم يتهاون في حمايته الا أن الدهر الذي لا يستطيع رده احد كان أقوى منه وأقدر . ولكن هذا كله لم يهوّن من مصابه او يساعده في صبر او عزاء ، ولعل السبب في ذلك اضافه الى عمق الفاجعة ، الحال التي اصبح عليها الأخ الراحل قال : -

أترجو سلوة وأخوك ثاو ... ببطن الأرض تحت ثرى مهيل
تبوأ منزلا في دار قفر ... بمدرجة السوافي والسيول
رأيت السفر غابوا ثم آبوا ... وغبت فلا اياب لذي القفول
وبات الرّكب او قالوا فراحوا ... وكم لك من مبيت أو مقيل
تحلة نازح شطت نواه ... وأوطن للاقامة والحلول (١)

فرحيل اخيه الأبدي وغيبته في غياهب القبور جعلت منه انسانا حزينا باكيا ، يعجز عن كل صبر ويرفض كل تعز .

وقد قلّت مثل هذه المقدمة في شعر الاخوة واستعاض عنها الشعراء بامور اخرى ، كوصف حالهم ازاء حدث وفاة اخوانهم قال أشجع السلمي في رثاء أخيه : -

أأدهن رأسي او تضاعف كسوتي ... ورأسك معفور وأنت سليب
فأقسم لا اصبو الى عيش لذة ... وقد ضم لحييه عليك قليب (٢)

فالشاعر في بداية قصيدته يعد أن يظل وفيا لأخيه الراحل . ووفاؤه هذا سيكون بترك كل لذة وترك كل عيش رضي.ومن ذلك عدم التزين او تجديد اللباس .

ومن الشعراء من ابتدأ قصيدة رثاء أخيه بوصف القبر الذي حواه ، وجعل ذلك منطلقا لوصف صاحب القبر قالت ليلى بنت طريف في رثاء أخيها .

بتل نباتي رسم قبر كأنه ... على جبل فوق الجبال منيف
تضمن سرورا حاتميا وناثلا ... وسورة ضرغام ورأي حصيف (٣)

---

(١) الاوراق ، ١٨٦
(٢) المصدر السابق ١٣٢.
(٣) شاعرات العرب ، ٣٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا في القسم الثاني فقد أبرز القاسم بن يوسف مناقب أخيه التي استأهلت منه بكاء متواصلا ، قال : -

ألا ابك أخاك بالدمع الهمول ... لعلّ الدمع يبرد من غليل
يروّح عنك من كمد ووجد ... كثكلى تستريح الى العويل
ومثل أخيك فلتبك البواكي ... لمهمهةٍ تلبّس بالعقول
فيفرج لبسها حتى تجلى ... برحب الذّرع والرأي الأصيل (١)

فالشاعر يرى أن مصابه بأخيه قد تجاوزه فأصاب الآخرين لذا لم يكتف بحث نفسه على البكاء وإنما أراد من البواكي ان تبكيه بدموع غزيرة تواكب عظم المصاب وتناسب الخسارة التي لحقت الناس به .

والحث على البكاء وسكب الدموع من الامور المهمة في قصيدة رثاء الاخوان ، اذ ندر من الشعراء الذين رثوا اخوانهم من لم يحث عينيه على البكاء ومن لم يصف دموعه . قال أشجع السلمي : -

ولا زلت أبكي ما تغنت حمامة ... عليك وما هبت صبا وجنوب
وما حملت عين من الماء قطرة ... وما اخضر في دوح الاراك قضيب
بكائي كثير والدموع قليلة ... وأنت بعيد والمزار قريب (٢)

وقال في قصيدة اخرى : -

لئن أنا لم ادرك من الدمع شاريا ... ولم أشف قرحا داخلا في فؤاديا (٣)

ومن الشعراء من اكدّ أن مصابه ليس في نفسه وحده وإنما أثّر أيضا على أهله وقبيلته ، لذا فقد بكوه جميعا. قالت خولة بنت طريف في رثاء أخيها : -

بكت تغلب الغلباء يوم وفاته ... وأبرز منها كل ذات نصيب
يقلن وقد أبرزن بعدك للورى ... معاتد حلي من برى وشنوف
كأنك لم تشهد مصاعا ولم تقم ... مقاما على الاعداء غير خفيف (٤)

---

(١) الاوراق ، ١٨٦
(٢) المصدر السابق ١٣٢.
(٣) نفسه ، ١٣٣
(٤) شاعرات العرب ، ٣٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل الشاعرة قد أرادت من جعل البكاء عاما في قبيلتها تعميما للمصاب الذي لم يكن مصابها وحدها ، وإنما كان مصاب القبيلة كلها ، لقد فجعت القبيلة بواحد من خيرة أبنائها قيادة وشجاعة وخلقا . كما أوضحت الشاعرة في بقية قصيدتها .

وقد اتبع الشاعر القاسم بن يوسف حديثه عن البكاء وغزارة الدموع تعداد مناقب أخيه ولعله قدم لتعداد المناقب بالحديث عن الدموع لتبرير شدة بكائه وغزارة دموعه .

وتعداد المناقب وذكر فضائل الأخ الراحل من أهم اجزاء القصيدة وأكثرها أهمية في نفس الشاعر ، ولعل هذا راجع لسببين هامين أولهما : أن الشعراء في رثائهم لأخوانهم صوروا عمق الخسارة التي لحقتهم ومن حولهم بوفاة اخوانهم .

لهذا كان التركيز على مناقبهم وأخلاقهم يفيد في تأكيد هذه الخسارة وتصوير عمقها .

وثانيهما : أنهم أرادو القول بأن الأخ الذي يكون على خلق عظيم وفضل كبير ومكانة عالية يكون أحق بالجزع والبكاء وفقدان الصبر وعدم القدرة على التعزي . لذا أسهبوا في تعداد مناقب اخوانهم ووصف أخلاقهم فزادوهم بذلك شرفا وأعطوهم ما يستحقون من التأبين . قال القاسم بن يوسف : -

زعيم القوم في جدّ وهزل ... بحسن فكاهة وصواب قيل
فتى سهل الخليقة والمحيا ... يعاف ويحتوي خلق البخيل
اذا استمطرت راحته فدفق ... سواكبها بغيث حيا هطول
على الحالين من يسر وعسر ... اذا ضن الخليل عن الخليل
ربيع المعتفين اذا استهلت ... شهور القرّ في الزمن القحول
ثمال للأرامل واليتامى ... وللجار المجاور والدخيل
حفي بالأقارب والأداني ... كفعل الوالد البر الوصول
يضمهم الى كنف رحيب ... ويؤويهم الى ظل ظليل
ويقبل منهم الحسنى ويعفر ... عن السوأى لدى جهل الجهول
ويحمل كلهم والثقل عنهم ... فتى غير السئوم ولا الملول
وأضحوا بعده آسفا عليه ... كموجعة مفجعة ثكول(١)

(١) الاوراق ١٨٦ - ١٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر قد جعل من أخيه مثالا للرجل الزعيم في قومه فهو سهل الخليقة وصاحب منطق ، وهو كريم يحب الكرم ويكره البخل ، معطاء في كل حال ، لا يهمه إن كان معسرا او موسرا ، يقدم كل عون ومساعدة لكل من حوله من المحتاجين والأرامل والأيتام والجيران ويتعامل بالبر مع الجميع سواء أكانوا أقارب أم أباعد، كما يفعل الوالد البار مع أبنائه ، وهو كذلك حليم يقبل الحسنى ويعفو عن الخطأ .

ولا شك أن مثل هذه الاخلاق هي ذاتها التي تعارفت عليها العرب بأنها أفضل وأعلى الأنواع التي تجعل من الرجل مثاليا .

أما خولة بنت طريف فقد أكثرت هي الأخرى من تعداد مناقب أخيها حتى إنها قصرت معظم أبيات قصيدتها على هذا الجانب . قالت : -

فتى لا يلوم السيف حين يهزه ... اذا ما اختلى من عاتق وصليف
فتى لا يحبّ الزاد الا من التقى ... ولا المال الا من قنا وسيوف
ولا الخيل الا كل جرداء شطبة ... وأجرد ضخم المنكبين عطوف
فقدناه فقدان الربيع وليتنا ... فديناه من ساداتنا بالنفوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه ... شجا لعدو او لجا لضعيف
حليف الندى إن عاش يرضى به الندى ... وإن مات لا يرضى الندى بحليف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد ... فيا ربّ خيل فضّها وصفوف (١)

وقالت في مكان آخر من القصيدة ذاتها :

كأنك لم تشهد مصاعا ولم تقم ... مقاما على الأعداء غير خفيف
ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبة ... ولم تبد في خضراء ذات رفيف
دلاص ترى فيها كدوحا من القنا ... ومن ذلق يعجمنها بحروف
وطعنة خلس قد طعنت مرشة ... على يزنيّ كالشهاب رعوف
ومائدة محمودة قد علوتها ... بأوصال بختيّ احدّ عليف (٢)

ومما يبدو في قصيدة الشاعرة أنها ركزت بالدرجة الاولى على خلق الشجاعة وحسن الطعان والقتال ، ولعل مناسبة القصيدة هي التي فرضت هذا ، اذ أن أخاها الذي كان زعيما من زعماء الخوارج قتل على يد ابن عمه يزيد بن مزيد قائد العباسيين

---

(١) شاعرات العرب ، ٣٧٥
(٢) المصدر السابق ، ٣٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في حرب دارت بينهما .[1] لذا فكأني بالشاعرة تريد أن توحي بأن انهزام أخيها ومقتله لم يكن ليقلل من شجاعته وحذقه بفنون الحرب ولا من قيمة بطولاته السابقة وانتصاراته الكثيرة . وإنما هذا هو حال الحرب التي تخدع أشجع الشجعان وأكثرهم بطولة . ومن هنا فقد جاء تركيزها على صفات الشجاعة والفروسية وحسن قيادة الجيش وقوة الضرب والطعن ولكنها مع هذا كله لم تغفل ذكر كرمه ورأيه الحصيف ومعروفه فقالت في مطلع قصيدتها :-

بتل نَباتَى رسم قبر كأنه ... على جبل فوق الجبال منيف
تضمن سرورا حاتميا ونائلا ... وسورة ضرغام ورأي حصيف
الا قاتل الله الخنا كيف اضمرت ... فتى كان للمعروف غير عيوف[2]

فهو بالاضافة الى صفاته القتالية السابقة يتمتع بصفات اخرى فقد كان كريما يحب المعروف ويقدمه بالاضافة الى كونه حكيما يملك رأيا حصيفا .

وأما القسم الاخير الذي اختتم به القاسم بن يوسف قصيدته فكان للحديث عن الدنيا وجبروتها ، قال : -

أرى الدنيا تطلع نجم سعد ... وينحسه بمهبطه الأفول
فكم قرن أبادت بعد قرن ... وجيل أهلكت من بعد جيل
وإما أخطأتك يد المنايا ... فمخطبها مصيبك عن قليل[3]

فالشاعر يعود مرة أخرى للحديث عن جبروت الدنيا وقدرتها على ابادة الناس جميعا مهما طال بهم الزمن ، ومهما كانت قوتهم . ومكانتهم .وكأني به يحاول مرة اخرى تجديد محاولته التي بدأها في مطلع القصيدة لعله يعزي نفسه ويصبرها على مصابها بأخيه . وقد اختار مثل هذه الخاتمة غيره من الشعراء ، منهم أشجع السلمي : -

ندب وننسى أننا بمضيعة ... وللّيل فينا والنهار دبيب
وكل فتى يوما وإن طال عمره ... سيدعى الى ما ساءه فيجيب[4]

---

(١) الأغاني
(٢) شاعرات العرب ، ٣٧٦
(٣) الاوراق ، ١٨٧
(٤) المصدر السابق ، ١٣٢ - ١٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو لي ان مثل هذه الخاتمة مناسبة في نهاية قصيدة رثاء الاخوان، اذ أن الشاعر يكون قد تحدث في أمورٍ كثيرة تخصه في جزعه وبكائه وقلة صبره، ويخص أخاه في وصف حاله وما آل اليه ، وذكر مناقبه ثم تأتي بعد هذه الخاتمة التي تشكل في مضمونها خاتمة الحديث عن الموضوع ، وفيها يصل الشاعر الى ما يجب أن يصل اليه المفجوع مهما طال به الوقت ليقرر أن هذا هو حال الدنيا وحال أصحابها ،ولا بد أن يأتي يوم يفنى به الناس جميعا .

وقد يرتفع الشاعر في مستوى حديثه الشعري فيصبح حديثه عميقا وشاملا يفيد كل من هم في مثل حاله ، ونستطيع بالتالي أن نصفها بالحكمة ، لصدقها الموضوعي ولعمقها وخلودها ، كما هو الحال في أبيات القاسم ابن يوسف وأشجع السلمي .

أما القصيدة الثالثة فهي من شعر المناسبات الذي أخذ قسطا لا بأس به من شعر الأسرة ، والذي كان أغلبه في التعزية بأحد افراد الأسرة أو التهنئة بالمواليد الجدد ، ومنه التهنئة بالخلافة أو بعقد ولاية العهد لأحد افراد الاسرة خصوصا للأبناء .

وقد تشابهت قصيدة التعزية والتهنئة في البناء كثيرا مع الاختلاف الشاسع بينهما في الأفكار والعواطف .

وغالبا ما كانت تنقسم قصيدة المناسبات من تعزية وتهنئة الى ما يلي : -

أولا : ذكر المولود او المتوفى ، وذلك بعرض لصفات المولود الجمالية وما تبشر به ملامحه من أخلاق عظيمة ومجد كبير سيكون له في المستقبل. وأما بالنسبة للمتوفى فيكون بذكر الأماني الضائعة إن كان طفلا، وتعداد مناقبه وفضائله إن كان بلغ من العمر سنا تؤهله لتحقيق شيء من ذلك .
ومن باب ذكر المولود او المتوفي الدعاء للأول بطول العمر، وللثاني بالرحمة والغفران .

ثانيا : مدح الأب وتعظيمه واكباره في قصيدة التهنئة ، لأن في ذلك اثباتا لصفات المولود ، اذ ان من له أب عظيم لا بد وان يحقق شيئا من العظمة على الأقل . وفي التعزية فإن مدح المعزى واكباره في جعله مثالا للقوة والحكمة يدفعه لان يكون أكثر قدرة على تحمل تبعات المصاب وتجاوزها بشجاعة وصبر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : الدعاء للأب بطول العمر في قصيدة التهنئة ليرى ابنه الجديد واخوانه وقد حققوا ما كان يأمل هو فيهم ، وفي التعزية يوحي هذا الدعاء للمعزى بأنه الامل في التعويض عن عمر الذي رحل سواء اكان ابنا أم اخا أم أما أم زوجة .

رابعا : ذكر الأصدقاء الذين يفرحون للخير ويعزون الصديق في حال المصيبة كما يكونون معه في حال الفرح ، والتركيز بالمقابل على موقف الحساد الذين يشمتون بكل مصيبة ويفرحون لها ويحسدون في حال الخير . وهذا هو وصفهم في قصيدة التهنئة او التعزية على حد سواء.

ومن الاختلافات بين قصيدة التهنئة والتعزية ، أنّ الشاعر غالبا ما كان يذكر والدة المولود فيشير الى جمالها الذي كان سببا في جمال ابنها أو ابنتها وقد يتطرق الى نسبها وسلالتها فيمدحها ، ونادرا ما تذكر المرأة في قصيدة التعزية .

والقصيدة التي اخترتها من شعر المناسبات ، هي من شعر التهنئة بالمواليد الجدد ، وقد شاع مثل هذا الغرض في العصر العباسي واعتبر صورة من صور المدح ولونا من ألوانه ، وكأني ببعض الشعراء كانوا يرون في مثل هذه المناسبة مناسبة لعمل المدائح في شخص ما كما كان يفعل ابن الرومي، ومن تهانيه الكثيرة واحدة هنأ بها القاسم بن عبدالله بمولود .

وقد ابتدأ الشاعر قصيدته بذكر المولود الجديد فقال : -

يمّن الله طلعة المولود ... وحبا اهله بطول السعود
فهم الضامنون حين توالى ... منسيات العهود حفظ العهود
والألي ان رعوا حلوبه مجد ... لأولى الأمر لم تكن بجدود
فليقل قائل لذي الصدر الميـ ... ـمون منهم في أمره والورود
أمتع الله ذو المواهب بالمـ ... ـوهب غير المخسس المنكود (١)

ففي هذا القسم يدعو الشاعر للمولود الجديد بالحياة المجيدة في حياة والده وأهله الذين سيوفرون له كل أمر مفيد لتحقيق هذه الحياة بما يملكون من اوصاف ومؤهلات.لذا فها هو يرى فيه ملامح الخير والبشر ، قال : -

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ،٦١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وافد زار مستماحي وفـــــود مرتجى منه مستماح وفـــود
سلّه الله للخطوب من الغيـــ ب كسلّ المهند المغمـــود
فيه عرف ، وفيه نكر معـــدا ن لأهل النّهى وأهل المـــزود
وكمين الحريق في العود مُخفـــىً وحَقينَ الرحيق في العنقـــود (١)

ولعل الشاعر جعل من هذه المقدمة منطلقا لمدح والد المولود وأجداده ،فهـــو فيها يلمح الى مكانتهم وبعض صفاتهم.هذا بالاضافة الى أن أمله الكبير فـــي مستقبل المولود لم يكن على غير أساس بل كانت صفات أبيه وأجداده هـــي المنطلق الذي اعتمده الشاعر لتوقع مستقبله .

وقد لا يفوته أن يذكر الأم وينوه ببعض صفاتها :

نجلته بيضاء من ملكات الـــر روم تدعى لقيصر معبـــود (٢)

وذكر الأم يكون لصفاتها الجمالية والتي يجعلها سببا في ولادة طفل جميـــل ، وقد يشترك الأب في مثل هذه الصفات ، اذ قال : -

بدر طلـــق ، وشمس دجن من الأفـــ لاك جاء ابكوكب مسعـــود (٣)

ومن الامور التي تدعو الشاعر لذكر الأم في قصيدة التهنئة بالمواليد دورهـــا الكبير في عملية الانجاب ذاتها ، وهو وان ركز بالدرجة الاولى على إيـــراد صفاتها الجمالية ، فإنه قد يشير الى نسبها الذي يكون له تأثير فـــي صفات المولود ومستقبله .

وقد أشار ابن الرومي في قصيدة اخرى يهنىء بها رجل آخـــر والـــدي المولود فقال : -

بدر وشمس ولدا كوكـــبا أقسمت بالله : لقد انجبـــا
ثلاثة تشرق أنوارهـــا لا بدّلت من مشرق مغربـــا
بدر وشمس أبوا مشتـــر ما نازعت شرواة أم ابـــا
قد قلت اذ بشّرت بالمشتـري قول امرىء لم يخـشَ ان يكذبـــا (٤)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٦١٦
(٢) المصدر السابـــق ج ٢ ، ٦١٦
(٣) المصدر نفســـه ج ٢ ، ٦١٦
(٤) نفســـه ج ١ ، ٢٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يشير الى جمال الوالد كاشارته الى جمال الوالدة ويجعلهما السبب في ولادة الابن الجميل .

وللحساد والاصدقاء نصيب من بناء قصيدة التهنئة بالمواليد كما ذكرت من قبل اذ قال فيهم ابن الرومي : -

ليلة الاربعاء ، وهو من الأيـ ... يام يوم ما شئت من محمود
كان نحسا على ثمود وعاد ... وسعودا لصالح ولهود
فالذي فيه ان نظرنا من الشّر ... ولعاد بكفرها وثمود
ولنا خيره وذروة منجا ... ة لأنّا أضداد أهل العنود (١)

فالخير قد كان له وضعان مختلفان على طائفتين من الناس ، الأصدقاء الذين فرحوا بقدوم المولود ، والحساد الذين اعتبروا يوم ولادته يوم نحس لهم .

أما القسم الاكبر فقد خصه الشاعر لمدح والد المولود الجديد وقومه ، فقال فيهم : -

آل وهب : فوزا لكم بسليما ... ن وكبتا للحاسد المفئود
قد بدا في فراسة الفارس الطّا ... لع يُمن دعواه ذات شهود
وكذا أنتم لكم أمسرات ... يتكلمن عنكم في المهود
طلعت منه غرّة كسنا الفجـ ... ـر ، وسيما كالمخلص المنفود
ثم سماه ،باسمه سيد السا ... دات غير المدافع الممجود
وقضى الله ان يكون سميا ... وكنيا لجدّه المجود
لسليمان ، وهو في آل وهب ... كسليمان في بني داود (٢)

وقال : -

لا عقمتم يا آل وهب فما الدنـ ... يا لقوم امثالكم بولود
كلكم ماجد ولم ير فيكم ... ماجد قطّ ذو أب ممجود
انصل ينتضين من أنصل بيـ ... ض كأمثالهنّ لا من غمود
وبدور طوالع من بدور ... وشموس ، لا من دياجير سود
تنجلي انجما وتعلو بدورا ... في نظام متابع مسرود
مات اسلافكم فانشرتموهم ... فهم في القلوب لا في اللحود (٣)

---

(١) ديوان ابن الرومي ج ٢ ، ٦١٦
(٢) المصدر السابق ج ٢ ، ٦١٦ - ٦١٧ .
(٣) نفسه ج ٢ ، ٦١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتابع الشاعر تعداد مناقب قوم المولود وأجداده فيصفهم بالحكمة والشجاعة والكرم ، ويستمر في اضفاء صفات العظمة والمجد عليهم الى نهاية القصيدة ، وبهذا فإنه يكون قد جعل معظم أبياتها فيمدحهم . ولا أظنه بهذا يخرج عن موضوع القصيدة او هدفها ،فبالاضافة الى أن التهنئة فن تابع لفن المديح أصلا ، فإن الشاعر يوظف هذا المدح لوالد المولود وقومه لغاية مفيدة في صلب الموضع الاصلي -التهنئة- اذ ان ما يراه الشاعر من ملاح الصفات الجيدة في المولود له جذر وأصل في والده وأجداده وبالتالي فهو يسير على دربهم ويحقق ما حققوا ويصل الى ما وصلوا اليه من المجد . وكذلك فإن من كان من الآباء يملك صفات عظيمة وكان على خلق ويملك مجدا ،فإنه بلا شك سيورث بعضا من هذه الصفات إن لم يورثها كلها لأولاده ، لذا فإن تذكير الشاعر بأخلاق الأب وأخلاق قومه ،تنبيه لما سيكون عليه مستقبل المولود الجديد ،فهو،وإن كان يمدح الأب والاجداد فهو يشير بما سيكون عليه المولود ولذلك يمدحه .

وهذا كله يدفعنا الى القول بوحدة الموضوع في شعر المناسبات (التهنئة ، والتعزية) ووحدتهما مثال على وحدة قصيدة الأسرة بشكل عام كما وضحنا في هذا الفصل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

هدفت الرسالة الى معالجة العلاقات الأسرية من خلال الشعر في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ،وجاءت في فصول خمسة هي : - الأول للعلاقات الزوجية والثاني للأمومة والثالث للابوة والنبوة والرابع للأخوة والخامس للقضايا الفنية .

وقد بدت العلاقة بين الزوجين ضعيفة فاترة يسيطر فيها الرجل سيطرة واضحة فيهجو ويشتم ويطلق لأي سبب معقول او غير معقول ولعل الذي دفع رجال هذا العصر الى اتخاذ مثل هذا الموقف من نسائهم كثرة الجواري وغلبتهن على عقول كثير من الرجال مما طبع علاقة بعضهم بزوجاتهم بالتبرم والضيق أحيانا وبالشتم والسخط أحيانا أخرى.وقد دفع هذا بعض النساء الى الغيرة وتدبير المكائد للتخلص من محظيات الزوج ، ولم يتوان بعضهن من الاقدام على قتل الزوج احيانا .

وفي فصل الأمومة ابرز الشعراء الأم وهي تحقق واجباتها على أحسن وجه فكانت عندهم مضرب المثل للتفحية والحرص والحب ، لكن الاشعار التي خصت الامهات بقصائد او مقطعات كانت قليلة ، وقد رددت ذلك الى طبيعة المجتمع العربي في ذلك الوقت والذي قلما اهتم فيه الشعراء بما يخص مهام المرأة وواجباتها ، أما وزوجة . وما اهتموا به منها هو الجمال الشكلي الذي خصوه بقصائد غزلهم الشهيرة . هذا بالاضافة الى تراجع مكانة المرأة بشكل عام في هذا العصر ، الذي بدا واضحا في فصل العلاقات الزوجية.

أمّا في فصل الابوة ، فقد برزت علاقة الآباء بأبنائهم قوية بالغة مستوى من العمق يصور وعي كثير من الآباء وارتباطهم الوثيق بأبنائهم أما علاقة الأبناء بآبائهم فبدت أقل قوة واقل عمقا وأظهرت ذلك كمية الشعر عليها ودرجة الاهتمام فيه بشكل عام ، لكنها ابرزت بعض الصور الايجابية لهذه العلاقة وبعضا آخر سلبيا .

امّا في فصل الاخوة ، فقد برزت العلاقة بين الاخوة (الاشقاء) قوية مترابطة في كثير من الاحيان ، وقد بدا هذا الترابط واضحا في رثاء الاخوان بخاصة ، اضافة الى مديحهم والتعاطف معهم . هذا ولم يخل شعر هذا العصر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ابراز صور العلاقة الضعيفة بين الاخوان . لقد بدت هذه الصور واضحة في هجاء الاخوان الذي كان السبب فيه التنافس على مكاسب الحياة الدنيا من مال وجاه . وقد كان للسياسة دور كبير في افساد هذه العلاقة والوصول بها الى قتل الاخ او التآمر عليه .

وفي فصل القضايا الفنية انقسم شعر الأسرة الى شعر بسيط يميل الى الشعبية في بعضه وآخر محكم البناء والنسج رفيع المستوى في اللغة والتراكيب ولما كانت قصيدة الرثاء هي الغالبة على شعر الأسرة فقد درست بناء ثلاثة نماذج منها نفذت الى غيرها بغية المقارنة والمقايسة في بناء الأقسام المختلفة للقصيدة الواحدة وتوصلت من ذلك الى نتيجة عامة هي أن أكثر القصائد كانت تتبع مناهج متقاربة في بنائها وموضوعاتها لكن هناك فرقا واضحا بين القصائد الذاتية وقصائد المناسبات فكانت الأولى أكثر صدقا وعمقا وتدفقا في العواطف . وكانت الثانية اكثر صنعة وتحكيكا وأقل صدقا ، ولعل طبيعة موقع الشاعر من الحدث في القصيدتين يفرض هذا . فالشاعر في الأولى صاحب الحدث الذي يعاني من اثارة ، اما في الثانية فهو متعاطف مع صاحبه يحاول تخفيف المصاب عنه ، وفرق كبير بين الموقفين ، هذا وقد يكون في الثانية منتفعا او طالبا لمنفعة . وفي هذه الحالة قد لا يكون دوره اكثر من تسجيل عواطف خارجية يتمثلها تمثلا دون ان يكون قد عاناها او احسّ بها فعلا .

لقد احتاجت مني الدراسة ان اطل على العصور السابقة لعصرها لذا قدمت لها بتمهيد وأشرت فيه لبعض صور التواد الأسري الذي بدا من خلال مراثي الاخوان وغيرهم من افراد الأسرة ، وبروز الاهتمام بالزوجة او الأبناء من خلال الأشعار والنصائح والوصايا الجاهلية لكنني أشرت ايضا الى كثير من صور التفكك الأسري مثل اباحية تعدد الزوجات وكره البنات وعدم الاعتراف بأبناء الجواري والاماء وغير ذلك . وقد ابرزت بعد ذلك تغيير الاسلام لكثير من هذه الاعراف الجاهلية ورفضه لبعضها رفضا تاما . ورفع قيمة المرأة بنتا وزوجة وأما ،اذ اوصى بها الأب والزوج والابن خيراً كما انه نظم علاقة جميع أفراد الأسرة بعضهم ببعض فأقامها على التكافل والتراحم والتعاون وجعل المودة والحب كفيلين بجلب السعادة والهناء لجميع افرادها .

أرجو أن أكون قد خدمت البحث بما يجب لأن هذا هو هدفي ومقصدي منذ أن بدأت العمل فيه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجـــع

٠١ القرآن الكريـــــم ٠

٠٢ ابن الرومـي فنه ونفسيته من خـلال شعـــره
ايليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني المصري ، بيروت ـ لبنـان ١٩٨٠م ٠

٠٣ ابو العتاهيـــة اخبـــاره واشعـــاره ٠
تحقيق الدكتور شكري فيصـل ، مطبعـة جامعـة دمشق ، ١٩٦٥م ٠

٠٤ اخبار ابو نواس ابن منظور شرح وضبط محمد عبدالرسول ابراهيم ٠
جمـع ونشر عباس الشربيني مطبعـــة الاعتمـــاد ١٩٢٤م ٠

٠٥ اخبار الشعراء : ـ المسمى كتاب الاوراق ٠
محمد بن يحي ابو بكر الصولي عني بجمعه ج هيوراث دن ٠

٠٦ اخبار الظراف والمتماجين ٠
تأليف أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ، مطبعة التوفيق ، دمشق ١٣٤٧هـ ٠

٠٧ الأدب في ظـل الخلافـة العباسية ٠
علـي جميـل مهنسا مراكش المغرب مطبعـــة النجـاح الحديثـــة ١٩٨١م ٠

٠٨ الاسرة ومشكلاتهـا ٠
محمـــــود حســـن دار النهضـــة العربية / بيـــروت ـ لبنـــان ، ١٩٨١م

٠٩ اشعار اولاد الخلفـاء واخبارهـــم ٠
من كتاب الاوراق لابـي بكر محمد بن يحـي الصولـــي ٠
نشر ج هيوارث دن مطبعـــــــــة الصاوي شارع الخليج المصري ، ١٩٣٦م ٠

٠١٠ اشعار النساء ٠
تأليف ابي عبدالله بن عمران المرزباني ، حققه وقدم له الدكتور سامـــي مكـي ، وهـلال ناجـي دار الرسالة للطباعة ، بغداد ١٩٧٦م ٠

٠١١ الاغانـــي ٠
أبـــو الفرج الاصفهانـــي ، تحقيق علي السباعي عبدالكريم العزباوي ، حمـــود هيثـــم ، اشراف محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء التراث العربـــي بيروت ـ لبنان ٠

٠١٢ الأمـالـي فـي لغـة العـــرب ٠
أبو علي اسماعيـــل بن القاسم القالـي البغدادي ، دار الكتب العلميـــة ، بيروت ـ لبنان ١٩٧٨م ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣. الامومة في القرآن الكريم والسنة النبوية .
محمد السيد الزعبلاوي ، مؤسسة الرسالة ط[1] ١٩٨٤م .

١٤. بدائع البدائه .
علي بن ظاهر الازدي ، المطبعة المصرية ، ١٢٧٨هـ

١٥. البخلاء .
الجاحظ ،تحقيق وتعليق طه الحاجري الطبعة السادسة دار المعارف .

١٦. البيان والتبين .
الجاحظ تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، دار الفكر بيروت ط٤ .

١٧. تاريخ ابن خلدون .
منشورات دار الكتاب العربي اللبناني للطباعة والنشر ١٩٥٧م .

١٨. تاريخ الامم والملوك .
للامام ابي جعفر محمد بن جرير الطبري مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٣٩م .

١٩. الحياة العربية من العصر الجاهلي .
د.احمد الحوفي دار النهضة للطباعة والنشر - مصر ط[5] ١٩٧٢م .

٢٠. الحيوان .
للجاحظ ، حققه وقدم له فوزي عطوي ، دار صعب بيروت ط[3] - ١٩٨٢م
وطبعة عبدالسلام هارون مشورات المجمع العربي الاسلامي الحيوان بيروت - لبنان /ط[3] - ١٩٦٩م .

٢١. ديوان ابن الرومي .
تحقيق حسين نصار - مطبعة دار الكتب ، دار احياء التراث العربي ، بيروت - لبنان،١٩٧٧م .

٢٢. ديوان ابي تمام ،
بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف مصر القاهرة ط[3].

٢٣. ديوان ابي نواس .
الحسن بن هاني تحقيق وضبط وشرح احمد عبدالمجيد الغزالي ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ط[1] ١٩٨٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٤. ديوان اسحق الموصلي .
جمع وتحقيق ماجد احمد العربي ، بغداد ،١٩٧٠م .

٢٥. ديوان بشار بن برد .
جمع وتحقيق وتكميل وتعليق فضيلة العلامة سماحة الاستاذ الامام الشيخ محمد الطاهر حسين عاشور نشر الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٦م.

٢٦. ديوان دعبل بن علي .
جمع وتحقيق محمد يوسف نجم ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت لبنان ١٩٦٢م .

٢٧. ديوان ديك الجن .
حققه وأعد تكملته د. احمد مطلوب وعبدالله الجبوري ، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ، لبنان .

٢٨. ديوان ذي الرمة .
تحقيق عبدالقدوس ابو صالح مطبعة طربين ، دمشق ١٩٧١م .

٢٩. ديوان الشافعي .
لابي عبدالله محمد بن ادريس الشافعي جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزعبي ، مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر والتوزيع دار الجيل ، بيروت لبنان ط ٣.

٣٠. ديوان عبدالصمد بن المذل .
تحقيق وتقديم زهير غازي زاهد ، مكتبة الاندلس ، بغداد ١٩٧٠م .

٣١. ديوان علي بن ابي الجهم .
تحقيق خليل مردم بك ط٢ منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت .

٣٢. ديوان عنترة بن شداد .
شرح الاستاذ عبدالمنعم شلبي .

٣٣. رثاء الابناء في الشعر العربي .
الدكتور مخيمر صالح مكتبة المنار الزرقاء الاردن ط١.

٣٤. الرثاء .
شوقي ضيف ، دار المعارف ط١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٥. الرثاء في الشعر العربي /أو جراحات القلوب .
د. محمود حسن ابو ناجي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ط١ ١٤٠١هـ /١٩٨١م .

٣٦. رسائل الجاحظ .
ابو عثمان بن عمرو بن محمد الجاحظ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، نشر مكتبة الحانجي ، القاهرة ١٩٦٤م .

٣٧. زهر الاداب وثمر الالباب .
ابو اسحاق ابراهيم بن علي المصري القيرواني ، ضبط وشرح علي محمد البجاوي، دار احياء الكتب العربية ط٢.

٣٨. الزهرة .
النصف الثاني ، الدكتور ابراهيم السامرائي الدكتور نوري حمودي القيسي، نشر وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية ١٩٧٥م .

٣٩. الزواج والعلاقات الاسرية .
د. سناء الخولي ، دار المعرفة الجامعية ،١٩٨٢م.

٤٠. شاعرات العرب .
جمع وتحقيق عبد الديع صقر ، منشورات المكتب الاسلامي ط١ ١٩٦٧م .

٤١. شرح اشعار الهذليين .
أبو سعد السكري تحقيق عبد الستار احمد فراج مراجعة محمود شاكر، مطبعة المدني ، دار مكتبة المعرفة .

٤٢. شرح ديوان صريع الغواني .
مسلم بن الوليد الانصاري حققه وعلق عليه الدكتور سامي الدهان ، دار المعارف مصر .

٤٣. شرح شواهد التلخيص معاهد التنصيص .
لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن احمد العباسي ،المطبعة المصرية .

٤٤. شعر ربيعة الرقي .
جمع وتحقيق ودراسة الدكتور يوسف حسين بكار ، دار الاندلس للطباعة والنشر ط٢ ١٩٨٤م .

٤٥. شعر ديوان بن أبي حفصة .
جمع وتحقيق وتقديم الدكتور حسين عطوان ، دار المعارف مصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٠٤٦ الشعر والشعراء .
تصنيف ابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ،حققه وضبط نصه ، د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط[1] ١٩٨١م .

٠٤٧ الشعر والشعراء في العصر العباسي .
الدكتور مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين بيروت ط[٣] ١٩٧٥م .

٠٤٨ صحيح البخاري ، للامام ابي عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيره برذزبة البخاري الجعفي ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١م .

٠٤٩ مريع الغواني حياته وشعره .
الدكتور عبدالقادر الرباعي دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ط [1] ١٩٨٣م .

٠٥٠ الصناعتين ،الكتابة والشعر .
تحقيق ابي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، تحقيقوضبط الدكتور مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ط[٢]١٩٨٤م.

٠٥١ طبقات الشعراء .
لابن المعتز ، تحقيق عبدالستار احمد فراج ، الطبعة الثانية دار المعارف المصرية .

٠٥٢ طبقات المعتزلة .
احمد بن يحيى المرتضى ، تحقيق سوسنة ديفلد - فليرز ، بيروت - لبنان ١٩٦١م .

٠٥٣ ظهر الاسلام .
أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ط[٣] .

٠٥٤ العنابي حياته وما تبقى من شعره .
د. ناصر حلاوي ، دار الطباعة الحديثة البصره .

٠٥٥ العصر الجاهلي .
د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط[٣] .

٠٥٦ العصر العباسي الاول .
د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ط[٢] ، ١٩٦٦م .

٠٥٧ العصر العباسي الثاني .
د. شوقي ضيف دار المعارف ، مصر

٠٥٨ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .
ابن رشيف القيراوني ، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت - لبنان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٠٥٩ العقد الفريد ٠
ابن عبدربه الاندلسي ، شرح وضبط وتصحيح احمد امين ، احمد الزين ، احمد الانباري ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ط٣ ١٩٦٥م ٠

٠٦٠ عيون الاخبار ٠
ابو محمد مسلم بن قتيبة الدينوري ، نشخة مصورة عن دار الكتب ،١٩٦٣م٠

٠٦١ قاموس المحيط ٠
محمد بين يعقوب الفيروزآبادي تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بيروت ط ١ ١٩٨٦م ٠

٠٦٢ قاموس الوسيط ٠
قام باخراجه ابراهيم مصطفى ، احمد حسن الزيات ، حامد عبدالقادر ، محمد علي النجار اشرف على طبعة عبدالسلام هارون المكتبة العلمية ، طهران دار احياء التراث العربي ٠

٠٦٣ الكامل في التاريخ ٠
ابن الاثير الجوزي ، الطبقة الاولى ، الطبقة الازهرية ، مصر ١٣٠١هـ ٠

٠٦٤ لسان العرب ٠
للامام ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، دار الفكر ، دار صادر بيروت ،وطبعة المطبعة الاميرية ،مصر ،١٣٠٠هـ ٠

٠٦٥ المحاسن والاضداد ٠
أبو عثمان بن بحر الجاحظ البصري ط١، ١٣٢٤هـ ، تصحيح محمد امين الخانجي مطبعة السعادة ٠

٠٦٦ المرأة في الادب العباسي ٠
د٠ واجدة الاطرقجني دار الرشيد للنشر العراق ١٩٨١م ٠

٠٦٧ مروج الذهب ومعادن الجوهر ٠
طبعة بربيه دي بيمار وبافيه دي كرتاي عني بتحقيقها شارل بلا ، بيروت ١٩٧٣م ٠

٠٦٨ المستدرك على ديوان ديك الجن ٠
هلال ناجي طبع بمطبعة العبابجي ، بغداد ١٩٧٤م ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٩. مسند احمد - الامام احمد بن حنبل .
المكتب الاسلامي بيروت ط ٤ - ١٩٨٣م .

٧٠. معجم الادباء .
ياقوت الحموي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط٣ ، ١٩٨٠م .

٧١. معجم الشعراء .
للمرزباني ، ابي عبدالله محمد بن عمران المرزباني تصحيح وتعليق الدكتور كونكو ، مكتبة القدس ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط١ ١٩٨٢م.

٧٢. موسوعة التاريخ الاسلامي .
الدكتور احمد شلبي .

٧٣. نزهة الجلساء في اشعار النساء .
تاليف الحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتب الجديد ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

٧٤. نظام الاسرة في الاسلام .
الدكتور محمد عقله ،نشر مكتبة الرسالة ، عمان الاردن ط ١ ١٩٨٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتـــــــوى

١ - المقـــدمـــــة

٢ - الـــدراســـة

- تمهيـــــد - الاسرة في اللغـــة .
- أهميـــة الأســـرة .

- الفصـــل الأول : العـلاقـــات الزوجيـــــه .

- الوئـــام بيـــن الزوجيـــن
- دوافـــع الاثـــــارة
- الخصومـــات الـــزوجيـــــة
- عيثيـــــة الطـــــــلاق
- التشاتـــــم بالزوجـــــات

- الفصـــل الثانـي : الأمـــــومـــة .

- شعـر الامهـات فـي الابنـــــاء
- شعـر الابنـــاء فـي الامهـــات
- الام فـي شعـر المناسبـــــات

- الفصـل الثالـث : الأبـــوة والبنـــوة .

- شعـــر الابـــاء في الابنـــاء
- شعـــر الابنـــاء في الآبـــاء
- الابـوة في شعـر المناسبـــات

- الفصـل الرابع : الاخـــــوة .

- الاخوة الحقيقيـنـة (الاشقـــاء)
- التعزيـــة بالاخـــوان
- الاخوة العـــامـــة
- ذم الاخـــــــوان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس : الخصائص الفنية .

- ملحق الفصل القصائد المدروسة .

٣ - الخاتمة .

٤ - المصادر والمراجع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The Conclusion
Family Retation Ships in the Abbasid Ere until the End of the Third century

The purpose of this study is to discuss familial ties as portrayed in the poetry of the Abbassid Era till the end of the 3rd century (H).The research falls into five chapters.

The first is devoted to marital relations, the second treabs portic portrayals of motherhood, the third approaches the father - son relations, the fourth deals with brotherhood, and finally the fifth mainly focused on artistic issues and problems .

The husband - wife relations appeared to be weak and luke-warm . The man usually played a dominant rule abusing his wife or divorcing her with or without justiification . Perhaps what made the men of this age so abusive and unreasonable toward heir wives was the plenitude of " Slave - Mistresses (Jawari). The latter had captured the imagination of men that their own marital life had become painful and nauseating. This in turn had eventually made the wives so jealous, that they plotted against the lives of those mistresses as well as their own husbands.

In the chapter dealing with motherhood, the poets portrayed the role of the mother in a very congenial manner, she became the epitome of self-sacrifice and selfless love .

But the poems which dealt with the mother were quite few. Tis could be attributed to the nature of Arab society at the time, a society whose poets had scant interest in the role and position of woman, whether as a mother or as a wife . What they cared for was shear physical beauty which was celebrated in many a love poem . (Qasidat Ghazal) . This was further aggrevated by the general recession of the status of women in this age,. a fact

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

that was revealed in portrayals of marital bonds.

The father - Son relationship was depicted as strong and profound . Father showed their intimate love toward their sons, where as the latter were less profound. This appeared in the quality of poetry devoted to the father -Son affilliation - some presented positive portraits while others quite negative ones. Most frequently, relations between brothers were revealed in a favourable light, showing intimate associations between them especially in alegies or eulogies . Be that as it may , portaits of weak ties between brothers were not totally absent in the poetry of this age. Perhaps what promoted these rather poor relations between brothers was self - seeking competition over gains and material acquistions such as money and worldly prestige. Politics played a - no- inconsiderable role in contaminating and corrupting brotherly relations to the extent of fratricide . In the section dealin with artistic issues , the poetry devoted to depicting family ties is divided into two categories : one that tends to be simple in form, almost folkloric, and one well-structured and intricately woven . AS the elegy was the dominat from,I have studied three models, comparing and contrasting of various components. I concluded that the poems approximately followed as well as the matically but there was distinct difference between subjective and extemporaneous poems. The former were more truthful pofound and spontaneous in conveying the emotions; where as the latter were more artificial and less truthful. Perhaps this is due to the nature of the poets involvement or distance from the event in ither case. In personal or subjective poems, the poet id directly involved in and stimulated by the event . In extremporaneous (or occasional) poems, the poet seems to be only a distant sympathi er or even sheer opportunistic manipulating the circumstances for his own material advantage. There is certainly tremendoas difference between the two . In occasional poems, that is the poet merely records external shows of emotions which he pretends to have

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

without ever really experiencing or feeling these emotions .

The research necessiated that I examine the ages previous to one under discussiob. Thus in the introduction, I reffered to some portraits of familial love which appeared monrning the death of a brother or some other member of the family . But I also dealt with portaibs of deteriorating family relations apparent in polygamy hatred of daughters ,, disowning bastard sons, etc in Pre-islamic poetry.

Then I showed how the avent of islam had changed and obliterated much of those Pr-Islamic attitudes and norms . Islam had restored women , daughters or mothers or wives to a higher status in society.

Father , son and husband were well - advised to take good care of women . Islam also reorganised family relations, basing them on compassion , Co~ operation, love and happiness for all.

I hope that I have exhausted the manifold aspects of this research beccause this was my objective and intention from the moment I started working in it .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit